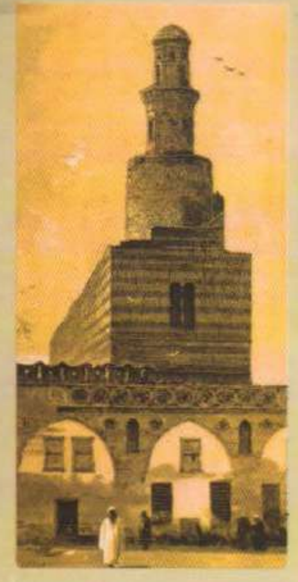








ستانلي لين - بول

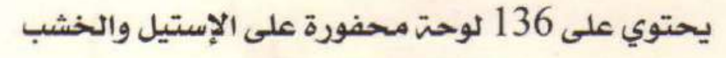
Stanley Lane-Poole



الحياة الاجتماعية في مصر

وصف للبلد وأهلها





يحتوي على 136 لوحة محفورة على الإستيل والخشب

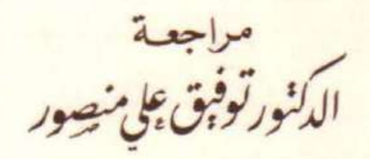
الترجمة الأولى في العالم عن طبعة

J.S. VIRTUE & CO., LONDON : 1883



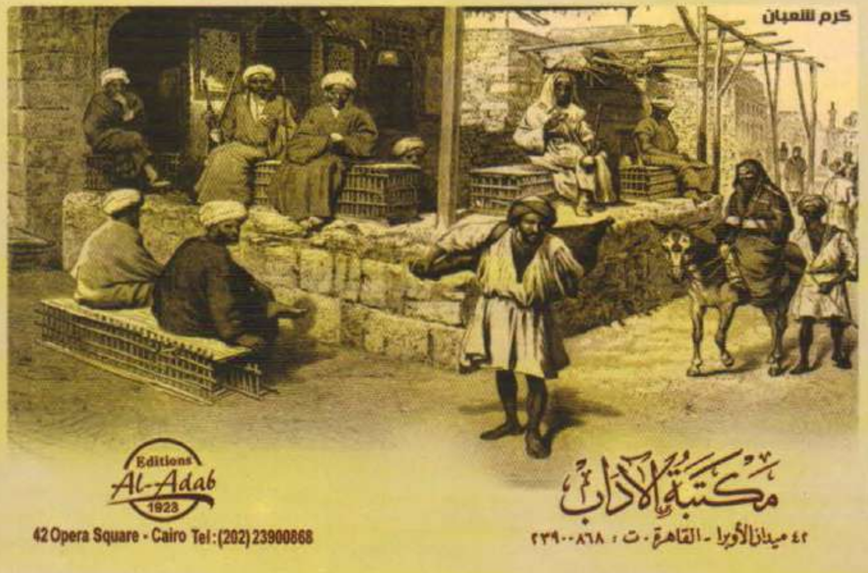
ترجمة

ماجد محمد فتحي أبوبكر



مراجعة

الدكتور توفيق علي منصور



Editions Al-Adab 1923

42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨



باب زويلة
أو بوابة القطب المتولى

SOCIAL LIFE IN EGYPT

A DESCRIPTION OF

THE COUNTRY AND ITS PEOPLE

BY

STANLEY LANE-POOLE

With Illustrations on Steel and Wood

A SUPPLEMENT TO "PICTURESQUE PALESTINE"

LONDON
J. S. VIRTUE AND CO., Limited, 294, CITY ROAD



يحتوي على ٤ لوحات منقوشة على الإستيل، و 130 لوحة محفورة على الخشب

أول ترجمة في العالم للطبعة الأوروبية النادرة المنشورة لدى:
J. S. Virtue And Co.,ltd.LONDON,1883

ترجمة
ماجد محمد فتحي أبوبكر

مراجعة
الدكتور توفيق علي منصور

مكتبة الآداب
42 ميدان الأوبرا – القاهرة ☎ : 20223900868
e.mail:adabook@hotmail.com



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بول، ستانلي لين.

الحياة الاجتماعية في مصر: وصف للبلد وأهله/

ستانلي لين بول؛ ترجمة: ماجد محمد فتحي

أبو بكر، مراجعة: توفيق علي منصور. - القاهرة:

مكتبة الآداب، ٢٠١٤.

١٨٤ ص؛ ٢٨ سم.

تدمك: ٨ ٦١٠ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - مصر - الأحوال الاجتماعية

أ - أبو بكر، ماجد محمد فتحي (مترجم)

ب - منصور، توفيق علي (مراجع)

جـ - العنوان

ديوي ٣٠٩.١٦٢

رقم الإيداع ٢١٧٠ لسنة ٢٠١٤

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-468-610-8

e.mail:adabook@hotmail.com



الصباح في مصر



فهرس اللوحات

اللوحة | الصفحة

اللوحة | الصفحة

❁❁❁

مقدمة المترجم

عُنِيَ الأوروبيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - في إطار مشاريعهم الاستعمارية - بزيارة مصر واستكشافها؛ يقيمون فيها أيامًا أو أسابيع أو حتى سنوات - كلٌّ حسب هدفه المُعلَن من الرحلة - سواءٌ للاستجمام، أو الاستشفاء، أو لمشاهدة الآثار الفرعونية والإسلامية، التي زاد من الاهتمام بها ظهورُ كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ومولد علم المصريات، وتوجُّه علماء الآثار في أوروبا وأمريكا إلى مصر لإجراء أبحاثهم وتنقيباتهم الأثرية أمثال ماسبيرو Maspero، وبتري Petrie، وسير جاردنر ويلكنسون Sir Gardner Wilkinson رائد مدرسة علم المصريات البريطانية، والفرنسي «بريس دافن» Prisse d'Avenne صاحب أشهر كتاب مصوَّر عن الفن الأثري الفرعوني والإسلامي في مصر القرن التاسع عشر، والذي أعادت طبعه الجامعة الأمريكية بالقاهرة في مجلدين فاخرين، وغيرهم الكثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم هنا.

وكانت هناك أيضًا أغراض دينية ارتبطت بمقدم الحجاج والسائحين والدارسين الأوروبيين إلى مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر وعلى امتداد القرن التاسع عشر بأكمله لزيارة الأماكن المقدسة في مهد المسيحية.

ويُعد إنشاءُ لجنة استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund عام ١٨٦٥ ببريطانيا - تحت رعاية الملكة فيكتوريا - واسطةَ عِقد هذه الأغراض السياحية والدينية الخاصة بدراسة الكتاب المقدس في فترة شهدت اضطرابًا عقائديًّا لدى المجتمع البروتستانتي في أوروبا وأمريكا. كان الهدف الأساسي من إنشاء هذه اللجنة تنفيذ أعمال المسح الجغرافي والعرقي والطبوغرافي لفلسطين وشرق الأردن وسيناء ومصر، وكذلك دراسة عادات وتقاليد شعوب تلك الأراضي المقدسة، بهدف تفسير التوراة والأماكن التي ورد ذكرُها في الكتاب المقدس، ومن ورائها بالطبع دراسة إمكانية السيطرة على هذه البقاع الثرية.

كان أشهر من عمل بهذه اللجنة الكابتن تشارلز وارين، والملازم كتشنر - الذي عُيِّن فيما بعد معتمدًا بريطانيًّا في مصر، واشتهر أمره في السودان كما هو معروف - والمستشرق إدوارد هنري بالمر صاحب كتاب «صحراء الخروج»، والسير برتون صاحب الترجمة الشهيرة لألف ليلة وليلة والرحلة إلى مكة والمدينة في أواسط القرن التاسع عشر، وكذلك الضابط البريطاني الشهير إي. تي. لورانس، المشهور بلورانس العرب.

كان من الكتب التي صدرت عن لجنة استكشاف فلسطين - والتي عمل الزمنُ عملَهُ في نسيانها في أوروبا، وفي الجهل بها في مصر - كتاب «الوصف المصوَّر لفلسطين وسيناء ومصر»

«Picturesque Palestine , Sinai, and Egypt»، الذي ألفه مجموعة من خيرة علماء اللجنة بإشراف رئيسها ضابط البحرية البريطاني سير تشارلز ويلسون، ونشرته عام ١٨٨٢. يقع هذا الكتاب في أربعة مجلدات، وصفت فيه تلك اللجنة العلمية – علىٰ غرار كتاب وصف مصر – البلدان والقرىٰ والأماكن التي وردت في الكتاب المقدس، ماضيها وحاضرها، جغرافيتها والنواحي الاجتماعية فيها، بأسلوب سلس وعميق في الوقت ذاته، كان الغرض منه إلهاب خيال الأوروبيين والأمريكيين الذين انطفأت لديهم حماسة الدين، ونزعوا إلىٰ المذاهب المادية، وذلك عن طريق الصور التي تمتلئ بها صفحات الكتاب، والتي حُفرت بأنامل رشيقة علىٰ الخشب أو الإستيل، والأسلوب العلمي السلس لوصف فلسطين وسيناء ومصر، حتىٰ تتوطد لديهم الرغبة في زيارة تلك البلاد والتمسك بأصول دينهم. والحق يُقال، إن اللوحات الموجودة علىٰ امتداد صفحات المجلدات الأربعة تشهد بمدىٰ إتقان ذلك العمل الفني والعلمي والتاريخي الرائع.

بعد إصدار هذه المجلدات الأربعة، ارتأت اللجنة وناشرُ الكتاب بلندن أن يُصدرا ملحقًا مستقلًا لهذه المجلدات يختص بوصف الحياة الاجتماعية في مصر؛ ليكون مرجعًا مصورًا عن المجتمع المصري في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وذلك نتيجة للاهتمام الأوروبي بمصر في تلك الفترة بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، والأعمال التطويرية الأوروبية التي نفذها الخديوي إسماعيل في مصر، والاحتلال البريطاني لها عام ١٨٨٢ – وكلُّها تبدو جليّة في هذا الملحق. أُطلق علىٰ هذا الملحق – الذي تجد ترجمته بين يديك الآن – عنوان «الحياة الاجتماعية في مصر، وصف للبلد وأهلها» وطبع عام ١٨٨٣، بعد الاحتلال البريطاني لمصر بعام واحد.

قال الناشر البريطاني في إعلانه عن هذا الكتاب:

«دائمًا ما تحتل الحياة الاجتماعية في مصر اهتمامًا خاصًّا لدىٰ الدارسين والباحثين المهتمين بالعادات والتقاليد في الشرق. وتُعد عادات المصريين المُحدَثين – بوجه خاص – أفضل تصوير لمواصفات وأفكار شعوب الشرق. وإضافة لذلك، فإن المجتمع المصري يحتفظ ببقايا فريدة من الأساليب التي كانت سائدة في فترة بناة الأهرام، والمقارنات التي نعقدها في مجالات أبحاثنا في كل خطوة نخطوها بمصر تجذب اهتمام القراء من مختلف الفئات.

«ولقد ارتأىٰ ناشرو «**الوصف المصوَّر لفلسطين وسيناء ومصر**» أنَّ نِصف محتوىٰ المجلد الرابع، الخاص بوصف سيناء والقاهرة ووادي النيل، لم يُشبع فضول القراء وتعطُّشهم للمزيد. ولذلك دعا الناشرون مستر ستانلي لين بول – الذي كان قد كتب خمسة فصول عن وصف مصر في ذلك المجلد الرابع – لإعداد ملحق خاص عن «الحياة الاجتماعية في مصر»، نظرًا لقرابته من

المستشرق «إدوارد وليام لين» المؤلف الشهير لكتاب «المصريون المحدثون؛ شمائلهم وعاداتهم»، وكتابته لمادة «مصر» في الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica آنذاك، ومعرفته باللغة العربية، مما يؤهله تمامًا لهذه المهمة. وقد قام مستر ستانلي بزيارة خاصة لمصر هذا العام (١٨٨٣) لضمان أن تكون المعلومات المذكورة في هذا الملحق هي أحدثها على الإطلاق». اهـ

وكان اختيار اللجنة للعمل وللمؤلف اختيارًا موفقًا، سواءٌ من ناحية المادة أم من ناحية اللوحات التصويرية الرائعة فيه.

يقع المجلد في طبعته الإنجليزية في ١٥٠ صفحة؛ يُنقل فيها القارئ بالنص ولوحاته التصويرية إلى جو مصر وأرضها. وتتشكل الصور من ست لوحات منقوشة على الإستيل؛ ومائة وثلاثين لوحة محفورة على الخشب، رسمها فنانون بريطانيون مشهورون - من داخل الشوارع والأزقة والقرى والصحاري المصرية سُجِّلت في أماكنها " Taken on the spot" - وهو عمل شاق يستحقون عليه الثناء، وللقارئ أن يضع نفسه مع كل لوحة يشاهدها في هذا الكتاب مكان أولئك الرسامين ليدرك مدى الجهد الذي بذلوه في إصدارها بهذا الشكل... في الصحاري والقرى، وعلى ضفاف النيل وشوارع وحواري القاهرة والإسكندرية. من ضمن هؤلاء الفنانين: ألما تاديما Alma- Tadema، و ج. ل. سيمور G. L. Seymour، و إي. جي. بوينتر E. J. Poynter، وغيرهم.

قسّم ستانلي لين بول الكتاب إلى **أربعة فصول**؛ تناول في **الفصل الأول** عادات وتقاليد أهل المدن، ووصَف حياتهم اليومية من كافة الوجوه، وأعمالهم، وطرق تسليتهم، وبيوتهم، وحياتهم العائلية، والحريم، وحفلات الزواج، والاحتفالات الشعبية والموالد، وطبيعة المصري البسيط في كل ذلك.

وفي **الفصل الثاني** ناقش أحوال المجتمع الزراعي والفلاحين، والحياة اليومية «لابن الشمس والعَرَق»، و وصفها وصفَ خبير، وتناول طرق الزراعة ومشاكلها في ظل السُّخرة وبساطة عقول الفلاحين، وإشفاقه على ما يلاقونه من التعب والظلم، مع طرح حلول لمشكلات الزراعة والري. وتطرّق لأثر الاعتقاد في الأولياء في الريف المصري. كما تناول مواقف طريفة من حفلات زواج الأقباط. ثم تطرق إلى الحياة الاجتماعية للبدو في صحراء مصر الشرقية «العبابدة»، ووصف طباعهم وحياة التجوال في الصحراء و«كبريائهم»؛ فلا يتسولون من المسافرين عبر الصحراء الشرقية مهما بلغ بهم الجوع، وأنهم «فئة من الشعب المصري لا يُلقىٰ لها بالٌ».

في **الفصل الثالث** كان لا بد أن تظهر النظرة التحليلية لستانلي لين بول كأثري وباحث في الآثار

الإسلامية، والذي صار عضوًا في لجنة حفظ الآثار العربية - أو متحف الفن الإسلامي فيما بعد - حينما كانت تحفظ الآثار الإسلامية المصرية في مسجد الحاكم بحي الجمالية. بدأ الفصل بوصف الحياة التعليمية والعقلية للمصري، ومدى تأثره بالدين الإسلامي، وهو وصف انتقد فيه كون المصريين لا يتعلمون إلا ما يرتبط بدينهم وشعائره - وفي أضيق الحدود - ولا يتعلمون العلوم الدنيوية التي تفيد في إصلاح المجتمع. ويُبدي لين بول إعجابه بالأزهر وطلابه ومشايخه، ويقارن بينه وبين جامعتي أكسفورد وكامبريدج في تلك الفترة. ثم يتناول الدين الإسلامي، والقرآن، ووصفَ المساجد الشهيرة بالقاهرة حسب ترتيبها التاريخي، ويذكر مَواطن الجمال فيها بأسلوب يكاد يفوق أسلوب إدوارد وليام لين، واستطرد في تفاصيلها وتاريخها. ثم ختم الفصل بوصف الصلوات والصيام ومجالس الذكر في المساجد.

وفي **الفصل الرابع** يرصد لين بول مظاهر ازدياد الأثر الأوروبي في العادات والسلوكيات والملابس والمنشآت في مصر، ونتائج هذا الأثر، وما يطمح إليه - كمواطن بريطاني ومفكر في العصر الفيكتوري الذي شهد اتساع نطاق التاج البريطاني، لاسيما بعد احتلال بريطانيا لمصر بعام - من ازدياد أثر هذا التحسين الأوروبي.

وتبقىٰ **الخاتمة** موضع نقاش؛ فهو يحمّل فهمَ المصريين المغلوط لمبادئ الإسلام المسئولية عن الوضع المتدني للمرأة في المجتمع وإهمال تعليمها، ويؤكد أن جمود عقول المصريين، أو بساطتهم، وتمسكهم الشكلي بدينهم، سيقف حائلًا أمام التجديدات الأوروبية للنهوض بمصر. ويؤكد أن التغلب علىٰ ذلك سيكون مصدر فخر لبريطانيا علىٰ مر العصور.. إن استطاعت. ويتساءل إن كان سيظل الحال كما هو عليه مهما فعل المسئولون البريطانيون - الذين تولوا إدارة شئون مصر فعليًّا وقتها - من محاولات للنهوض بمصر.

ثم نوّه في آخر سطر إلىٰ أن «الحلاوة والنور في مصر وأهلها» لن يتمتع بهما المصلح الأوروبي حتىٰ ترقّىٰ أوضاع المرأة في مصر.

ترجمة حياة ستانلي لين بول

وُلد ستانلي لين بول في مدينة لندن في ١٨ من ديسمبر عام ١٨٥٤، من أسرة عُنيتْ بالاستشراق عمومًا، وبمصر علىٰ وجه الخصوص؛ **فجدّته لأبيه** هي «صوفيا لين بول» مؤلفة كتاب English woman in Egypt الذي ترجمته الدكتورة عزة كرارة - أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الإسكندرية - تحت عنوان «حريم محمد علي». و«صوفيا» هي أخت المستشرق الكبير الغني عن

التعريف «إدوارد ويليام لين»، مؤلف كتاب «المصريون المحدَثون؛ شمائلهم وعاداتهم». وهنا يَلُوحُ خطأ شائع وقع فيه العديد ممن ترجم لستانلي لين بول، سواء على شبكة الإنترنت أو في الكتب المطبوعة؛ مثل الدكتور «حسن إبراهيم حسن» في ترجمته لكتاب «سيرة القاهرة» المنشور عام ١٩٤٤، حيث لم يذكر صلة قرابته بإدوارد ويليام لين، والدكتور أيمن فؤاد سيد في تقديمه لنفس الكتاب في طبعة المركز القومي للترجمة بالقاهرة عام ٢٠١١، حيث ذكر أن «عمه» هو إدوارد ويليام لين، بينما الصواب أنه شقيق جدته لأبيه، أي أن ستانلي لين بول حفيد أخته great nephew.

ولمّا توفي إدوارد ويليام لين عام ١٨٧٦، استكمل ستانلي لين بول المعجم العربي الإنجليزي الشهير «مدّ القاموس» Arabic- English lexicon الذي يقع في خمسة مجلدات، حيث توفي عند تصنيفه لحرف «ق»، فأكمله من بعده ستانلي لين بول. وقد تأثر لين بول بجدّه كثيرًا، واتبع نهجه في كتبه، ومنها هذا الكتاب «الحياة الاجتماعية في مصر» الذي تُرى فيه البصمة الفكرية والأدبية لإدوارد ويليام لين وكتابه «المصريون المحدَثون».

أما والد ستانلي لين بول فهو «إدوارد ستانلي بول»، الابن الأكبر لصوفيا لين بول. وقد اعتبره إدوارد ويليام لين «وريثه في التراث الفكري والعقلي»، إلا أنه توفي في سن مبكرة عام ١٨٦٧ عن عمر يناهز السابعة والثلاثين عامًا، مما سبب صدمة شخصية محبطة لإدوارد لين، فقد كان يحبه ويعوّل عليه في إكمال عمله في «مدّ القاموس»، لكنْ شاءت الأقدار أن يستكمله ابنه ستانلي لين بول.

أما **والدته** فهي ابنة عمة أبيه، واسمها روبرتا إليزابيث ريدلين Roberta Elizabeth Reddlien، وقد تزوجت من أبيه في مستهل عام ١٨٥٤ وأنجبت ستانلي قبل نهاية ذلك العام.

وعمه هو ريجينالد ستيوارت بول، وكان أصغر سنًّا من شقيقه إدوارد. وكان مُهتمًّا بعلم المصريات بتشجيع من خاله إدوارد ويليام لين. وقد أثمر ذلك أنه أسس مع المستشرقة البريطانية الشهيرة «إميليا إدواردز» جمعية استكشاف مصر « Egypt Exploration Society ». كتب إدوارد ويليام لين في ٢ يونيو ١٨٤٨ لروبرت هاي الرسام الشهير: «سيصبح أصغرُ أبناء أختي عالمَ مصريات متميزًا، والآخَرُ يُعِد نفسه ليصبح عالمًا باللغة العربية وآدابها».

تلقىٰ ستانلي لين بول تعليمه في كلية اللاهوت بلندن، ثم في جامعة أكسفورد، وأخيرًا في جامعة دبلن. ثم بدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار العربية. ويُعتبر ستانلي لين بول من كبار علماء الآثار الإسلامية والمتخصصين في تاريخ مصر في العصر الإسلامي، حيث عمل خلال الفترة بين عامي (١٨٧٤ - ١٨٩٢) أمين القسم الشرقي للنقود الأثرية والمسكوكات في المتحف البريطاني بلندن، واستطاع في أثنائها أن يضع دليلًا عن النقود الشرقية والهندية يقع في أربعة عشر مجلدًا.

يشمل هذا الدليل أو الكتالوج: «دليل العملات الشرقية» Catalogue Of Oriental Coins (1875-1882)»، ودليل النقود الهندية (1884-1892) «Catalogue Of Indian Coins».

كما تولى عضوية مجلس أمناء متحف الفن الإسلامي (وكان يسمى وقتها: «لجنة حفظ الآثار العربية»)، والتي بدأ نشاطها عام ١٨٨٢، وكان مقرها في مسجد الحاكم بأمر الله كما سيتبين في الفصل الثالث من هذا الكتاب، وإلى هذه اللجنة يرجع الفضل في الحفاظ على الكثير من المساجد والمدارس والمباني الإسلامية الأثرية بالقاهرة، إذ لم يسبق على امتداد تاريخ القاهرة أن قامت عملية حفظ شاملة لآثارها بمثل ما قامت به هذه اللجنة التي استمر دورها بعد ذلك حتى عام ١٩٥١.

كانت الحكومة البريطانية ترسل ستانلي لين بول بين الحين والآخر في بعثات علمية لدراسة الآثار وكتابة تقارير مفصلة عنها. فقام برحلة علمية إلى مصر عام ١٨٨٣ كتب فيها هذا الكتاب «الحياة الاجتماعية في مصر»، كما عمل فيما بين ستتي ١٨٩٥ و١٨٩٧ على دراسة آثار القاهرة الإسلامية تحت إشراف الحكومة المصرية. وما إن وصل إلى إنجلترا بعد هذه الدراسة الموفقة حتى عُيّن أستاذًا للغة العربية في ترينيتي كولدج Trinity College بجامعة دبلن Duplen بأيرلندا، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٠٤، ثم انتقل واستقر بعد ذلك في لندن حتى وفاته سنة ١٩٣١ عن عمر يناهز ٧٧ عامًا.



المؤلف
الصورة النادرة المعروفة لستانلي لين بول ، مأخوذة من مجموعة دوبريه Dupré من مكتبة خاصة بعائلة إدوارد ويليام لين .



والد المؤلف
إدوارد ستانلي بول، ابن صوفيا لين بول وشقيقة إدوارد ويليام لين، ووالد ستانلي لين بول. وقد كان إدوارد ويليام لين يعتبره ابنا له، ووريثه في مجال الاستشراق، ولكنه توفي في سن صغيرة عن عمر يناهز ٣٧ عاما.

مؤلفات ستانلي لين بول:

خلال تلك الحياة الحافلة بالبحث والدراسة، كتب ستانلي لين بول مؤلفات قيّمة في مجال الآثار والتاريخ والتراجم، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- حياة إدوارد ويليام لين (١٨٧٧).
- شعب تركيا (١٨٧٨).
- مختارات إدوارد ويليام لين من القرآن (١٨٧٩).
- مصر (١٨٨١).
- القرآن: لغته الشعرية وأحكامه (١٨٨٢).
- خطب وأحاديث النبي محمد (١٨٨٢).
- دراسات في مسجد (١٨٨٣).
- الحياة الاجتماعية في مصر: وصف للبلد وأهلها (١٨٨٣).
- حياة الجنرال فرانسيس رودون تشيسني (١٨٨٥).
- قصة العرب في إسبانيا (١٨٨٦). وقد ترجمه الأستاذ علي الجارم، ونشره بدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٤٤.
- تركيا (١٨٨٨).
- القراصنة البربر (١٨٩٠).
- أحاديث ومواعظ النبي محمد (١٨٩٣).
- الأسرات المحمدية الحاكمة: جداول تاريخية، وأنسابهم، مع مقدمات عن تاريخهم (١٨٩٤).
- حياة السير هاري باركز (١٨٩٤).
- صلاح الدين: السلطان القوي وموحد الإسلام (١٨٩٨).
- السلطان بابر (١٨٩٩).
- تاريخ مصر في القرون الوسطى (١٩٠١).
- الهند في القرون الوسطى تحت حكم المحمديين: من ١٧١٢ - ١٧٦٤(١٩٠٣).
- صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس (١٩٠٣).
- سيرة القاهرة (١٩٠٤). وقد ترجمه المؤرخ المصري المعروف الدكتور حسن إبراهيم حسن وشقيقه الأصغر علي إبراهيم حسن وتلميله إدوارد حليم، ونشر في مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٤٤، وأعادت طبعه الهيئة المصرية العامة للكتاب مؤخرًا، وكذلك المركز القومي للترجمة.
- المجلد الثالث من موسوعة تاريخ الهند منذ الفتح الإسلامي حتى عهد السلطان أكبر (١٩٠٧).

وبالطبع، لا ننسى تكملته للقاموس العربي الإنجليزي الشهير لإدوارد ويليام لين، والذي يعيد إصداره حاليا المركز القومي للترجمة بالقاهرة.

آمل أن أكون قد وُفقت في ترجمة هذا الكتاب القيم، وأشكر الدكتور توفيق علي منصور على مراجعته القيمة، والناشر الأستاذ أحمد علي حسن على ما أولاه من رعاية وعناية لهذه الترجمة، وأرجو أن يهنأ القراء والباحثون بهذا الطرح الثمين.

القاهرة في ١٥ من رمضان ١٤٣٥ = الحادي عشر من يوليو　　　　ماجد محمد فتحي

مقدمة المراجع

د. توفيق على منصور

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ومَن والاه. وبعد..

فإني أتوجه بخالص الشكر إلى صديقي الناشر الأمين، الأستاذ «أحمد علي حسن»، على تكليفي بمراجعة هذا الكتاب الثمين الذي يصف- بأعين إنجليزية- مصر الحبيبة بمجتمعاتها الريفية والبدوية والمدنية، بمثل ما وصفها الكتاب الفرنسي «وصف مصر».

في هذا الكتاب تجد الصورة الكاملة لحياة المصري في عام ١٨٨٣، خلال عصر حكم الخديوي توفيق، أي بعد عام من الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢. ولقد أصاب المؤلف في بعض رؤاه وتحليله لما رأى، وأخطأ أحيانًا في أحكامه في كثير مما لم يستطع استيعابه أو فهمه.

ولقد قمت بإيضاح بعض البيانات في الهوامش، ومنها الرد على ادعاء المؤلف تخلف المرأة المصرية وتدني نظرة الإسلام إليها، فأظهرت ما اختصها به القرآن الكريم في سورة النساء، حيث فضّل الأم على الأب بثلاث درجات، وأوصى بها رسولُنا الكريم خيرًا. وليت الباحثين والمترجمين والفقهاء والدعاة باللغات الأجنبية يولون هذه النظرة الاهتمام الزائد، ويسترشدون بالإحصائيات الدالة الآن على أن عدد الطالبات في الجامعات والمعاهد العليا يتعادل تقريبًا مع عدد الطلاب في مصر.

كما أنني أحيِّي المترجم النابه، الأستاذ ماجد محمد فتحي، على أمانته في الترجمة وحسن اختياره للمفردات المتنوعة، وولائه وإدراكه المستنير لمفاهيم النص الإنجليزي بمادته المتدفقة في شتى فروع المعرفة العلمية والفنية والأدبية. ومما يُحمد للمترجم: تدقيقه لنصوص آيات القرآن الكريم وآيات الكتاب المقدس، ومحاولته ترجمة الشعر شعرًا، الأمر الذي دعاني إلى محاولة النظم قدر المستطاع، ومراجعة صياغة بعض التعابير، أو ما سها عنه المترجم، والكمال لله وحده.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

٣٠ من صفر ١٤٣٥ هـ= الأول من يناير ٢٠١٤ — د. توفيق علي منصور

الحياة الاجتماعية في مصر

الفصل الأول

أهل المدينة



على كل من يرغب في التعرف عن قرب على حقيقة أهل المدن في مصر، أن يتعرف على أصحاب الدكاكين في القاهرة؛ فالتجار في الواقع يمثلون العنصر المحافظ في مصر؛ فهم من يحافظون على التقاليد القديمة، ويسيرون على نهجها بقدر محافظة المجتمع عليها. أما الطبقات العليا فإنها تتحرر شيئًا فشيئًا من التقاليد الشرقية في مظاهرها وعاداتها، إلا أن تحولها التام إلى النمط الأوروبي سيستغرق بعض الوقت. فهم يرقصون – ويا لهُ من عار – مع السيدات الإفرنجيات! ويرتدون الملابس الإفرنجية، ويدخنون السجائر الأوروبية، ويشاهدون مسرحيات «مسيو لوكوك» الفرنسية القذرة في مسرح «الأوبرا الخديوية». وباستثناء عاداتهم الشرقية من الظلم والاختلاس والنفاق والفساد[1]، فقد يبدون أوروبيين في نظر الناس. وهم، في واقع الأمر، قد احتفظوا بخصيصة وطنية واحدة، وهي الطربوش الأحمر؛ فذلك الجمع الغفير من الطرابيش في مقاعد الأوبرا (حيث أن المحمَّديّ لا يخلع غطاء رأسه أبدًا)، وتلك الأحجبة القماشية والحريرية المشدودة أمام المقصورات على جوانب القاعة الكبرى للمسرح لكي تخفي وراءها جمال الحريم، هي المظاهر الوحيدة في الأوبرا القاهرية التي تذكّرنا أننا لسنا في باريس؛ فحتى فناجين القهوة المحلية تصنع في أوروبا!

(١) كثيرًا ما سيهاجم المؤلف المصريين والمحمديين (أي المسلمين) في سياق وصفه لحياتهم الاجتماعية؛ وقد يكون محقًّا أحيانًا، لكنه كثيرًا ما يكون مخطئًا أو متجنيًا مُغرضًا. والواقع أن مصر والعالم الإسلامي وشعوبهما كانا في مرحلة متدنية من تاريخهما خلال تلك الفترة، عقب عقود وقرون من سوء الإدارة والقهر والاستغلال الغربي لضعف الدولة العثمانية وتدني الأوضاع في ولاياتها (المترجم والمراجع).

لكنَّ الطبقة العاملة لا تزال إلىٰ حد كبير علىٰ أحوالها وتقاليدها التي لم تتغير منذ قرون خلت.. فأفرادها يقدِّرون تمامًا فوائد التعامل مع الإفرنجيين؛ إذ عادةً ما يخالطونهم ويغشونهم، ولكن ليس لدىٰ تلك الطبقة رغبةٌ في أن يقلِّدوا عادات أو ملابس هؤلاء «الكلاب الكفار».

تشبه القاهرة بأسواقها وبازاراتها، إلىٰ حد كبير، تلك القاهرة التي وصفها «إدوارد وليام لين» في كتابه «**المصريون المحدثون؛ شمائلهم وعاداتهم**»[1]، ذلك الكتاب الذي يعتبر المرجع الأساسي لمعظم كتابات وصف القاهرة التي صدرت بعده. كانت قاهرة لين بكل مظاهرها مدينة صلاح الدين والمماليك؛ المدينة التي تم تصويرها بكل معاني الرومانسية المذكورة في «ألف ليلة وليلة».

يسير نمط الحياة ببطء في الشرق. وإذا استخدمنا عبارات متناقضة في ظاهرها وصادقة في معناها، فإننا نقول إن أولئك الذين قرءوا كتاب لين؛ «المصريون المحدثون»، قد يفاجئون عند زيارتهم للقاهرة أنْ ليس بها ما يذهلهم؛ إذ أنَّ كل شيء في الأحياء الشعبية لا يزال كما كان عليه منذ خمسين عامًا، وأن أهل القاهرة ظلت أحوالهم وسلوكياتهم علىٰ حالها؛ في حين أن باقي العالم قد لاحقَ «حركة التطور المستمرة» للحضارة الحديثة.

سوف نجد مظاهر هذه الحياة البشرية الجامدة في أحد شوارع القاهرة الرئيسية، عندما نترك الحي الأوروبي خلفنا، ونسجل القليل من الملاحظات عن المحلات الإيطالية واليونانية في حي الموسكي شبه المتحضر؛ ثم ننعطف إلىٰ اليمين داخل شارع الغورية - أحد تلك الشوارع الكبرىٰ- ولو أنه من الأزقة التي يُطلَق عليها شارع أو طريق عبور.

تصطف علىٰ جانبَيْ هذا الشارع محلات صغيرة أشبه ما تكون بالصناديق، وهي تشكِّل في الوقت نفسه حدود الشارع المستمرة علىٰ كلا الجانبين، إلا إذا اعترضها مدخل مسجد، أو سبيلٌ عام، أو مدخلٌ لشارع آخر يعترض صف المحلات لمسافة قصيرة، لا يقطع أيٌّ من الأبواب أو النوافذ التي اعتدنا عليها في أوروبا صفَّ المحلات؛ فذلك من شأنه أن يشدَّ فيفسد منظر الدكاكين المصطفَّة. وسوف تجد كل التجار الذين يُتْجِرون بسلعة معينة مصطفّين لمسافة طويلة؛ فهذه مجموعة للسكر النبات، وتلك للنعال «الشباشب»...

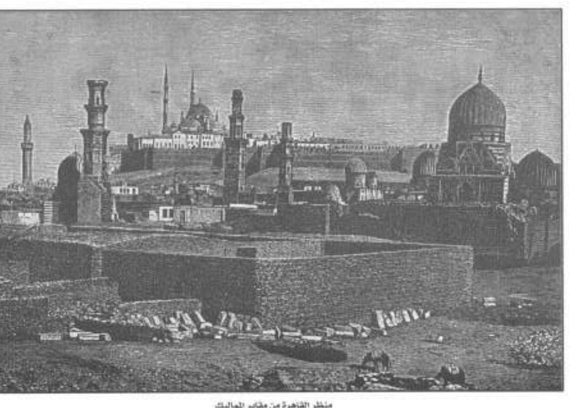
ولا شك في أن لهذا النظام مزاياه؛ فإن كان أحد التجار يبيع بأسعار مرتفعة، فقد تجد جاره يبيع بسعر أرخص منه. ثم إن التنافس المستمر بين التجار المتجاورين من شأنه أن يؤدي إلىٰ خفض كبير في الأسعار.

---

[1] صدر ذلك الكتاب بلندن عام ١٨٣٦ عن جمعية نشر الثقافة المفيدة Society for the Diffusion Of Useful Knowledge وترجمه عدلي طاهر نور بالقاهرة عام ١٩٥٠، وأعادت طبعه الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠١٣. (المترجم).



مشهد من شارع



منظر القاهرة من مقابر المماليك

ومن ناحية أخرى، يجب أن تعترف بأنه ليس هناك ما هو أشق عليك من أن تشتري رداءك من ستة محلات في أماكن مختلفة.. فتشتري القماش من مكان، والأزرار من مكان آخر، وشريط الزينة من مكان ثالث، والبطانة من مكان رابع، والخيط من مكان خامس، ثم تضطر إلىٰ السير نحو مكان سادس مختلف تمامًا لكي تحصل علىٰ حائك يفصّل لك القماش ويصنع الرداء المطلوب. وحيث إنّ علىٰ كل زبون أن يساوم البائع – تلك المساومة التي قد تطول إلىٰ حد التدخين، أو حتىٰ شُرب القهوة – فإنك تستطيع أن تَعُدّ نفسك في عداد الفاتحين إذا استطعت الحصول علىٰ ردائك في يوم واحد!



شارع جانبي



في أحد هذه الدواليب الصغيرة التي تقوم مقام المحالّ، قد تجد ذلك التاجر بالذات الذي تبحث عنه أو لا تجده؛ فقد يتصادف أنه ذهب ليصلي، أو ليزور صديقًا له، أو ربما شعر بعدم الرغبة في ممارسة نشاطه التجاري في ذلك اليوم. وفي هذه الحالة ستجد مصراعيْ باب دكانه مغلقيْن، ونظرًا لأنه لا يقيم بالقرب من دكانه – وحتىٰ لو كان كذلك، فليس هناك جرس أو باب خاص أو مساعد يمكن أن يدلنا عليه – فقد ننتظر هناك للأبد طالما أنه مشغول، حيث نسأل وما من مجيب عن تساؤلاتنا!

مع ذلك، فقد يخبرنا جاره التاجر بلطف أن الرجل الطيب الذي تبحث عنه قد ذهب إلىٰ المسجد، فبالتالي تطلب منه ما قد جئنا لنطلبه من جاره.

يجلس صاحبنا الجديد هذا في فجوة تقدَّر مساحتها بنحو خمسة أقدام مربعة، وقد يتجاوز ارتفاعها ست أقدام بقليل، والمكان كله يرتفع عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين. ومن الغريب أن صاحبنا قد استطاع في هذا الحيِّز الضيق أن يضع كل السلع التي يعتقد أنه يستطيع بيعها، كما استطاع أن يحتفظ لنفسه ولزبائنه بحَيِّز يجلسون فيه ويدخنون السجائر أثناء المساومة علىٰ الأسعار معهم.

وبالطبع، فإن بضائعه ستكون بكمية محدودة جدًا، غير أن زملاءه التجار على استعداد لأن يقدموا إليه يد المساعدة على الدوام. وعندما لا يمكنك أن تجد ما تحتاج إليه في نطاق جدران دكانه الأربعة، فسوف يتركك مع قدح من القهوة، أو ربما من الشاي العجمي؛ على حين يذهب هو ليأتي إليك بطلبك من أحد زملائه التجار المجاورين.

وفي غضون ذلك، ستشرب قهوتك، التي رغم سخونتها الشديدة تكون لذيذة بشكل لا يقارن، وستشاهد الجموع المحتشدة من المارة التي تمر أمام الدكان: الجمال المحمَّلة بالدريس أو التبن



الأزبكية في الأيام الخوالي

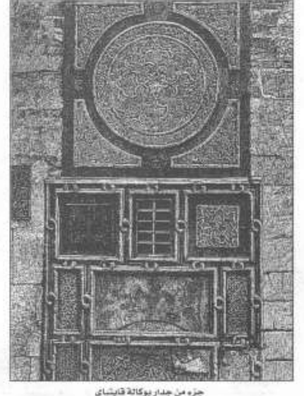
أو البرسيم الأخضر، وهي تسير بخطوات سريعة متأرجحة، حتى ليخيَّل إليك أنها ستطيح بكل شيء وكل شخص على جانبي الشارع. وتجد سكان المدينة المحترمين يمتطون ظهور الحمير الرَّمادية أو البُنية التي تسير على مهل، إلا أنَّ الصبية سائقي الحمير - الذين لا ترى مظهرًا للشفقة في سلوكهم وهم يجرون وراءها باضطراب - يحملون هذه الحيوانات على أن تَغُذَّ السير يمينًا أو يسارًا، فتتمايل بأجسادها في غير هوادة كما لو كانت ظُهُورُها مفصَّلة كمفصَّلات الأبواب.

أما علية القوم، فيركبون عربات يجرُّها جوادان، وأمامها عدّاءون تكاد أنفاسهم تنقطع من فرط التعب وهم يفسحون لسادتهم الطريق بأصواتهم المرتفعة قائلين: «شمالك يا ولد»، «يمينك يا ست»، «افتح عينك يا عم»... وما إلىٰ ذلك. وترىٰ النساء وقد حملن فوق رءوسهن الصواني وعليها أصناف الطعام، والسَّقَّاء وقد حمل تحت ذراعيه الماء في قربة مصنوعة من جلد الماعز. كما تشاهد جمهورًا آخر محتشدًا من الرجال والنساء يرتدون جميعًا ملابس زرقاء اللون، جاءوا لقضاء بعض الحاجات، يتجولون من أجلها علىٰ طول الشارع، ولكنهم يقضونها في تأنٍّ وعلىٰ مهل. وعلىٰ الرغم من أن الجمهور قد يبدو محتشدًا متدفقًا، إلا أنه في الحقيقة يتحرك في بطء، شأنه في ذلك شأن كل شيء في الشرق.



مسجد في شارع جانبي

وها هو صاحبنا التاجر يعود حاملًا السلعة المطلوبة التي ذهب للبحث عنها، فتقبلناها تدريجيًّا، وبقليل من الحذر، ثم سألناه السؤال المعهود: «كم ثمنها؟»، وعادةً ما يكون الجواب ضِعفَ الثمن المناسب علىٰ الأقل، ثم نردّ علىٰ ذلك الثمن الباهظ بقولنا: «العوذ بالله من هذا الثمن الباهظ»، ونقترح شراءها بنصف الثمن المناسب. غير أن صاحبنا يهز رأسه ويبدو عليه القنوط وعدم الرضا، ويقول لنا إنه لم يكن ينتظر مثل هذا القول من أناس مثلنا، ثم يضع سلعته جانبًا ويجلس ليدخن سيجارة جديدة. وبعد مساومة أخرىٰ غير مجدية، ننادي صاحب الحمير ونستعد لامتطاء الحمير والرحيل، حينئذ يلين التاجر ويخفض الثمن، ولكننا مع ذلك نُصِرُّ علىٰ الرحيل ونأخذ في الابتعاد بالحمير رُوَيْدًا، فيتبعنا، ويوافق تقريبًا علىٰ شروطنا، فنرجع إلىٰ الدكان وندفع الثمن ونتسلم مشترياتنا، ثم ننصرف في طريقنا بعد أن ندعو الله أن يحفظه!



جزء من جدار بوكالة قايتباي

أما إذا لم يصل بنا الاتفاق إلى ما سَبَقَ ذكرُه، فإن المساومة قد تستمر حتى نصل إلى منزل صاحبنا التاجر، حيث نرى مثالاً لمنازل الطبقة الوسطى في القاهرة.

وفي الواقع، قد يتصادف – أحيانًا – أن يكون مسكن فرد من الطبقة الوسطى في القاهرة بمثابة قصر من القصور، وقد نجد أحد الباشوات – في العصر الحاضر – يحتقر قصور النبلاء التي كانت في زمن المماليك موضع الفخر والإعجاب لدى كثير ممن هم أعلى منه مقامًا، ونراه يفضل الإقامة في «شارع ٢٩» – ذلك الطريق الذي لا ظلال فيه – أو حيث تقع المنازل الحديثة التي تشبه الجنان، والمشيَّدة بقوالب القرميد، في الحي المعروف «بحي الإسماعيلية». وهكذا قد نجد صاحبنا التاجر هذا يشغل منزلاً من المنازل التي كان يسكنها أحد بكوات المماليك الكبار في وقت ما.. أولئك

البكوات الذين كانوا يأمرون أتباعهم وجنودهم بالاحتشاد حينما يقتضي الأمر توجيه ضربة قاضية للجلوس على عرش مصر المتداعي، والذي كان دائمًا ما يقع في أيدي قادة أقوى الكتائب المملوكية.

تكاد جميع منازل القاهرة تتماثل، ولكنها تختلف فقط من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتها. وإذا كان منزل صاحبنا التاجر أفضل من معظم المنازل المجاورة له، فليس علينا إلا أن نختار غرفة أو غرفتين من غُرَفه الفاخرة، ونقارن بينها وبين غرف المنازل الأخرى، لنحصل على فكرة واضحة عن هذا المنزل والمنازل المحيطة به.

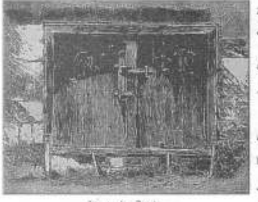
والشارع الذي ندخله الآن يختلف تمامًا عن ذلك الشارع الذي غادرناه في الغورية؛ وفيه نرى جزءًا من ذلك الشارع السالف ذكره في لوحة مستر «روبرتس»، الموجودة في الصفحات الأولى لهذا الكتاب. على يسار الصورة، نشاهد الواجهة الضخمة لجامع السلطان المؤيَّد المملوكي، الذي أخضع مؤخرًا لعملية ترميم قاصرة وخالية من الذوق. تقوم مئذنتا الجامع على بوابة قديمة وبديعة تسمى باب زويلة، هي التي نراها في منتصف الصورة. ويطلق الناس على هذه البوابة في الوقت الحاضر اسم «باب المتولِّي»، حيث يعتقدون أنها كانت فيما مضى المقرَّ المفضل للقطب «المتولي»؛ كبير الأولياء في ذلك الوقت. وُهب هذا الوليّ المبارك كرامة التخفي والانتقال من مكان إلى آخر؛ فهو يطير - دون أن يراه أحد - من سطح الكعبة في مكة إلى باب زويلة، وهناك يستقر في مَرقَدٍ خلف الباب الخشبي. والمؤمنون به يُسَبحون بمسابحهم وهم يمرون بجانب هذا المَرقد، في حين يدفع الفضول غيرهم لأن يختلسوا النظر ليتحققوا مما إذا كان الولي هناك حقًّا! وإن أصابك صداع، فليس هناك علاج فعّال إلا أن تدق مسمارًا في الباب؛ أما العلاج الأكيد لوجع الأسنان فهو أن تنزع السن أو الضرس وتضعه في نفس هذا المكان المقدس.


صاحب الدكان

قد يكون نزع الضرس في حد ذاته علاجًا للألم، إلا أن هذا الإيحاء بقدرات المتولي تنبعث منه روائح الكفر والشرك. وعلى أية حال، فمن الأفضل لديهم أن يُنتزع الضرس ويُثبت في الباب!

هذا الباب يحفل بالكثير من النذور الكريهة من أمثال هذه النوعية الغريبة، ولو كُتب لهذه النذور جميعها النجاح، فلابد أن هذا القطب كان طبيبًا بارعًا.

يُعدّ الشارع - الذي يعترضه باب زويلة - واسعًا إذا ما قورن بشوارع مدينة القاهرة، وتحدّه الدكاكين والجوامع والوكالات والأسبلة. والشارع الذي تدلف إليه الآن، حين نعطف إلى زقاق ضيق ثم ننحرف فجأة إلى اليسار، شارعٌ خالٍ من الدكاكين، إلا أن به مسجدًا صغيرًا - يحوي ضريح أحد الأولياء الموقرين - يقع في أحد أركانه. طُليت شُرُط الزخرفة الخارجية لهذا الضريح باللونين الأبيض والأحمر، وهو ما خفف من كثافة الظلال المنعكسة على الزقاق الذي تصطفّ على جانبيه واجهات المنازل العالية بيضاء اللون، التي لا يغير من لونها إلا النوافذ المؤلّفة من شبكة متقاربة من القضبان المتراصّ بعضها بجوار البعض.



واجهة محل موصدة

وعلى جانبيّ الطريق الضيق، تتفرع أزقة أخرى أضيق منه، أحيانًا ما تكون مسدودة، ولكنها كثيرًا ما تمتد إلى مسافات بعيدة في قلب مدينة القاهرة. وفي أفنية هذه المنازل نرى الكثير من المَشربيات، غير أننا لا نصادف كثيرًا منها في الطرق الواسعة الأكثر ازدحامًا بالناس.

والمشربية نافذة بارزة، تتكون - باستثناء سقفها وقاعدتها - من ألواح وقضبان خشبية متشابكة مصنوعة ببراعة. وتوجد في منازل الطبقة العليا، ولكنها في منازل الفقراء تُصنع من ألواح خشبية خشنة. يحتفظ الناس بالمشربيات الجميلة لوضعها في نوافذ المنزل الداخلية التي تطل على الفناء أو الحديقة، ومع هذا فإننا نرى المارة في كثير من شوارع القاهرة وقد وقفوا يتأملون صفوف المشربيات البديعة التي تضفي على المنازل مظهرًا مبهجًا وفريدًا.

واسم المشربية مشتق من أصل لغوي عربي هو الفعل «يشرب» الذي يظهر في كلمة «شربات»، وقد استُخدم هذا الاسم للدلالة على هذه النوافذ الخشبية المتشابكة؛ لأنه كثيرا ما توضع عليها قُلَلُ الماء الفخارية ذات المسام حتى تبرد بفعل الهواء. وعادةً ما تجد نتوءًا صغيرًا نصف دائري يبرز من وسط المشربية لتوضع فيه القُلّة أو الإبريق. أما القطع الصغيرة، والكرات الدقيقة التي تتكون منها شبكة المشربية، فتتداخلُ بعضها في بعض بحيث لا يستطيع الجيران أن يروا من خلالها أي شيء داخل المنزل، ومع ذلك فهناك فراغات كافية تسمح بتخلل الهواء إلى جوف المنزل عبر المشربية.



واجهة محل مفتوحة

وفي الواقع، تعتبر المشربية موضع ابتراد للإنسان كما هي بالنسبة لقلل الماء، كما تُعتبر في الوقت نفسه مكانًا لتجمع نساء «الحريم» يستطعن من خلاله اختلاس النظر إلى الجنس الآخر عبر شبكات النوافذ دون أن يتمكن هؤلاء الرجال من رؤيتهن. ومع ذلك، فهناك نوافذ صغيرة مناسبة في المشربية يمكن فتحها إذا رغبت صواحبُها في رؤيتهن على ما هُنَّ عليه.

ويجب أن ننوِّه إلى أن نساء القاهرة الجميلات لَسْنَ كُلُّهن ممن يدعْن المارة يسيرون في الطريق دون أن يأخذهن الزهو بأنفسهن، فيفتحن النوافذ ليرى هؤلاء المارة أنهن جميلات. فعندما تتقابل المشربيات عبر الشارع - كما يحدث مرارًا في الطرقات الهادئة - قد تتساءل عما إذا كان الإخفاء مُحكمًا وفقًا للغرض من إنشاء تلك المشربيات!.. فالمرء منا يستطيع أن يتصور المغازلات السهلة التي قد تُجرى بين المشربيتين المتقاربتين، خاصةً مع وجود النوافذ والأبواب الموازية. ومع ذلك فهذا ليس السبب في اختفائها السريع من الشوارع والبيوت؛ بل السبب الرئيسي هو أنها قد أصبحت تشكل عاملًا مدمرًا، حيث تعمل على انتشار الحرائق التي تتطاول ألسنتها من نافذة إلى أخرى بسرعة هائلة، هذا إضافةً إلى التكلفة الباهظة للمشربيات الفاخرة التي ارتفعت عندما دخل الإفرنكيون سوق الطلب عليها، وهو ما جعل أصحاب المنازل يميلون إلى التخلص من تكلفة تركيبها. ويضاف إلى ما سبق، أن مناخ القاهرة في الشتاء أصبح لا يميل إلى الدفء كما كان معتادًا من قبل، فأصبحت المشربيات تشكل وسيلة مقاومة قاصرة ضد تيارات الهواء الباردة.



النحاس.. صانع الأواني النحاسية

وفي إحدى تلك الحارات الضيقة، نقف أمام مدخل دار مقوّس، فننزل من على الحمار ونربطه في حلقة قريبة. والباب نفسه جدير بالدراسة؛ فالجزء العلوي منه تحيطه النقوش العربية (الأرابيسك) التي تشكل مربعًا مزركشًا في أعلاه.. وهي نقوش عادةً ما تضيف للأبواب القديمة مظهرًا بديعًا محبَّبًا للنفس، ولا تُعَدُّ قبيحة في البنايات الحديثة. وكثيرًا ما نجد على الباب الخشبي بعض نقوش الأرابيسك، وهي نقوش خطية تشكّل عبارة: «هو الخلّاق الباقي» التي يُعتقد أنها رُقية تُبعد المرض والشياطين و«عيون الحسّاد»، وكذلك لتذكّر صاحب المنزل بالموت كلما عاد إلى بيته. وكقاعدة، يكون الباب مسطّحًا بلا نقوش. ولا يوجد ثمة جرس، إذ قال النبي ما معناه أن الجرس «الناقوس» آلة الشيطان الموسيقية، ولا تدخل الملائكة بيتًا به ناقوس[1]. وفي بعض الأحيان، يكون الباب بلا حلقات للطَّرْق، فيكون من الأفضل أن نقرعه بعصانا أو بأيدينا. وغالبًا ما يستمر القرع بعض الوقت حتى يسمع سكان المنزل، فهذا بلد لا يعرف أهله معنًى للعجلة!.. ألم يقل سيدنا محمد [ﷺ] «العَجلة من الشيطان»؟! لهذا فنحن نسير على نهج الأمور في هذه البلاد، ونواسي أنفسنا بتلك الآية القرآنية التي تناقض طبيعتنا، والتي تقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]. وفي نهاية الأمر، نسمع صوتًا غريبًا آتيًا من الناحية الأخرى، حيث يحاول بواب المنزل معالجة فتح الباب، فهو يحمل قضيبًا صغيرًا به أسنان سلكية صغيرة مرتبة ترتيبًا معيّنًا، ويحاول أن يدخله في ثقوب ملائمة تقع في نهاية نقرة عميقة (تجويف) مركّبة في لسان القفل المنزلق. وهذا هو المغلاق في أبواب منازل القاهرة. يمر هذا اللسان المنزلق خلال «رُزّة» خشبية على الباب داخل تجويف ضيق في عُضّادته. وعندما يكون أهل المنزل بالداخل، تسقط أسنان متحركة معينة من رزة الباب إلى داخل الفتحات في اللسان



السيوفي.. صانع الأسلحة

---

(1) S.Lane-Poole :" *The Speeches and Table-talk of the Prophet Mohammad* ," Golden treasury Series , 1882, page 168. [ستانلي لين بول: «خطب وأحاديث الرسول محمد»، سلسلة الخزائن الذهبية، ١٨٨٢، ص ١٦٨].

(2) سورة البقرة: من الآية ١٥٣. (المترجم).

المنزلق، فتَحُول دون سحب اللسان للخلف. وبإيلاج المفتاح - أو القضيب ذي الأسنان - إلىٰ فتحات اللسان، يرفع الأسنانَ المتحركة ويسمح للسان القفل بالانزلاق للخلف. ولا شيء أكثر رداءة



ارمني بربري شحاذ أعمى

في تركيبه - أو أكثر سهولة في كسره وسرقته - من ذلك؛ فقطعة من الشمع في نهاية عصا أو قضيب كفيلة بكشف وضع أسنان القفل.. والباقي سهل!

وفي داخل الدار، ثمة ممر ينعطف فجأة بعد الخطوة الأولىٰ أو الثانية، وبالتالي يَحُول دون مشاهدة أي شيء في الداخل وأنت واقف بالباب الخارجي. ولابد من أن نجد البواب في هذا الممر، وهو عادةً ما يكون خادمًا كبير السن، ولكنه لا يكون دائمًا في مرمىٰ السمع، أو قد يتصادف أن يكون نائمًا . وفي نهاية هذا الممر، تدلف إلىٰ فناء متسع به بئر للمياه الجوفية في أحد الأركان الظليلة، وربما نجد شجرة جميز عتيقة. وفي كل الجوانب تطل غرف المنزل علىٰ فنائه، وأفضل نوافذها محتجبة بأجمل المشربيات الخشبية المتشابكة، التي تشرف علىٰ الفناء.

والحجرات السفلىٰ التي تطل علىٰ الفناء مباشرة هي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يمشي فيها آمنًا من دون أن يخشىٰ أن يرىٰ وجه أي امرأة في البيت.

ويقودنا مضيفنا إلىٰ إحدىٰ تلك الحجرات السفلىٰ، طالبًا منا في أدب جم أن نوليه شرف اعتبار أنفسنا في بيتنا. وهذه هي حجرة الاستقبال، أو المنظرة، التي تُعَد أفضل نموذج للغرفة العادية. والجزء الذي تدلف منه إلىٰ الغرفة منخفض عن بقية الأجزاء. وإذا كان المنزل الذي ستدخله فخمًا بالفعل، فستجد هذا الجزء المنخفض مغطًىٰ بالموزاييك الرخامي (الفسيفساء)، وفي وسطه نافورة تعمل علىٰ تبريد الهواء؛ في حين ترىٰ مقابل الباب قطعة مسطحة من الرخام محمّلة علىٰ أقواس، حيث توضع عليها قلل الماء وأقداح القهوة وأدوات غسل الأيدي. ويتوجب علينا أن نخلع أحذيتنا ونتركها علىٰ الرخام قبل أن نطأ ذلك الجزء من الحجرة المغطىٰ بالسجاد. وغالبًا ما يكون هناك جزء بارز مفروش بالسجاد علىٰ جانبَيْ الجزء المنخفض من الحجرة.. ولكن في هذه الحجرة التي نحن فيها الآن، هناك جانب واحد مغطىٰ فقط؛ إذ يكون مُوَازَىٰ بِبُسُط من الصوف الخشن، وفيه

ديوان (أريكة) منخفض بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة. وفي الحائط الخلفي مشربية مؤثثة بوسائد مريحة، وبأعلاها نحو ست نوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون، ومن حولها إطار من الجص... وباجتماعها كلها يتألف شكل زهرة.. وهذه النوافذ تسمح لنصف كمية الضوء فقط أن تمر من خلالها. أما الجانبان الآخران فمطليّان بالجير، وليس بهما خشب ولا قرميد، بل بهما بضع خزائن خشبية منخفضة ذات أبواب صغيرة تُفتح بطريقة هندسية معقدة، وهي مثال جيد على أن الحاجة أمّ الاختراع؛ إذ إن الغرض من تلك الأبواب الصغيرة هو تجنب تلف الخزائن بفعل حرارة الجو في مصر، تلك الحرارة التي أدت إلى إتقان صنع هذه النماذج المعقدة، التي تعد بمثابة صفة مميزة للصناعات الخشبية العربية.



منازل خاصة

وعلى جانبي كل خزانة من هذه الخزائن، ثمة كُوّة صغيرة مقوّسة، وفي أعلاها رفٌّ وُضعت عليه الأطباق والأواني المزخرفة وغيرها. أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في دعامات أفقية ضخمة، عادةً ما تُدهن باللون الأحمر الداكن، أما في البيوت القديمة، فغالبًا ما تُنقش عليها زخارف رائعة.

ولا يوجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مناقد، أو أيٌّ من الأثاث الذي يعرفه الأوربيون. وحينما يحين وقت الطعام، توضع منضدة صغيرة (طبلية). وإذا كان الجو باردًا، يتم إحضار موقد نحاسي (مَنْقد) فيه فحم من الخشب الأحمر المشتعل. وبدلًا من الكراسي، يثني القاهري رجليه تحته على الديوان. ومع ذلك، فإن الكراسي في طريقها للانتشار في مجتمع القاهرة، وربما يجيء الوقت الذي سوف نجد فيه مضيفنا «المحمّدي»[1] يسألنا أن نضع أرجلنا تحت كرسيه «الماهوجني»، مثل أي مُضارب. إنجليزي في البورصة، لكن في الوقت الحاضر، قد نشعر بالسعادة لأن هذه الأشياء لم تظهر هنا بعد.

(١) يطلق الأوربيون على المسلمين لفظ "Mohammadan"، أي محمديون، نسبة إلى النبي محمد ﷺ، وهو لفظ مُخالف مغاير لما يطلقه أتباع الإسلام على أنفسهم من تسمية "مسلمين" المشتقة من إسلام الوجه لله. (المترجم)

وفي أغلب الأحيان، هناك غرفة استقبال أخرى مرتفعة عن مستوى الأرض، ولكي تصل إليها لابد أن تصعد بضع درجات من الفناء الذي تطل عليه الغرفة من خلال واجهة مفتوحة ومقوّسة من أعلاها، وعادةً ما تكون فجوة منخفضة عن مستوى أرضية الفناء، تحت إحدى الحجرات العليا، وتفرش بديوان(1) يمكن الجلوس عليه في الأجواء الحارة.

وهناك باب في الفناء يطل على الدرجات التي تؤدي إلى غرف الحريم، لكن لا يجرؤ أي رجل غير رب البيت على أن يدخله. وكلمة «حريم» معناها: ما هو محرّم على الرجال الآخرين ومخصّص للسيد نفسه. وغرف الحريم هي الجزء المخصص للعائلة من الدار، حيث يستريح الرجل وسط عائلته حينما يعود إلى منزله طلبًا للراحة من عناء عمله. وإنه لمن العسير عليك حقًا أن تحاول إقناع البواب أن يستدعي سيده في تلك الفترة، مهما كان الأمر الذي جئتَ من أجله إلى هناك.

وغالبًا ما تجد في جناح الحريم حجرة كبيرة مخصصة للجلوس تُشبه «المنظرة» تسمى «القاعة»، وكثيرا ما تكون ذات قبة في أعلاها. وأمام القاعة «مَلقف» يستخدم للتهوية والتبريد، حيث إن الستارة التي تتدلى من مكان مفتوح في سقف هذه الحجرة تثنى حتى تقود النسمات الشمالية الباردة، ثم تدفعها إلى داخل المنزل في الجو الحار، ولذلك فكثيرًا ما ينام أفراد الأسرة هنا خلال الصيف.

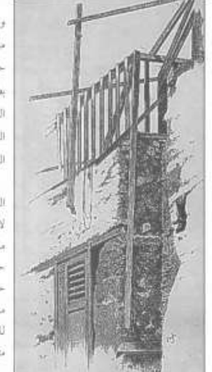


فناء منزل

ولا توجد حجرات خاصة للنوم في المنزل «المحمّدي»، أو بالأحرى لا حجرات بها أثاث للنوم؛ ذلك أن هناك العديد من الحجرات المنفصلة ينام فيها أهل البيت، ولكن لا تحتوي أي منها على أثاث خاص بالنوم كما قد تتخيل. فكل ما يلزم القاهري للنوم بالليل هو حَشِيَّةٌ ووسادة، وربما احتاج الأمر إلى دِثار في الشتاء وناموسية في الصيف، ثم تُطوى كل هذه الأشياء في الصباح وتوضع في خزانة خاصة أو حجرة جانبية، وحينئذ تتحول حجرة النوم إلى غرفة جلوس. كذلك لا تتكدس غرفة الجلوس بالأثاث،

(1) الديوان: متكأ يُجلس عليه، شبيه بالكنبة الحديثة في البيوت المصرية. (المترجم)

فالعادة هنا لا تتطلب إلا ديوانًا «أريكة» وسجادة أو سجادتين، وفي وقت تناول الطعام، تُحضر منضدة صغيرة (طبلية) توضع عليها صينية كبيرة من النحاس أو الصاج، حيث تجلس الأسرة القرفصاء حولها على الأرض. ومع ذلك، يجب التدرب على هذه العادة، كما يجب عليّ أن أحذر الأوروبيين من أن تلك الجلسة هي أسهل الطرق للإصابة بتصلب العضلات.



طابق علوي من منزل

وهناك قسم آخر مهم في جناح الحريم، ألا وهو الحَمّام، الذي لا يُعد مجرد حجرة خاصة بها مغطس للاستحمام، وإنما يتكون من جناح به حجرات عدة مصنوعة من الحَجَر الذي يُسخن بطريقة معقدة، وهو شبيه بالضبط بالحمامات التركية العامة. والبيوت الكبيرة فقط هي التي تتمتع بهذا الشرف، أما معظم الناس فيتوجهون إلى الحمام العام، هذا إذا كانوا يهتمون بالاستحمام أصلاً[1].



سَقاطة لدق الباب

وقليل من بيوت القاهرة يصل ارتفاعه لأعلى من دورين. وكثيرًا ما تكون الأدوار العليا في حالة متهدمة وخربة، حيث يكون السقف منهارًا، والحوائط بارزة للخارج، والمشربيات متساقطة ومتهالكة.

وفي الحقيقة، يشتهر معمار المنازل في القاهرة بعدم الثبات على أية حال؛ فالمنازل تنهار في جميع أحياء القاهرة، وتُظهر الحوائط المتعجة والزوايا المشروخة أن المزيد من تلك المنازل تسير على نهج سابقاتها المنهارة. وإنه لأمر مزعج أن تتصور كم هو قليل ما سيصمد من معالم القاهرة وبيوتها بعد خمسين عامًا. فلم تشيَّد هذه المنازل لتبقى؛ ولابد حتمًا من أن تخضع لعامل الزمن ولهشاشتها المتأصلة فيها.

---

(١) تحتم الشريعة الإسلامية التزام النظافة بالغسل والتطهر من الجنابة عند كل صلاة. (المراجع)

يعيش سكان ذلك البيت الذي وصفناه، وكذلك البيوت التي على شاكلته، على وتيرة واحدة تثير الكآبة والملل، غير أنهم لحسن الحظ قلّما يشعرون بوحشة وفراغ حياتهم. فرب البيت يستيقظ مبكرًا جدًّا، حيث يجب على المسلم أن يصلي صلاة الفجر في وقتها. وكل ما يطلبه قبل تناول غدائه الخفيف هو شيشة وقدح من القهوة. وبصفة عامة، يدخر شهيته للطعام إلى الوجبة الأساسية اليومية، وهي وجبة العشاء التي يتناولها عادةً بعد غروب الشمس مباشرةً. أما إذا كان في عمله، فإنه يقضي معظم يومه في دكانه، ويدخن بلا انقطاع تقريبا، إما السجائر التركية التي انتشرت حديثًا، أو «الشُّبُك» التقليدي الطويل ذا الفم البديع المصنوع من العنبر، والعنق الطويل المصنوع من خشب شجر الكرز، والسلطانية المصنوعة من الفخار الأحمر، والتي تُملأ بالتبغ الجبلي المخفَّف أو تبغ اللاذقية الشامي.

باب في حي الأقباط

وإذا لم يكن لديه عمل معين يشغله، فإنه يروّح عن نفسه باستدعاء أصدقائه، أو بالجلوس لساعات طويلة حالمة في الجو الدافئ للحمام العام، حيث البخار المتصاعد من الأحواض التي يغلي فيها الماء، وارتخاء المفاصل عند تدليكها، وما يعقب ذلك من استراحة للترطيب والتدخين واحتساء القهوة. كل هذا له لذته الفائقة في الجو الحار.

وإذا كان الرجل ثريًّا أو ذا مركز، فلا يمكن أن يتواضع بالسير على قدميه على الإطلاق، بل يركب حمارًا في العادة، وأحيانا حصانا، غير أن الحمار أكثر ملاءمةً للشوارع المزدحمة. وفي الواقع، نرى أن الحمار المصري الأصيل حيوانٌ ملائم، وقد يصل ثمنه في بعض الأحيان إلى مائة جنيه، فخطواته سريعة، وركوبه مريح في الوقت نفسه، وليس من الصعب أن نكتب خطابا على قَرَبوس سرج إحدى هذه الركائب ذات السَّير الحسن. والقربوس هو أكثر الأجزاء إثارة للفضول في السرج، فأحيانًا يرتفع بمقدار تسع بوصات أو أكثر على المقعد، ويغطَّى بالجلد، على حين يغطَّى باقي السرج بالأقمشة الصوفية الناعمة. وتعتبر تلك الدواب شديدة الثبات في سيرها، ولكنها إذا

سارت على الوحل الزَّلِق، الذي كثيرا ما يغطي الشوارع الرئيسية، فإن من الحكمة أن يسحب الراكب رجليه بمهارة من الرِّكاب ويمشي على قدميه ببساطة أمام الحمار.



مدخل مسجد

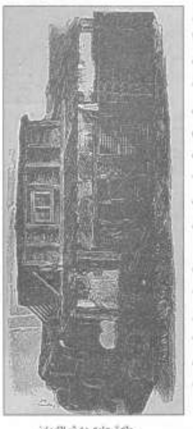
والطريقة المعتادة لحث الحيوان على الهرولة، هي الطرق على جانبيه بالكعبين، وعادةً ما يُقاد بلكزةٍ على جانب رقبته أو رأسه بالعصا التي يحملها الراكب، بدلًا من استعمال سير اللجام. ومع ذلك، يجري خادم (تابعٌ) في الخلف ليواكب سرعة الحمار. وفي الأيام السابقة، اعتاد رجلٌ عظيمُ الشأن أن يستخدم اثنين من التابعين ليجريا مع حماره وهما مسلحيْن بالنبابيت، وذلك لكي يفسحا الطريق في المقدمة. ولكن وجهاء القوم الآن يستخدمون العربات، ويعدو السُّيَّاس أمام الخيول بضعة خطوات.

وتعد كيفية تَوافُق السايس وصبي الحمَّار مع القيادة السريعة لسادتهم لغزًا من الألغاز، ويقال إنهم يقصِّرون صحتهم بهذا الجهد المفرط، ولهذا يموتون في سن صغيرة. ولا يسمح الناس ذوو الحس المرهف لهؤلاء العدَّائين أن يهرولوا قبلهم في المسافات الطويلة. وتعتبر هذه الحالة البربرية ضرورية لشعب تقدِّر المظاهر عنده بالكثير، لكن ممثلي وقناصل إنجلترا يستطيعون بالتأكيد الاستغناء عن تلك المواكب ذات الأبهة والعديمة الجدوى، والتي تتضمن معاناة حقيقية لأولئك الذين يساهمون فيها.

ولم يستطع أي إنسان كان في القاهرة عام ١٨٨٣ أن يتمالك نفسه عن الأسف على تقبُّل اللورد دوفرين [1] والسير إ. ماليت [2] تلك العادة، حتى وإن تقبَّلاها لحدٍّ أدنى؛ فإن الاتساع الحالي لشوارع القاهرة يجعل من هذه المواكب وما يرافقها عادةً غير ضرورية، لا يكسوها إلا ثوب القسوة والهمجية!

وبينما يكون رب البيت في عمله، أو يلبي إحدى الدعوات، تجد نساء بيته يعملن لتمضية الوقت بأفضل صورة ممكنة. وعلى الرغم من الأفكار الشائعة عن هذا الموضوع، فإن «المحمَّدي» قلّما يتزوج بأكثر من امرأة واحدة؛ لكن من حقه أن تكون له في بعض الأحيان علاقات أخرى مع جارية حبشية أو غيرها من الإماء. ومع ذلك تُبذل الكثير من الجهود الآن في سبيل مكافحة تجارة الرقيق. وإذا تم بالفعل القضاء على هذه التجارة، فإن القاهري سيصير أحاديّ الزوجة. وقد جعل الخديو [3] نفسه قدوة حسنة في هذه الناحية، شأنه في ذلك كشأنه في غيرها من النواحي. والواقع أن هناك الكثير من المسلمين أخلاقهم مثل المسيحيين في هذا الأمر.

وتُعتبر سهولة الطلاق مشكلة حقيقية؛ فالرجال لن يحتفظوا بالعديد من الزوجات؛ لأن هذا من شأنه أن يكلفهم الكثير من الإنفاق على منازل منفصلة، أو على منزل واحد ذي غرف متعددة. كما أن تعدد الزوجات لا يؤدي إلى الانسجام المنزلي، ولكنهم لا يترددون في تطليق الزوجات إذا تطرّق إليهم الضجر منهن، فيستبدل الرجل منهم زوجته بأخرى جديدة تحل محلها.



طابق علوي به شباك بارز

---

(١) هو السفير المفوّض البريطاني في مصر عقب الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ (المترجم).

(٢) السير إدوارد ماليت: القنصل العام والمعتمد البريطاني في مصر خلال الفترة ١٨٧٩ – ١٨٨٣، وقد تولّى المنصب من بعده اللورد كرومر. (المترجم)

(٣) هو الخديو محمد توفيق (المترجم).



ويقال إن الخليفة «عليّ» تزوّج بهذه الطريقة وطلّق مائتي امرأة في حياته[1]، بل إن صبّاغًا للملابس في بغداد قد تخطىٰ هذا الرقم المذهل إلىٰ رقم أكثر إثارة للعجب منه؛ إذ تزوج تسعمائة امرأة، وتوفي في سن الخامسة والثمانين.. ولو أنه تزوج في سن الخامسة عشرة لكان زواجه بمعدل مرة في كل شهر طوال فترة السبعين سنة التي قضاها في الزواج السعيد[2].

وقد اتبع مؤخرًا أحدُ حكام الصعيد سبيل هذا الرائد الشهواني. لكن تلك العادة أصبحت تدريجيًّا في طريقها إلىٰ الزوال؛ فإن التأثير الأوروبي، وازدياد الأسعار، قد عملا علىٰ تقليل معدل تعدد الزوجات، وكذلك الطلاق. وسوف تحوّل التشريعات الحكيمة، والنماذج الأنجلو مصرية المثالية، مُحَمَّدِيِّي مصر إلىٰ التمسك بزوجة واحدة فقط.


نافذة متداعية

وقد نلتمس للنساء العذر في تعدد الأزواج أكثر من الرجال بخصوص تعدد الزوجات، فبينما يستطيع الزوج أن يسعىٰ وراء متعته كما يشاء، فإن النساء من عائلته غالبًا ما يعشن معيشة مملة علىٰ وتيرة واحدة، وأحيانًا يجتمعن في الحمام العام وينهمكن في الضحك والمرح، وتحمل صيحاتهن التي تنبعث منهن أثناء الضحك الدليل علىٰ روح المرح والمزاح التي تتميز بها بنات مصر. وقد تخرج السيدة أحيانًا في جلال وأبهة لتزور بعض صديقاتها، فتمتطي حمارًا كبيرًا، وترتدي ملاءة واسعة من الحرير الأسود، وتحجب وجهها - عدا عينيها - بحجاب أبيض، وهي تسير ويرافقها خادم أمين. وهذه الزيارات للحريم الأخريات هي كل ما تظفر به النساء القاهريات من مباهج وسرور. وهناك تسمع ثرثرة لا حدّ لها، كما تشاهد أنواع الحلوىٰ وتفحص أدوات الزينة. وفي بعض الأحيان، قد تكون هناك مغنية أو راقصة، وهذا هو كل ما يُدخل عليهن السرور.

ظُلّة حجرية لدعم النوافذ العلوية

---

(١) هذا قول غير صحيح، فمن الثابت تاريخيًّا أنه تزوج وتسرّىٰ بتسع نساء علىٰ امتداد عمره، ولم يجمع بينهن في بيت واحد، ولم يجمع أكثر من أربع في وقت واحد. وإذا ماتت إحدىٰ نسائه أو طلقها، فإنها لا تسمىٰ زوجة له، ويجوز أن يتزوج بغيرها شرعًا. (المترجم والمراجع)

(٢) هذه مبالغات لم نسمع بها من قبل (المراجع)

ولم تتلق تلك النسوة تعليمًا من أي نوع، ولا يستطعن أن يعرفن متعًا عقلية أكثر مما تقدّره حواسّهن؛ فالمآكل، والملبس، والحديث، والنوم، والاستغراق في الأفكار والأحلام على الديوان لساعات طويلة، ومحاولة إرضاء الزوج وكسب محبته واحتوائه لأنفسهن فقط، هذه هي «الحياة» في الحريم. سألت امرأة إنجليزية إحدى المصريات: كيف تمضي وقتها؟ فأجابت: «إنني أجلس على هذه الأريكة، فإذا ما أحسستُ بالملل أو التعب أنهض لأجلس على تلك»!

ويعتبر التطريز من الأشغال التي قد تشغف بها النساء، غير أنه ليست هناك امرأة تفكر في أن تشغل وقتها في حديقة الأزهار الملحقة بمنزلها. والواقع أن الجميلات اللاتي تتخيلهن وراء النوافذ الشبكية، لسن من هذا النوع من النساء اللاتي يشغف بهن المرء كثيرًا أو يلذُّ له التحدث إليهن، فهن لا يُجِدن معرفة أي شيء، ولا يفكرن فيما يدور حولهن في قليل أو كثير؛ وكل ما هنالك أنهن جميلات.. لا أكثر ولا أقل!

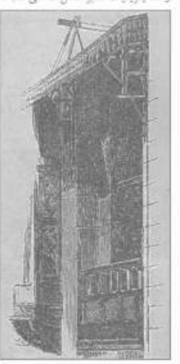
وبالطبع، فإن الغريب لن يرى على الإطلاق «الحريم» الحقيقيات، فإن النساء الوحيدات اللاتي يُظهرن أنفسهن سافرات للغرباء هن فقط القادمات من أدنى طبقات المجتمع، والطبقة الخاصة من الغوازي أو الراقصات. وغالبًا ما تكون بنيةُ الفلاحات جيدة ونبيلة في مظهرها وتكوينها الجسدي، لكن وجوههن لا تجذب إلا ذوي النظر الشهواني. والغوازي - اللاتي رأيتُهن حتى الآن - قبيحات الشكل ومثيرات للاشمئزاز، ولا ترى في كليهما - الغوازي والفلاحات - نموذجًا مثاليًا للجمال الشرقي.



سقّاء، أو حامل الماء، مع قربة مملوءة، مصنوعة من جلد الماعز

إن الشركسيات الجميلات - اللاتي تحلم أن تراهن دون أن تخبر أحدًا - والغاليات[1] داكنات البشرة، وكل الحريم الجميلات الأخريات اللاتي يَخصُصن الرجل الغني، لا تراهن عيون الغرباء الدنسة. ولعله من نافلة القول أن المرأة الفاتنة لا تخبيء سحر جمالها بنفس الدرجة التي كانت - ولا تزال - تفعلها جدتها. وزوجات الباشاوات صرن يركبن مركباتهن الآن على امتداد طريق شبراء في أيام الجمعة والأحد بعد الظهر، وعلى وجوههن اليشمك التركي شبه الشفاف، بدلًا من النقاب المصري الأبيض المعتم، ومع ذلك، فإننا بالكاد يمكن أن نختلس نظرة إليهن، ويجب علينا أن نذهب إلى كُتّاب المقالات في الصحف المحلية لنتعلم منهم الشروط التي يجب أن تتوافر في جمال المرأة لكي تلبي متطلبات الذوق العربي.

وعلى الرغم من أن الشكل العام للسيدات في مصر يميل إلى البدانة، فإن المرأة السمينة في وسط إفريقيا لا تعتبر المثل الأعلى للجمال عند العربي؛ بل على النقيض، فإن المرأة ذات الجمال الساحر التي كرّس لها الشعراء والخلفاء القصائد الشعرية وعهود الزواج، هي: «الهيفاء القوام والجميلة «مثل غصن البان»، التي وجهها كالبدر، وشعرها الفاحم ينسدل حتى وسطها. وتزيد شامةٌ - مثل نقطة عنبر على حجر ياقوت - من سحر وجهها المتورد. عيناها «شديدتا السواد، واسعتان، وتتخذان شكل حبة اللوز، ومليئتان بالذكاء». ويزيد من نعومة هذا الجمال، جفنٌ ينزل على العين قليلًا، بأهداب حريرية طويلة تضيف تعبيرًا خاملًا ورقيقًا ومليئًا بالجاذبية. وقد يزيد من حسنه مساعدة خفيفة بحدٍّ من الكحل الأسود، الذي تضيف الفتاة الجميلة به أناقة أكثر من المطلوب، وقد وضعت ما يُطلق عليه العرب لفظ «الكحل الطبيعي».


شرفة مفتوحة

والحاجبان رفيعان مقوّسان، والجبهة عريضة ولامعة كالعاج، والأنف مستقيم، والفم صغير، والشفتان حمراوان لامعتان، والأسنان مثل اللؤلؤ المنضّد بالمرجان، والنهدان شبيهان برُمّانتين، والخصر

(١) المنتسبات لبلاد الغال الفرنسية. (المترجم)

نحيل، والردفان عريضان وكبيران، والقدمان واليدان صغيرتان، والأنامل ناحلة، وأطرافها مخضبة باللون الأحمر البرتقالي الذي تمنحه أوراق الحنة. والفتاة التي تجمع هذه المظاهر الفاتنة تشكل صورة حية «للشفق الوردي»، لا يعرف حبيبها الليل ولا النوم في حضورها، وتكون رؤيتها عندما تقترب بديلًا عن رؤية كواكب السماء».[1]

هذا هو وصف الشعراء للجمال العربي. ومع ذلك، ففي هذه الأيام التي تنحطُّ فيها الأخلاق لعدم قناعة باشوات الشرق الكبار بالجمال المجرد - حيث اكتسبوا ذوقًا شهوانيًا لعشيقاتهم ذوات الغنج - فهم يريدون المتعة والإثارة الجنسية، إضافة إلى الفتنة والدلال. ومن ثم، نجدهم يبحثون عن عشيقاتهم في أوروبا. وتُبين الترجمة التالية لقصيدة تركية تُغنَّىٰ علىٰ العود ويُثنَىٰ فيها علىٰ بنات اليونان، وأن الذوق العثماني يميل إلى مستوى البنات الأوروبيات ذوات الخلاعة النسائية:

إن كان حتمًا عليك أن تبحث عن سيدة
فـأدعو لك أن تكون معشوقتك يونانية
فإليها تتوجه نزوات المتعة.
هناك الفرصة يا صديقي لتسعىٰ وراء الفتاة اليونانية.
إن فتيات اليونان هن مستودعات الشهوة
وأمام جمالهن تتضاءل بقية نساء العالم.
ياله من خصر نحيل ورقيق.
يالها من كلمات رشيقة تَقْطُرُ من لسان حلو!
يالهذا الكلام المتملق الذي يأخذ بمهجة القلب
ويالهذا البهاء، وهذه المشية التي تأخذ بجماع القلب
يا لشكل هذه القبرصية، الطويلة المتحررة
في حديقة بها شجرة صغيرة من صنع الرب
هل تمنحها تلك الأصوات كبرياءً لها وحدها
وتراتها.. وتلك اللكنة وذلك النغم؟
تلعب أوتار صوتها الساحر المصنوعة من اللآلئ الملكية
ثم تخفق بقوة عندما يصل صوتها لفمها اللطيف
تتحرك برشاقة عندما تدور من جانب إلى جانب

---

(١) لين، Lane "*Arabian Society in the Middle Ages*", ed.S.Lane-Poole , pages 214,215.1883 «المجتمع العربي في العصور الوسطى»، إعداد ستانلي لين بوله ص ٢١٤، ٢١٥، ١٨٨٣.

لدرجة تحرق قلوب كل محبيها.
هذه القبعة التي ترتديها كل يوم على جانب واحد
وهذه الخطوة الأنيقة، والكبرياء المبهجة التي لا تبالي بأحد
وتلك الحركات، تجلب لنا البهجة الكاملة
وكذلك سيرها الرشيق على أطراف قدميها.
يا له من منظر بديع
يبدو كما لو أن نارًا قد أوقدت في طريقها
ستحرق قدمي تلك الفتاة الشبيهة بالقمر
إنك تظن أن قلوب محبيها ستحرق طريقها من شدة حبها
ثم سيرقدون جميعًا مشتتين على الأرض.[1]

خفير حراسة

توجد سيدة شابة – مثل تلك التي وصفها الشاعر العثماني – في العديد من مجتمعات الحريم المصرية، إلا أنها لا تمنح جمالها الفريد إلى أخواتها المصريات. وفي الواقع، لا تجرؤ النساء المصريات على الظهور أو المباهاة، وهن يعانين من تلك النظرة الوضيعة التي ينظر بها جميع «المحمّديين» إلى الجنس اللطيف.. فالرجال في الشرق يدينون بمبدإ لا حوّل عنه، ألا وهو ظلم المرأة واحتقارها، ولا يحيدون مطلقًا عن هذا المبدإ الذي هو جزء من دينهم[2]. ألم يقل النبي المبارك ما معناه: «نظرتُ إلى الجنة فوجدت أكثر أهلها الفقراء، ونظرت إلى النار فوجدت أكثر أهلها النساء»؟[3] وفوق هذا، أليست هناك حقيقة فسيولوجية مؤدّاها أن المرأة الأولى

---

(1) E.J.W. Gibb : " Ottoman poetry," pages 142-44.1882.

[ج.و. جب «الشعر العثماني» ١٨٨٢، ص ١٤٢-١٤٤. (هـ مؤلف)

(٢) الدين الإسلامي الحنيف يكرم المرأة ويحفظ لها جميع حقوقها المدنية، وقد خصص القرآن الكريم سورة بأكملها، وهي سورة النساء، احترامًا لحقوقها وحفظًا لقيمتها. وفضل الله الأمهات على الآباء بثلاث درجات، وأوصى الأبناء برعاية الأبوين بالتساوي. (المراجع)

(٣) ورد هذا الحديث في صحيح البخاري عن عمران بن حصين. وهو صحيح. وذلك ليس احتقارًا للمرأة، بل لضيق عقل بعضهن، وكفرهن بعشرة أزواجهن، ولاحتراف معظمهن الغيبة والنميمة، وهذا شيء يشهد له عامة الناس وخاصتهم على مر العصور. لكن الصالحات منهن لهن شأن عظيم على امتداد التاريخ الإسلامي، ويكفي فضل السيدة عائشة – رضي الله عنها – على فقهاء هذه الأمة. (المترجم).

«حواء» خُلقت من ضلع آدم الأعوج؛ فإذا حاولتَ تقويم هذه الضلع كسرْتَه، وإذا تركتَهُ وشأنه كان لابد من أن يستمر على اعوجاجه؟ وفضلًا عن هذا وذاك، ألم يُرْوَ لنا أن الشيطان حينما سمع أن هناك امرأة خُلقت، ضحك مبتهجًا ثم قال ما معناه: «إنكِ لنصف أعواني، ومستودَع سري، وسهمي الذي أصيب به ولا أخطئ»؟

وعلى ذلك، فليس مما تعجب له كثيرًا أن ينصح أحد الفقهاء واحدًا من تلاميذه، فيطلب منه قبل أن يُقْدِمَ على أي عمل خطير «أن يستشير عشرة من أصدقائه المخلصين ممن يَعْهَدُ فيهم الذكاء. أما إذا لم يكن له سوى خمسة فقط من أمثال هؤلاء الأصدقاء الذين تتوافر فيهم هذه الشروط، فَلْيَسْتَشِرْ كلَّ واحد منهم مرتين. أما إذا لم يكن له غير صديق واحد، فعليه أن يستشيره عشر مرات في عشر زيارات مختلفة. فإذا لم يكن له حتى هذا الصديق الواحد، فليَعُدْ إلى منزله ولْيَسْتَشِرْ زوجته، ثم ليعمل عكسَ ما تقوله له، وبهذه الطريقة يسير قُدُمًا في قضاء حاجته ويصل إلى غايته»[1].

وقد اتبع المسلمون نصيحة هذا الفقيه الورع، وعاملوا النساء على أنهن مخلوقات أقل منهم شأنًا، وإن كانت لهن أهمية كأدوات للزينة. ولكن مما لا شك فيه، أنهن لسن جديرات بأي احترام أو تبجيل، ومن ثَمّ فإنهم قلّما يعلّمون بناتهم. وإذا أرادوا الزواج، فلا يطلبون في زوجاتهم غير الجمال والطاعة، ثم يعاملونهن على أنهن لُعَب لطيفة تُستخدم في اللعب ثم تكسر فيُلْقَيْنَ بها، أو على أنهن وسيلة من وسائل الاقتصاد الاجتماعي: ينجبن أطفالًا، ويرعَيْنَ شؤون المنزل. لكن أن يعتبروهن رفاق حياة، أو يشركوهن معهم في آمالهم وآلامهم، أو يستندوا إليهن في فترات مآسيهم، أو ينعشوا أنفسهم بتشجيعهن واستشارتهن؛ فتلك أفكار لا تستطيع النفوذ إلى عقل المسلم. وفي مصر، تعد الزوجة دائمًا مخلوقًا وضيعًا، فيما عدا القليل من التركيات المتأقلمات مع الطبيعة الأوروبية. فالمصرية لا تأكل عادةً مع سيدها أو زوجها الذي يأتيهم غذاءه بمفرده، بصرف النظر عن جاريته المخصصة له.. وعندما ينتهي من وجبته، يحق لها أن تبدأ الأكل، ما لم يطلبها لتقديم اللذة والتسلية له.

وهذه الوجبات ما هي إلا أمور بسيطة؛ فالمصري بطبيعته ليس شرهًا إلى الطعام، وبعد كل وجبة يغسل يديه، أو بالأحرى يُصَبُّ له الماء عليهما.

---

(1) Lane: Arabian society in the middle Ages", page 220. لين، «المجتمع العربي في العصور الوسطى»، ص٢٢٠.



في بازار السجاد

وفي وليمة العشاء، يجلس الحضور على السجادة، أو يجلس بعضهم على السجادة وبعضهم الآخر على جوانب الديوان، وذلك لكي يحيطوا بالصينية الصاج الواسعة التي وُضعت بالفعل على المنضدة الصغيرة (الطبلية)، وقد رُصّت عليها الفطائر أو أرغفة الخبز، والملاعق والأكواب أو الفناجين، لكن من دون مفارش سفرة أو سكاكين أو أشواك. تكون أرغفة الخبز بمثابة الأطباق، وأصابعنا بمثابة الأشواك والسكاكين، أما المناشف التي مسحنا أيدينا بها فتكون مناديل السفرة. وبعد قول «بسم الله»، بدأ مضيفنا التهام الوجبة بوضع ملعقته في صحن الحساء، ثم تلاه الضيوف. وتلاعبت الملاعق متنقلةً ما بين الصحن والأفواه العديدة في مشهد مؤثر جدير بالاهتمام. وبعد ذلك، أُحضرت بعض الأطباق المطبوخة، وسلّح كلُّ رجلٍ نفسه بقطعة صغيرة من الخبز وأمسكها بأصابع الإبهام والوسطى والسبابة ليده اليمنى، حيث لا تستخدم اليد اليسرى مطلقًا في الأكل إلا في حالات الضرورة القصوى، ثم يمدها لحافة الطبق ويسحب بها قطعة من اللحم ويُرحّلها إلى داخل فمه. وفي الحقيقة، قد تُعَدّ هذه العملية نظيفة ودقيقة لو تمّت في مجتمع مهذب، وفي معظم وجبات الطعام. ومع ذلك، فليس من السهل أن تحمل مقدارًا من الفول المطبوخ بالزيت إلى فمك دون أن يتساقط بعضه. والطعام الذي يجب أن يُحمل بعناية يتطلب أيضًا أن يوضع بعناية داخل الأفواه، حيث إن الأوروبي غير الخبير لا يستطيع أن يتقبل رؤية كَمّ الأصابع التي تدخل مع الفول داخل الفم، ثم تمتد ثانيةً داخل الطبق نفسه!



البوابون أو "حراس البيوت"

وثمّة مشهد أكثر إثارة لاشمئزاز الشخص غير الخبير، وهو كيفية التعامل مع خروف مشوي كامل، والذي يشكل عادةً الطبق الرئيسي في المأدبة المصرية. وتلك إحدى الحالات الضرورية التي يجب أن تُستخدم فيها اليد اليسرى. وحتى بعض سكاكين تقطيع اللحم الجيدة يمكن الاستغناء عنها هنا؛ فالشخص - صاحب المأدبة - يغرز أصابعه بعمق في لحم الخروف، ثم يقتلع بها كتلًا ضخمة، شَذَرَ مَذَرَ[1]، ويناولها بيديه - اللتيْن يلمع فيهما الدهن - لكل ضيف من ضيوفه.

إنه لمشهدٌ من أكثر المشاهد تقززًا.. ويجب على معدة الغربي أن تعتاده!



مسجد محمد علي

إن منظر الخروف المقطّع والمشوّه، ومنظر الخدم المتعاقبين ذوي السترات وهم يحملون الأصناف الدهنية المتنوعة، وأنواع العصائر الساخنة والباردة ذات النكهات المميزة والحُلوة، مكدسة بجانب بعضها كأكوام ورق الحائط التي لم تستخدم بعد، كومة فوق الأخرى، على نفس اليد والمعصم السمراوين، تعتبر الجزء الصعب الذي لا يُحتمل في حفل العشاء العربي.

وتُعدّ الأصناف المطهية بشكل عام جيدة الطعم، وتنوعُها مذهلٌ، وبمجرد اعتياد المرء مبدأ استعمال الأيدي في تناول الطعام، فلا شك في أن «الأكل على الطريقة العربية» مفضلٌ - حتمًا - عن الأكلات الفرنسية «المزيفة» التي يأكلها المرء في الفنادق.

يقول مستر لين[2]: «من أشهر الأطباق أن يُقطّع لحمُ الحمَل أو الخروف إلى قطع صغيرة تُطهى بالسَّلق مع العديد من الخضروات، وأحيانا مع الخوخ والمشمش، أو العنّاب والسكر، والخيار أو ثمار القرع الصغيرة.



طواحين هوائية في القاهرة

(١) ترجمة للتعبير اللاتيني disjecta membra (المترجم).

(٢) يقصد المستشرق الشهير «إدوارد وليم لين» شقيق جدة المؤلف، وصاحب كتاب «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم». (المترجم).

وتُحشى ثمار الباذنجان الأسود أو الأبيض بالأرز واللحم المفروم، وكذلك يُحشى ورقُ العنب أو الخس أو ورق الكرنب بمثل المكونات السابقة، وتضاف قطع صغيرة من لحم الخروف أو الحمل وتشوى على أسياخ - وتسمى عندئذ «كبابًا». والطيور المشوية، أو المسلوقة، أو المخلية من العظام، تُحشى بالزبيب والفستق. وكذلك العيش الملدّن والبقدونس والعديد من المخبوزات والفطائر الحُلوة. وكثيرًا ما تبدأ الوجبة بالحساء، وتنتهي عادة بالأرز المسلوق المخلوط بالقليل من الزُّبد، ويُرش عليه الملح والفلفل الأسود. ثم تقدّم بعد ذلك بطيخة أو أنواع فاكهة أخرى، أو سلطانية بها شراب حلو مكوّن من الماء والزبيب، وأحيانًا بعض أنواع الفاكهة التي تُسلق فيه، ثم يضاف إليه بعد ذلك قليل من السكر وماء الورد عندما يبرد.

ويُعتبر الكثير من هذه الأطباق والوصفات لذيذًا جدًّا. ومن الغريب أن الأوروبيين الذين يعيشون في الشرق لا يتكيفون معها في الغالب!

ويُعد العشاء العربي أمرًا غاية في الرزانة، ولا يُشرب معه أيُّ مشروب سوى الماء «شامبانيا النيل»، كما كان مضيفنا في الأقصر يسميه على سبيل المزاح. وليس من المعتاد أن يتم إحياؤه بالموسيقى أو اللهو، على الرغم من استئجار مطرب في المناسبات الكبرى. ولكن ذلك لم يَسْرِ في حالة الاحتفالات التي كانت تُعقد في العصر الذهبي للخليفة الصالح هارون الرشيد ولا في الحفلات الماجنة التي كانت تقام في العصور الأخرى من التاريخ المحمّديّ، حسب ما وصفتها كتابات أهل المجون أنفسهم. ولم تكن الخمور وقتها أقل حرمة ممّا هي الآن، لكن الخليفة الشاعر قال:



مدخل منزل قديم



أجري لكأس الخمر في الصيام … وأفعل الشيء المماثل في المساء
لعمري إنني لا أرى أذى في … فعل يُدخل البهجة إلى نفسي
وقد تحتار عيني في وجهها … فهو كالبدر عند الشروق
إنسية في حقيقتها ولكنها … أجمل من في بني الإنسان
تسقيك من يدها خمرًا ومن فمها … خمرًا، فما لك من سُكرين من بُدّ
لي نشوتان و للندمان واحدة … شيءٌ خُصصتُ به من بينهم وحدي[1]
وندماني تنالون جميعًا قبل … قدوم النعاس لجفني
على الرغم من أنني أول … من يجري إلى شرب كأس الصباح

---

(١) هذان البيتان لأبي نواس، الشاعر العباسي الشهير، وهما البيتان الوحيدان اللذان تمكنّا من إيجادهما بعد جهد من البحث في مصادر شعر العصر العباسي، ويبدو أن ستانلي لين بول كان يخلط أبيات الشعر من مصادر مختلفة ثم يضعها في مكان واحد كما سيظهر لاحقًا في هذا الكتاب. (المترجم)

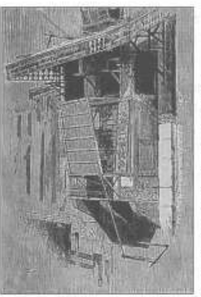
ترتبط هذه الأبيات بعصر الازدهار العربي المسمّىٰ «الزجاجات الأربع»، وهو عصرٌ كان لكل رجل وسط ندمائه وصُحبته الفاتنة «كأسه الكبيرة الخاصة»، التي يُفرغها في فمه مرارًا وتكرارًا. كانت صورة العرب وقتها غاية في العربدة؛ إذ لم يفهموا كيفية تهذيب شراهتهم؛ فكانوا يأكلون حتىٰ التخمة، ويشربون حتىٰ الثمالة. وكانوا يُعدّون أنفسهم بعناية لحفلات التسلية والمتعة؛ فيرتدون أفخم ملابسهم، ويعطّرون لحاهم بالمسك، ويرشّون علىٰ ملابسهم ماء الورد. وكانت الموائد تُفرش بالزهور المبهجة، وتفوح روائح البخور والعنبر في صالة الحفل. وعندما يصطفّون علىٰ هذا النحو في أبهىٰ حُللهم، ويتجمعون كما ينبغي أن يكون تجمُّع الحفلات، يبدءون نشاطهم بإرادة وحماس يثيران الدهشة.



باب وقفل خشبي

إن مآدب الطعام الكبرىٰ المذكورة في مصادر التاريخ العربي لا تُصدّق؛ قرأنا في إحدىٰ الوقائع عن مأدبة أقيمت تحتوي علىٰ ٢١ صينية هائلة، وتحتوي كل صينية علىٰ ٢١ خروفًا مشويًّا وسمينًا، عمرُ كل خروف ثلاثة أعوام، وكذلك ثلاثمائة وخمسين حمامة ودجاجة، تكدس بعضها فوق بعض حتىٰ صارت بمستوىٰ قامة الرّجُل، وغُطيت بحلوىٰ الفالوذج؛ علىٰ حين فُرش وسط هذه الصواني الضخمة خمسمائة طبق أصغر حجمًا من الصواني، علىٰ كل واحد منها سبعُ دجاجات وكمية من الفالوذج. كذلك وُضع برميلان ضخمان من السكّر يزن كلٌّ منهما قرابة طن، أُحضرا إلىٰ المأدبة محمولَيْن علىٰ قُضُب. ويمكن للرجل في هذه المأدبة أن يأكل خروفًا أو اثنين دون أن يعلّق عليه أحد. وتحتاج هذه المأدبة إلىٰ كمية هائلة من المشروبات لتسهيل هضم هذا المقدار «الهائل» من الطعام. وهناك سبب يحملُنا علىٰ الاعتقاد بأن مسلمي تلك الأيام لم يستغنوا عن مخازن الخمور التي خزّنها «الملك الصالح الشهير كسرىٰ أنوشروان»، في قول الشاعر:

خمرٌ رشّها بعناية رهبانُ الإله الكهول في خزائنها،
استعدادًا للاحتفال بشربها في أيام عيدهم
رحيقها مُسكر، إن تعلَّم بمقداره رجلٌ
فسيترنح ثملًا به وهو خارج من باب خزائنها



مشربية مزودة بساتر خشبي في واجهتها لحجب المقيمين بالداخل عن عيون الجيران

وفي الحقيقة، هناك واقعة مكتوبة عن رجل أصبح غاية في الثمالة لدرجة أنه أقسم ألا يتزحزح عن مكانه حتى يحتضن القمر، وأصرّ على ذلك فمضى باسطًا ذراعيه نحو ذلك الجرم السماوي، فوقع وانكسر أنفه. وعندما أفاق في اليوم التالي وأخبره الناس عن سبب ما ألمّ به، قرر ألا يحتسي مثل هذا الشراب المُسكر الذي جعل منه إنسانًا أحمق. لكن هذا التائب كان حالةً استثنائية؛ فالعرب لا يفهمون معنى متعة احتساء الخمر دون أن يشربوا منها حتى الثمالة. لذا كان حتمًا أن تنتهي معظم الاحتفالات أو المآدب التي أقيمت أثناء العصر الذهبي لبغداد بأصحابها - من شدة السكر - على الأرضية، أو تحت الموائد.

يقول القاضي الذي كتب باللغة العربية مصدرًا تاريخيًّا مشهورًا، لكنه غاية في الخلاعة عن الخمر: «الخمر هي الجسد، والموسيقى هي الروح، واللذة عاقبتهما، ولا تكتمل المأدبة دون وجود الجواري الحسان». كما أضافت أصوات المغنين والمغنيات مزيدًا من البهجة للمآدب. جاريةٌ جميلة، وجهها كالبدر، وقوامها ممشوق، تخطف قلوب الرجال عندما تغني لهم القصائد العربية الحزينة والرقيقة. بمصاحبة العزف على العود، حتى يقع الرجال على ظهورهم من فرط النشوة بالطرب وقد «ذهبت عقولهم».

والفترات التي تتخلل وصلات الغناء، تبهجها نكاتٌ ونوادرٌ يلقيها الظرفاء، ولم تكن هذه النكات مجرد استخدام لأساليب التورية في الكلام، على الرغم من أن الأديبَ الحقّ هو من يمكنه التلاعب بالألفاظ العربية والفنون البلاغية بين الحين والآخر.. فالرجل الأديب - في نظرهم - هو مَن لديه مخزون طيب من المعرفة بآداب وأشعار العرب، ويقدر على إكمال العبارات الناقصة والمقتبسة، كما أن لديه موهبة الذوق والحصافة في وضع تآليفه وتراكيبه اللغوية، وهو كذلك ذو صوت جميل حين يتلو أشعاره على الحاضرين أو يغنيها.

وربما أمكن مثل هذا الرجل أن يُحدث ثورة، أو يتسبب في خلع وزير من منصبه!

لقد كان الخلفاء والوزراء شديدي الحب للشعر والأغاني، حتى إنهم لم يرفضوا أي مطلب يطلبه شاعرٌ أدخل السرور عليهم! وذات مرة أجاب متسولٌ على سؤالٍ ببيت شعرٍ صاغه ببراعة، فأمر الخليفة أن تُملأ جَرّته بالذهب! إن براعة الإجابة وسرعة البديهة ستملأ الفم الذي نطق بها بالجواهر، وتغطي ظهرَ قائلها بالملابس الفاخرة. ولقد ترك شاعر – عند موته – مائة حُلّة مَلَكية، ومائتي قميص، وخمسمائة عمامة كان يستخدمها للمناسبات الرسمية. وكان يُعطَىٰ عن كل بيتي شعر عشرين أو ثلاثين ألف قطعة ذهبية. وهذه حكاية تُحكىٰ عن الشاعر «حمّاد» الذي استدعاه الخليفة هشام وأمره أن يتذكر بيتَ شعر معين لم يتذكر منه الخليفة إلا آخر كلمة منه، فأنشده حمّاد على الفور، وعندئذٍ أمر الخليفة إحدى الجاريتين اللتين كانتا تقفان بجواره منتظرتين أوامره أن تحضر له الخمر، فشربا معًا. وسواءٌ أَحدَثَ ذلك بتأثير الخمر أو الجارية التي أحضرتها، فقد قال حمّاد إن ثلث عقله قد ضاع! ثم أمر الخليفة حمّادًا أن ينشد أبيات الشعر ثانيةً، وحينئذ أُحضرت كأس خمر أخرى، فقال حماد: «يا أمير المؤمنين، ذهب ثلثا عقلي!». فضحك الخليفة هشام ونصحه أن يطلب ما يشاء قبل أن يذهب الثلث الباقي، فقال الشاعر: «إحدى هاتين الجاريتين». فرد الخليفة: «كلّا. بل كلتاهما لك، وما تمتلكان، وخمسون ألف قطعة ذهبية علاوةً عليهما». قال حمّاد: «فقبّلتُ الأرض أمام الخليفة، وشربتُ كأسًا ثالثة، ولم أعِ ما حدث بعدها»، حتىٰ استيقظ في الصباح التالي ووجد الخليفة قد نفّذ قوله بأفضل مما وعد به.(1)



حورية قاهرية

وهذا هو الموسيقيّ الشهير «إبراهيم الموصلي»، الذي شارك وأحيا العديد من ليالي الخمر للخليفة هارون الرشيد – كما يتذكر كل قراء **ألف ليلة وليلة** – يتلقىٰ من سيّده مائة وخمسين ألف درهم فضة (وهو ما يعادل قيمتها بالفرنكات الفرنسية تقريبًا) كدفعة من حسابه، وكذلك منحة شهرية تقدر بنحو عشرة آلاف فرنك، وهدايا في المناسبات وصلت في بعض الأحيان لما يعادل مائة

(1) See Lane: "*Arabian Society in the Middle Ages*", pages 118-120; and *Saturday Review*, Dec.2, 1882

انظر لين: «المجتمع العربي في العصور الوسطىٰ»، ص ١١٨–١٢٠، وصحيفة ساترداي ريفيو، ٢ ديسمبر ١٨٨٢.

ألف فرنك، مقابل أغنية واحدة. كما سُمح له أيضًا بأن يأخذ مما تنتجه مزارع معينة: ثلاثة خراف يوميًا لمطبخه، بجانب الطيور، وثلاثة آلاف فرنك في الشهر للفواكه والعطور، وألف في الشهر للملابس. وكان إبراهيم ينفق كل ذلك عن آخره، وعندما توفي لم يكن هناك مالٌ كافٍ لسداد ديونه.

والقصة التالية عن ليلة قضاها مغنٍّ آخر مشهور، اسمه مُخارق، ستعطيك فكرة كافية عن كيفية فهم الحياة في العصر الذهبي للمجتمع العربي كما يقصها المغني نفسه:

«بعد أن شربتُ مع الخليفة ليلة كاملة، استأذنته أن أتجوّل في حي الرصافة ببغداد، فوافق. وأثناء تجوُّلي، إذا أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها. وكانت تحمل سلة، فتبعتُها. فوقفت أمام حانوت فاكهة واشترت بعض الثمرات، ولاحظت أنني كنت أتبعها، فالتفتت وسبّتني مرات عديدة، إلا أنني أصررتُ على ملاحقتها، حتى وصلَت إلى باب كبير، بعد أن ملأتْ سلتها بالفواكه والورود وأغراض عديدة. وعندما دخلَت وأُغلق الباب وراءها، جلستُ أمامه وقد ذهب جمالها بعقلي، وأيقنتُ أن في هذا المنزل - دون ريب - حفلًا لشرب الخمور. غَرُبت على الشمس وأنا جالس هناك، وكان يومًا حارًّا، وما لبث أن جاء شابان وسيمان يمتطيان حمارَيْن وطرقا الباب. فلما سُمح لهما بالدخول، دخلتُ معهما، فظنّ صاحب المنزل أنني رفيقهما، وظنّا أنني أحد أصدقاء صاحب المنزل. أُحضر الطعام، فأكلنا، ثم غسلنا أيدينا وتعطّرنا. ثم قال صاحب المنزل للشابين: «هل ترغبان في أن أنادي فلانة؟»، وذكر اسمها، فأجابا: «نعم. إن تفضلتَ». فاستدعاها، فجاءت. وكانت المفاجأة أنها الفتاة الجميلة التي رأيتُها من قبلُ وسبّتني. جاءت أمامها وصيفة تحمل عودها، فوضعَتْه على حِجْرها، ثم أحضرت الخمر وغنت، فشربنا واهتزت رؤوسنا طربًا. فقالوا: «لمن هذه الأغنية؟»، فأجابت: «لسيدي مُخارق». ثم غنت أغنية أخرى، وقالت إنها أيضا لي، هذا على حين كانوا يشربون بالأرطال. ولقد كانت تنظر إليَّ بشك حتى نفد مني صبري، فقلتُ لها: «يا جارية اعزفي وغني بأفضل ما يمكنك». ولكنها عندما غنت للمرة الثالثة خرجت عن جمال إيقاعها وصوتها الحسن، فقلتُ: «لقد ارتكبتِ خطأً». فألقت العود من حِجْرها غاضبة حتى كاد أن يتحطم، قالت: «فلتأخذه أنت إذًا ولتُسمعنا صوتك وغناءك». فأجبتُ: «على الرحب والسعة». وأخذتُه وشددتُ أوتاره، وغنيتُ المقطع الأول الذي غنّته قبلي، وحينئذٍ قاموا إليّ وقبّلوا رأسي. ثم غنيتُ المقطع الثاني والثالث، فكادت عقولهم تطير من النشوة والطرب. وجاء إليّ صاحب المنزل بعد أن سأل ضيفَيْه عني وأجابا بأنهما لا يعرفاني، فقبّل يدي وقال: «بالله عليك يا سيدي، من أنت؟»، فأجبت: «والله أنا المغني مخارق». فقبّل الرجل يديَّ الاثنتَيْن وقال: «لأي سبب حضرتَ هنا يا

سيدي»؟. فأجبت: «طفيليٌّ»، وأخبرتُه ما حدث لي بخصوص الجارية الحسناء، فنظر إلى رفيقَيه وقال لهما: «أخبراني بالله عليكما، ألم يُعرض عليَّ في تلك الجارية ثلاثون ألف درهم فامتنعتُ عن بيعها؟» فأجابا: «نعم». فقال: «أُشهِدُكما أنني أعطيتُها له». فقال صديقاه: «سندفع ثُلُثَي ثمنها». فملَّكني الرجل الجارية. وعندما رحلتُ في المساء، قدَّم إليَّ ملابس ثمينة وهدايا أخرى، فأخذتُها جميعًا وانصرفت مع الجارية من المنزل. وكلما مررت بالأماكن التي سبَّتني فيها، قلتُ لها: «يا مولاتي، أعيدي ما قلتِه لي». لكنها لم تستطع من الحياء، حتى وصلنا إلى باب الخليفة، ويدها في يدي. فوجدت الخليفة غاضبًا غضبًا شديدًا لغيابي، ولكن عندما حكيت له الحكاية تعجَّب ثم ضحك، وأمر بإحضار صاحب المنزل وصديقَيه ليكافئهم، فأعطى الأول أربعين ألف درهم، ولكلٍّ من صديقيه ثلاثين ألف درهم، ولي مائة ألف، فقبَّلْتُ قدميه وانصرفت».[1]

هذه الحكايات والتجارب المرحة قد ولَّت وانقضت، وكانت دائما متعًا عابرة مسروقة من الزمن وذهبت متعتها. وقد شجبها ومنعها الخوفُ من الله، حيث لم يكن النبي محمد يسمع الموسيقى، واعتبر الآلات الموسيقية من آلات الشيطان، لذلك لا يستمع المسلمون الأتقياء إليها.

وسواء كان ذلك نتيجةً لزيادة التقوى أو ازدياد الغباء، فإن المصري المُحدَث قد نسي بالتأكيد كيف يسلِّي نفسه بالأسلوب الماجن غير التقي الذي اتبعه أسلافُه، أو بالأحرى قد اتبع أسلوبهم في الاستمتاع، ولكن بشكل أكثر اعتدالًا ورزانة؛ فلا يزال الناس يستمعون إلى المطربين والمنشدين في مصر. لقد سمعتُ أحلى غناء على الناي في العالم في أحد مساجد الدراويش في القاهرة، وبعض الألحان الرائعة على «الكمنجة»[2] في طيبة «الأقصر». وهناك طائفة المطربات «العوالم» اللاتي يحترفن فنهن بنجاح كبير، وغناؤهن له سحر غريب يتملك أولئك الذين يستطيعون تعويد آذانهم على الفواصل المميزة للسلم الموسيقي العربي، والتغييرات الغريبة في طبقة الصوت والألحان الشبيهة بالترانيم الجنائزية. فأحيانا يتم تأجير إحدى هذه العوالم للغناء بعد حفلات العشاء. ويجب ألَّا تختلط مهنتهن المحترمة مع الحرفة الخليعة «للغوازي»، ولكن – كقاعدة – تُخصص الاحتفالات بالموسيقى وأنواع اللهو الأخرى لتلك المناسبات الخاصة، عندما يعتبر المصري أمرَ الاحتفال مرتبطًا بما يعتبه المرح لضميره، مثل حفلات الزواج والأعياد الإسلامية.

---

(1) The Halbet El-Kumeyt , or Race of the Ruby , quoted in Lane : " Arabian Society in the Middle Ages," pages 173-76.
حلبة الكميت، اقتبسه لين في " المجتمع العربي في العصور الوسطى "، ص ١٧٣-١٧٦.

(٢) ذكرها ستانلي لين بول بهذا اللفظ، ولعله يقصد الربابة (المترجم).



فتاة من الشرق

لذلك، تُخصَّص حفلات العوالم للغناء، وتُقدِّم حفلات الغوازي الخليعة في حضور السيدات المحتشمات لإمتاعهن برقصاتهن الملتوية المبتذلة، وذات المغزى في الوقت نفسه! كما يتم إحضار المهرجين لتسلية المدعوين بتهريجهم ومفارقاتهم المضحكة التي تثير الاشمئزاز في مجملها، تمامًا مثلما كان يتم تسلية أسلاف هذا الشعب أيام الفراعنة بالإيماءات المضحكة والرقصات التي رسمها مستر «ألما تاديما» في لوحته الشهيرة «التسلية في مصر القديمة»، والتي نُقشت بالحفر على لوحة خشبية، وهي منشورة في الفصل التالي من هذا الكتاب. تمامًا مثل المواطن الإنجليزي البسيط، الذي يذهب إلى عمله كل يوم وينام كل ليلة، ولا يفكر أبدًا في الحفلات، والذي يعتبر أنَّ من الواجب عليه أن يطلق العنان للتبذير ويدفع ليس لهما حدود عندما يحتفل بزواج ابنه. كذلك شأن المصري؛ فعلى الرغم من فقره، قد يدفع كل مليم ادخره في حياته، بدلًا من الاقتراض، للاحتفال بزواجه أو زواج أفراد عائلته بأبهة وصخب.



الجزء العلوي من منزل

والزواج المصري في مجمله مسألةٌ مثيرة؛ فبادئ ذي بدء، لا يجب أن تفكر في أن تبحث عن زوجةٍ بنفسك؛ فالآنسات الصغيرات في الشرق لا يتقدم لخطبتهن أحدٌ بنفسه، ولا يمكن أن ترى عينا المحبِّ حبيبته حتى يتزوجها. إن الاحتشام – وفق الأفكار المحمَّدية – يتعارض مع الرؤية، ولو تصادف أن يرى الشبان والفتيات وجوه بعضهم، «فإن اللعنة تحلُّ على الرائي والمرئي».

تقول السيدة فاطمة بنت النبي محمد: «خيرُ النساء مَن لا ترى الرجال ولا يراها الرجال»[1].

ومن ثم، فإنه يجب التقدم لخطبة زوجة المستقبل عن طريق وسيط. ومع ذلك، فمن المحتمل ألك لن تُجهد نفسك بخصوص هذا الأمر، فإن والدك الممتاز – مثل النبي إبراهيم الذي أرسل خادمًا أمينًا لإحضار زوجة لابنه إسحاق، فأتى بنتائج كانت ناجحة إلى حد كبير، إن جاز لنا القول – سيذهب إلى أحد متعهدي الزواج، فيما يشبه «مكاتب الزواج القاهرية»، أعني امرأةً عجوزًا تسمى «الخاطبة». وهي تعتبر مثل «مراسل للأخبار المتعلقة بالزواج»، وتعلم بالضبط من يريد أن يزوّج ابنته، وكم سيتقاضى لها مهرًا.

---

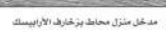
(١) حديث ضعيف في السلسلة الضعيفة للألباني. ذكره أبو نعيم في الحلية (٢ / ٤٠ - ٤١)، وقد سَنَّ الإسلام الرؤية الشرعية ليرى الرجل من يقبل على زواجها، «فإنه أحرى أن يُؤدَمَ بينهما». (المترجم)

وبعد التقرير الذي تقدمه المرأة العجوز، يجيء السؤال عن المهر، الذي يعد جزءًا أساسيًّا في كل زواج، ويهبه العريس للعروس، وذلك مع ممتلكاتها الشخصية والأثاث والملابس وبقية الأشياء. ومع ذلك، يشكل مبلغ «عشرين جنيهًا» مهرًا متوسطًا، وحتى مبلغ «خمس شلنات» يرضى به الشرع. ويُدفع ثلثا المهر عند الاتفاق، ويُستخدم للإنفاق على جهاز العروس، ويُدفع الثلث الباقي عند عقد القران، الذي عادةً ما تستغرق إجراءاته أسبوعًا أو ما شابه قبل حفل الزفاف، على الرغم من أن بعض الخطبات قد تعقد في فترات طفولة طرفَي الزواج المتعاقدين. وتُعدّ هذه الخطبة تقليدًا دينيًّا، وتُعقد أيضًا في مناسبة أو فترة مباركة، مثل شهر شوال.



نافذة قديمة





مدخل منزل محاط بزخارف الأرابيسك

ويتم استدعاء القاضي وشاهدَين، ثم يتقابل العريس ووالد العروس (أو أي وكيل آخر لها). وبعد حمد الله والصلاة على الرسول وتلاوة آيات من القرآن، يدفع العريس الجزء المتبقي من المهر، ثم يجلس أمام والد العروس، ويمسك بيده كأنه يصافحه. ثم يوضع منديل على اليدين المتلاصقتين، ويقول والد العروس: «زوّجتُك ابنتي» - آمنة مثلًا - «البكر الرشيد على صداق قدره عشرون جنيهًا». فيرد العريس: «وأنا قبلت زواجها». وهكذا يكتمل عقد القران، ويقرأ كل شخص حاضر الفاتحة (أول سورة في المصحف):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ آمين



فجوة حدوية ضمن أعمال التزيين الخشبية بإحدى الغرف.

وبهذا الشكل، تكون الإجراءات القانونية للزواج قد انتهت، وسرعان ما تبدأ احتفالات الزواج، فتُحضر قافلة من الجمال أثاث العروس إلى بيت زوجها، ويدعو العريس أصدقاءه لمأدبة احتفالا بوداع العزوبة، فيُضاء بيته بالمصابيح لعدة ليال، وتضيف إليه الأعلام الخضراء والحمراء - التي تُعلَّق على حبال تمتد عبر الشارع - المزيد من البهجة.

والآن، يتم إعادة إنتاج العصر الذهبي بمظاهره المفرطة.. يسحر المطربون آذان المدعوين، وتُلهب الراقصات أحاسيسهم، ويغري المطبخ العربي أفواه المدعوين بأفخر أصناف الطعام، متجاهلاً كل ما أوصىٰ به النبي من الاقتصاد واتباع السنّة، حيث يوضع عجل سمين بدلا من الماعز.

«النبيذ، والنساء، والغناء»[1]... هذا هو ترتيب أحداث هذا اليوم، ما لم يكن العريس أحد أولئك الناس المتميزين الذين لا يستطيعون تخيل شيء أكثر إمتاعًا لأصدقائهم من ختم القرآن بأكمله - من بدايته لنهايته - على يد قرّاء مستأجرين.



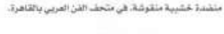
إبريق نحاسي وطست للغسيل وصينية قهوة مع الفناجين

وسواءٌ أكان برنامج الاحتفال بالزواج مقدسًا أو خليعًا، فلا يجرؤ أحد من المدعوين أن يرفض المجيء للمشاركة في هذا الحفل الصاخب. • في اليوم الذي يسبق دخولها إلىٰ بيت زوجها، تذهب العروس إلى الحمّام العام بصحبة بعض قريباتها وصديقاتها من الحريم. وبصفة عامة، يسلك الموكب طريقًا غير مباشر، وذلك من أجل إشهار الزواج في أكبر نطاق ممكن. وعند مغادرتها المنزل، تسير العروس في الجهة اليمنىٰ.

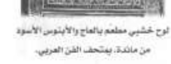
---

(١) هذا تعبير ألماني (المترجم والمراجع).





منضدة خشبية منقوشة، في متحف الفن العربي بالقاهرة.



لوح خشبي مطعم بالعاج والأبنوس الأسود من مائدة، بمتحف الفن العربي.

وفي القاهرة، تسير العروس تحت ظُلّة من الحرير يحملها أربعة رجال، ومعها اثنتان من قريباتها على كلا جانبيْها. تمشي البنات غير المتزوجات أمامها، وتسبقهن السيدات المتزوجات. وأمام الموكب وحوله يسير القليل من الآلاتية (العازفين) بالطبول والمزامير.

وترتدي العروس نوعًا من التيجان الكرتونية أو قبعة، وتكون محجوبة تمامًا عن عيون الناظرين من المارة بشال كشميري يوضع على تاجها ويتدلى لتغطية الجسم بأكمله، ولكن توضع بعض الزينة والنقوش الجميلة على الرأس من خارج الشال. وترتدي النسوة الأخريات أفضل ملابسهن للخروج. ومع ذلك، فإنْ كانت العروس من الطبقة العليا أو الغنية - وكذلك إن كانت غالبًا من الطبقة الوسطى - تمتطي السيدات ظهور الحمير ذوي البرادع العالية، دون اصطحاب الموسيقى أو نصب الظُلّة. وتتميز العروس فقط بالشال الكشميري بدلًا من استعمال الغطاء الحريري الأسود. وأحيانًا يتقدم الموكبَ أحدُ العبيد الخصيان (الأغوات) راكبًا حمارًا.

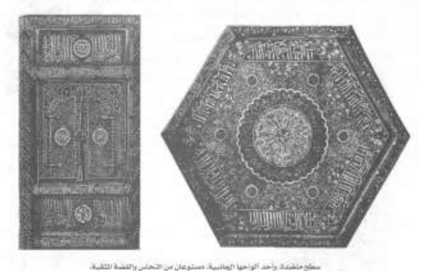
ويتم إعداد وليمة في الحَمَّام بعد إجراء عمليات الاستحمام الاعتيادية وغيرها. وعادةً ما تُجرى التسلية في هذا الاحتفال بالمغنيات، وتشترك صديقات العروس، بعد عودتها إلىٰ بيتها بالطريقة نفسها، في الاستمتاع معها بالشكل ذاته، ثم تصبغن يديْها وقدميْها بالحناء، ويزينّ عينيها بالكحل، ويعطينها مبالغ قليلة من المال كهدايا... ثم يغادرن بيتها.

«ومن السُّنَّة أن تغسل العروسُ قدميْها في إناء نظيف، ثم يُرش ماء الغسل في أركان الغرفة حيث يجلب البركة إلىٰ المكان. كذلك عليها أن تجلو وجهها وتضع أفضل مساحيق الزينة عليه، وتجمّل عينيها بالكحل. وعليها أن تتجنب في الأسبوع الأول أكْلَ أي طعام يحتوي علىٰ الخردل (الثوم) والخل والتفاح العَطِن».

«وفي اليوم التالي، تذهب العروس إلىٰ بيت الزوجية بنفس أسلوب خروجها للحمام، أو بالمزيد من البهجة والصخب. ففي القاهرة، يسير موكب العروس التي تنتمي للطبقة العليا بأسلوب عرض فريد. يتقدم الموكب عادةً المهرجون والألاتية، وسَقّاء يحمل معه قربة من جلد الماعز مملوءة بالرمال والماء، ووزنها ثقيل جدًّا، وغالبًا ما يكون قد حمَلَها قبل سير الموكب بعدة ساعات، وخلال سيره في الموكب أيضًا، وذلك لمجرد إمتاع الحاضرين والناظرين بهذا العمل البطولي الدالّ علىٰ القوة. ثم يتبع ذلك موكبٌ تسيرُ فيه العديد من المركبات المزخرفة المفتوحة (يتخلله جماعات من الراقصين والراقصات والحواة وما إلىٰ ذلك)، ويداخل كلٍّ من تلك العربات عمّال مهنةٍ أو حرفة معينة منهمكون في عمل أشغالهم المعتادة، أو شخص واحد منهم يحيط به رفاقه. وعلىٰ سبيل المثال: قَهْوَجي مع مساعديه وبحوزتهم الأكواب والبرّاد والنار، يصنعون القهوة للحاضرين والمشاهدين؛ وفي مثالٍ ثانٍ: صانعو المربّىٰ؛ وفي مثال ثالث: الفَطاطرية؛ وفي مثال رابع: صانعو الشُّرُط الحريرية؛ وفي مثال خامس: ناسج الحرير ومعه نوله؛ وفي مثال سادس: مبيِّضو الأواني النحاسية يمارسون عملهم؛ وفي مثال سابع: النقاشون يطلون باللون الأبيض - مرة بعد أخرىٰ - حائطًا في طريق الموكب. وباختصار، لكل صناعة أو حرفة تقريبًا ممثلها الخاص بها راكبًا في عربة منفردة.

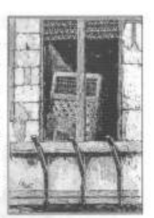
منضدة مطرزة بالفضة والنحاس المثقب
من القرن الرابع عشر، في متحف الفن العربي بالقاهرة

ويصف الجبرتي موكبًا من هذا النوع، كان فيه حوالي ٧٠ نوعًا من الحرف والنشاطات التجارية المختلفة، وكانت كل جماعة من الصناع تركب عربة مستقلة، وذلك إضافةً إلىٰ المهرجين والمصارعين والراقصات وغيرهم، يتبعهم العديد من الضباط والعبيد الخصيان (الأغوات) التابعين لعائلة العروس، وسيدات الحريم مع رفاقهن، ثم العروس في مركبة أوروبية، وفرقة من جند المماليك بأسلحتهم، وفرقة موسيقية تركية. لقد كان ذلك «موكبًا من نوعٍ لم يرها الناس من قبل».



سطح منضدة وأحد الواحها الجانبية، مصنوعان من النحاس والفضة المنقبة، مكتوب عليها بخط النسخ والخط الكوفي اسم ولقب السلطان المملوكي الملك الناصر بن قلاوون. وقد صنعت في القرن الرابع عشر الميلادي. محفوظة في متحف الفن العربي بالقاهرة

«بعد وصول العروس ومرافقيها إلىٰ بيتها، تجلس لتناول الطعام. وحتىٰ الآن لم يرها العريس بعد، حيث ذهب بالفعل إلىٰ الحَمّام. وعند حلول الليل، يذهب في موكب يصطحبه فيه عدد من أصدقائه إلىٰ المسجد ليؤدوا صلاة العشاء. ويرافق العريسَ الموسيقيون والمطربون، أو مداحو النبي الذين ينشدون مدائحهم بمصاحبة العزف علىٰ العود، ورجال يحملون المشاعل – عصا في طرفها هيكل أسطواني من الحديد، يُملأ بخشب سريع الاشتعال – ونفس الشيء عند عودته، ويحمل معظم الحاضرين الآخرين شموعًا مضاءة وباقاتٍ من الورود. وما إن يعود العريس إلىٰ بيته، حتىٰ يترك أصدقاءه في الغرفة السفلية ويصعد إلىٰ عروسه، التي يجدها جالسة مرتدية شالًا مسدلًا علىٰ رأسها بحيث يحجب وجهها تمامًا، ومعها امرأة أو امرأتان.



نافذة ومصراعاها

يغري العريس هذه المرأة – أو المرأتين – بالخروج بعد منحها هدية صغيرة، ثم يعطي عروسه هدية من المال (ثمنًا للكشف عن وجهها)، وبمجرد إزالة الغطاء (يقول وهو يزيحه: بسم الله الرحمن الرحيم) يشاهدها – غالبًا – لأول مرة. وبمناسبة هذه الزيارة الأولى، يوصيه أقرباؤه بتعطير نفسه، وأن يرش بعض السكر واللوز على رأس عروسه، وكذلك على رأس كل امرأة حاضرة معها في «تلك اللحظة الرومانسية». كذلك قبل دخوله عليها يجب أن يصلي ركعتين، وكذلك هي إن كانت قادرة على ذلك، ثم يضع يده على رأسها وعلى جبهتها، ثم «يأخذ بناصيتها»، ويقول: «اللهم بارك لي في زوجتي، وبارك لزوجتي فيَّ. اللهم امنحني ذريةً منها، وامنحها ذريةً مني. اللهم اجمع شملنا في سعادة كما جمَعْتَ بيننا في هذه اللحظة، وفرّق بيننا في سعادة إن أردت لنا الفراق».[1]



خزانة بألواح مزخرفة

هذا، وهناك احتفالات شعبية تكفي لإرضاء أهل اللهو، حتى لو أن مصريًا وأصدقاءه لم يستطيعوا إقامة حفلات زواج لعمل ما يشتهونه من الصخب واللهو، وذلك على امتداد العام؛ فدائمًا ما يكون هناك احتفال يقام في القاهرة، وما إن تتعافى – بعد عذاب – من آثار أحدها، مثل «المولد»، حتى يتلوه احتفالٌ آخر يسبب لك اضطرابًا أكثر من الأول. موالد المسلمين ليست احتفالات ليوم واحد – مثل أعياد الكنيسة المسيحية – بل قد تمتد لثلاثة أو أربعة أو حتى تسعة أيام. ونادرًا ما يمر أسبوع على امتداد السنة دون أن يخلو من عيد أو احتفال يتضمن بعض التسلية والبهجة، من وليٍّ يُحتفل به، أو إحياء لذكرى ما لتظل باقية في أذهان الناس، أو بعض الشعائر التي يجب تأديتها.

وفي شهر محرم المقدّس – أول شهور السنة الهجرية – تعتبر العشرة أيام الأولى مقدسة على نحو خاص؛ حيث يجب فيها أداء الصدقات والزكاة التي نصّ عليها

(1) Lane : " Arabian Society in the Middle Ages ", pages 223-37، إدوارد وليم لين، «المجتمع العربي في العصور الوسطى»، ص٢٢٣-٢٣٧.

القرآن. ولا يُعدّ أداء الزكاة في حد ذاته عملاً مثيرًا، لكن سواءٌ أتمّت تأدية الفرض أم لا، فإنه يعتبر علامة بارزة لكل أنواع العادات والمعتقدات الخرافية المثيرة للاهتمام.(١)



يحمل بعض الميسرين من أهل الطبقة الوسطىٰ أطفالهم في الشوارع، ويُلِحون علىٰ المارة بطلب الصدقات منهم، ثم يلقون العملات المعدنية التي حصلوا عليها بهذه الطريقة في قلانس الأطفال، حيث يعتبرون ذلك تعويذة أو وسيلة للوقاية من سوء الحظ. حتىٰ الجن – لو كانوا صالحين – يجيئون ليدفعوا الصدقات في هذه الأيام المباركة؛ فقد يدق شبح – علىٰ هيئة سقّاء – بابك ذات ليلة، ويسألك إن كان من الممكن أن يُفرغ قربته المحمولة علىٰ ظهره. ولأنك تعرف أنه لا يوجد علىٰ الإطلاق سقّاء آدمي يطوف في الشوارع ويدق علىٰ الأبواب بالليل، فستدرك أن هذا الزائر أحد الجان، وستسأله أن يفرغ قربته داخل زير الماء – ويا للمفاجأة السعيدة – ستجد أن الزير يفيض بِقِطَع من الذهب. وربما يتوقف أمام بابك بغل، عليه سرجٌ وخُرجان ثقيلان، ولا تعلوهما إلا جمجمة، وأنت تتوقع مجيئه، فتزيل الجمجمة بلا تردد، وتُفرغ الخُرجَيْن من محتوياتهما (التي ستتحول إلىٰ عملات ذهبية)، وتضع مكانها التبن، ثم تصرف الحيوان قائلاً: «انصرفوا في سلام يا مباركين»! ومنذ عهد مضىٰ، لو كنتَ قد اشتريتَ أي شيء من أحد الأماكن في حي الصليبة، لاسيما من أمام أحد التوابيت الحجرية القديمة الكائنة بالقرب من قلعة الكبش، فسرعان ما يتحول ما اشتريته إلىٰ ذهب، حتىٰ لو كان هذا الشيء مجرد حفنة من البلح، حيث إن ذلك المكان كان نقطة يتجمع فيها الجن

نارجيلة

---

(١) الزكاة فريضة علىٰ كل مسلم، تضمن التكافل الاجتماعي والترابط بين طبقات المجتمع الغنية والفقيرة، وهي فريضة تماثل دفع عُشر الإيراد السنوي للفرد المسيحي Lithe للكنيسة ورجالها. ولهذا فليست الزكاة بدعة أو خرافة، بل هي نظام سماوي يأخذ به علماء الاقتصاد في العالم (ويستر - المورد) (المراجع).

الصالح في الأيام العشرة الأولى من شهر محرّم. لكن لم يعد الجن يلتقون الآن في الصلية، وانتقل التابوت إلى المتحف البريطاني، حيث لم تَعُدْ تحدث هذه المعجزات لا للزوار ولا للمسئولين عن الحفاظ على هذا الأثر القيم.

ويُعد اليوم العاشر من المحرم أكثر الأيام قدسية على الإطلاق، حيث استُشهد فيه سيدنا الإمام الحسين في واقعة كربلاء. وفي الواقع، تعتبر بلاد فارس هي البلاد التي يُحتفل فيها بهذا اليوم بأكثر مظاهر القدسية، ويجري تمثيل المسرحية العاطفية: «الحسن والحسين» أمام الجمهور المتعاطف مع الحدث.

وفي القاهرة أيضًا، يُحيي الناس ذكرى الإمام الشهيد؛ فيأكلون فطائر العاشوراء احتفالًا به، ويحتشدون للذهاب إلى مسجد الحسنين[1] حيث دُفنت رأس الشهيد الصالح، ويثنون عليه ويدعون له داخل الضريح، ويشاهدون أداء الدراويش الذين يصرخون ويدورون حول أنفسهم ويأكلون الزجاج والنار، ويهزّون رؤوسهم يمينًا ويسارًا وهم يذكرون اسم الله. وتختار النساء خاصة تلك الليلة بالذات ليزرن المسجد:

يزرن الشهيد المبارك السعيد — كي يلتمسن شفاء المريض

ويجري التهامس بالفضائح عن بعض الرجال الذين يذهبون هناك أساسًا من أجل لذة التدافع السريع وسط التجمعات الكثيفة من النساء.



ركن في أحد الشوارع

(١) اعتاد الكثير من الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر تسمية مسجد الإمام الحسين باسم مسجد "الحسنين"، فأبقيناه في الترجمة كما هو. (المترجم)

وفي الشهر الثاني من العام الهجري، تعود قافلة الحج المصرية من مكة، ويخرج الناس في رحلة تستغرق يومين، أو على الأقل بمقدار ما يصلون إلى «بركة الحاج»[1] ليقابلوا أقرباءهم العائدين. وتتحول مراسم الترحيب بالحجاج إلى عطلة، وقد تصير شبه نزهة، على الرغم من أنه قد يعكر صَفو هذه المتعة صراخ وعويل أولئك الذين علموا أن أقرباءهم الحجاج قد قضوا نحبهم بسبب مشقة الرحلة وقسوة الطريق. ومع ذلك، فأولئك الذين عادوا بسلام يُبهجون قلوب أصدقائهم بالهدايا التي جلبوها معهم، مثل زجاجات زرقاء مقفلة مملوءة بماء زمزم المبارك، تلك البئر التي نبعت في الصحراء من أجل هاجَر وابنها إسماعيل عند احتياجهما للماء؛ وكذلك تراب من قبر النبي في المدينة، وقِطَع من كسوة الكعبة القديمة، والعديد من الأشياء المقدسة الأخرى. وفي المقابل، يكون هؤلاء الأصدقاء قد أعدوا منزل الحاج، ودهنوه بخطوط من الألوان البيضاء والحمراء، وزينوه بصور مبهجة خضراء زاهية تمثل الأشجار والجمال والكائنات الطبيعية الأخرى، أو ربما يعلقون جسمًا محنطًا لفرس نهر صغير على الباب، ليدل على أن من يسكن بداخل المنزل هو سيدٌ ذو شأن، وقد سافر وعاد سالمًا.



حشد في القاهرة انتظاراً لمرور موكب بأحد الاحتفالات

الشهر الثالث من السنة الهجرية - ربيع الأول - له أيضا مناسبته الخاصة به، وهو الاحتفال بيوم ميلاد النبي ، فيُعقد حفل «مولد النبي». وفي السنوات الأخيرة، ومن فترة ليست بعيدة، كان يُحتفل بهذه المناسبة الشهيرة في الأرض الخلاء المسمّاة بالأزبكية، والتي تصير بحيرة في موسم فيضان النيل، ثم تتحول إلى قطعة أرض واسعة صالحة للاستخدام عندما ينحسر النيل إلى ضفتيه بعد انتهاء الفيضان.

كانت الخيام تُنصب، ويجلس بداخلها الدراويش يتلون الذكر (الذي سنتكلم عنه أكثر فيما بعد)، ويزينون مجالسهم بأغاني المديح للنبي محمد

(١) في منطقة عزبة النخل والمرج بشمال القاهرة. (المترجم).

المصاحَبة بلُغة الغزل الصوفي، التي تشبه أنشودة النبي سليمان. ويجلس الشعراء على المقاعد، يتلون للجمهور الحكايات المشهورة لعنترة وأبي زيد الهلالي والأميرة ذات الهمة. ويُجهد السحرة والمشعوذون والمهرجون والبهلوانات والراقصون على الحبال أنفسهم لإسعاد الحاضرين والمتفرجين، وينجذب الصغار والكبار للمتع البسيطة التي تقدمها الأراجيح والدّوامات الدورانية. وفي النهاية، يمتطي شيخ الدوسّة حصانه بطريقة غير مؤذية ليدوس على أجسام ستين مريدًا متعصبًا ممدّدين على الأرض.

تغيرت كل هذه الأمور اليوم نوعًا ما، وتحولت الأزبكية إلى حديقة على الطراز الإيطالي، أو بالأحرى إلى حديقة تشبه حديقة «سان ستيفن» في دبلن، ويشغلها القليل من المتنزهين الذين يعلو الغبار مظهرهم، والذين يذهبون لسماع الفرقة الموسيقية التي تعزف موسيقى فالس فالدتوفل Waldteufel's waltzes.

استمر الاحتفال بمولد النبي في مكان آخر، وبشكل أقل متعة، واختفت الخيام تقريبًا، وأصبح الشعراء على وشك الانقراض من المجتمع، وألغى الخديوي حفل الدوسة الهمجي إلغاءً تامًّا تقريبًا. ومع ذلك، لا تزال التسلية مستمرة إلى حدٍّ بعيد كما تعوَّد الناس عليها منذ خمسين عامًا، ولا يزال مولد النبي يشكل فترة احتفال كبير لأهل القاهرة. وسرعان ما ستبدأ احتفالات أخرى بمجرد انتهاء المولد. لن أذكر شيئا عن الاحتفالات الصغرى المرتبطة بإحياء ذكرى الأموات، مثل ذلك المولد في بولاق، فإن الاحتفال الكبير بذكرى الحسين يكتسح بسرعة آثار الاحتفال بالمولد النبوي، ويضارعه – إن لم يتفوق عليه – في مساحة الشوارع التي يشغلها الاحتفال، وفي مرح الناس المحتفلين به.

وحيث إن الحسين – الذي يقام هذا الاحتفال على شرفه (ويكوّن اسمه واسم أخيه الأكبر «الحسن» اسم «الحسنين») – اسمٌ لأحد أولياء الفرس (العجم) المنشقين، وكان السبب في ظهور كثير من الانشقاقات في العالم الإسلامي أكثر من أي شخص آخر، وذلك دون قصد منه شخصيا(1)... فمن الغريب أن أهل القاهرة – ومعظمهم من أهل السُّنّة الرشيدة – يهتمون بهذا الاحتفال ويولونه ذلك الاحترام والتبجيل. ولكن الحقيقة أنهم يتذرعون بأية حجة تمنحهم عطلة. وفوق هذا، ألم يكن سيدنا الحسين حفيدَ النبي؟ وهل يليق أن يُترك لأولئك الشيعة الملاحدة الكلاب؟

---

(1) See S.Lane-Poole : " Studies in a mosque" (1883), chap vii., "The Persian Miracle Play".

انظر: ستانلي لين بول، «دراسات في مسجد» ١٨٨٣، (الفصل السابع)، ومسرحية «المعجزة الفارسية».

ومهما يكن الجدل حول الحسين، فإنه بلا شك ينال قدرًا كبيرًا من التقدير في القاهرة، ويعتبر الاحتفال بمولده من المشاهد التي يُسر بها السائح الأوروبي كثيرًا. وفي الواقع، لا شيء أبهج وأروع من تلك المشاهد التي نشاهدها في شوارع وأسواق القاهرة في الليلة الكبرى لمولد الحسين. ففي هذا العام (١٨٨٣)، لوحظ أن الاحتفال كان شديد البهجة، على الرغم من الإحساس بالمرارة الذي سببه الحرب، ووجود حامية عسكرية إنجليزية. والشيء الغريب حقًا، أنني عندما كنت واقفًا - إذ كان الركوب مستحيلًا - وسط الجموع الغفيرة المحتشدة في شارع الموسكي، وجاهدتُ



امرأة غير منقبة



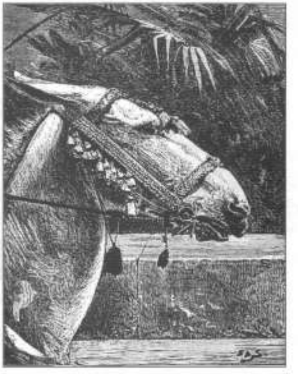


امرأة منقبة

لأشق طريقي إلى ذلك الزقاق الذي يؤدي إلى بيت القاضي ومسجد الحسين، لم ألاحظ هناك أية علامة على التعصب أو الأحاسيس العدوانية. والحقيقة، أن مثل هذا الحشد الطيب ليس له نظير. لقد كان أقل ما يمكن أن نتوقعه أن يحدث شيء من الاحتجاج على الأوروبيين الذين كانوا يتجولون في الطرقات البهيجة المزدانة بالأنوار.. لكن بدلًا من ذلك، كنت ترى النساء الإنجليزيات يَرْتَدْنَ الأسواق، والضباط والسائحين الإنجليز يختلطون بالناس، بل بلغوا في بعض الأحيان أبواب المسجد المبارك نفسه، دون أن يمسهم أحد بسوء، أو يبدي لهم أي مضايقة أو حتى ملاحظة عابرة.

وفي بعض الأحيان، قد تشاهد سيدة مصرية وهي تدعو أحد المسيحيين في شيء من التهكم والسخرية طالبة منه أن «يُصلي على النبي»، ولا تندهش هذه السيدة حينما يحييها المسيحي بقوله: «اللهم صَلِّ عليه». حتى وإن لم يعرف الإجابة الصحيحة، فلن ينتج عن ذلك ضرر على الإطلاق.

إن الطبيعة السمحة العامة التي ألهمها هذا الاحتفال للناس، قد أنستهم ذكريات الحرب والتعصب الديني. وقد يكون من الواجب عليّ أن أؤكد أنه لا يوجد في الشعب الإنجليزي من يستطيع أن يسلك هذا السلوك مع وجود أقلية غير مرغوب فيها داخل بلده.

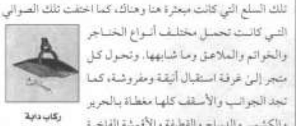


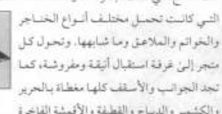
دابة مُعدّة للركوب في القاهرة

وفي الواقع، إن قوة شرطة الدرك الجديدة لم يكن عليها فعلُ أي شيء. وحين دخلتُ في أحد أزقة خان الخليلي الكبير – أو البازار التركي الذي يواجه مسجد الحسين – كان المنظر يشبه إحدى صُوَر كتاب «ألف ليلة وليلة»؛ فقد كان البازار الطويل مضاءً بالثريّات وبالشموع والمصابيح الملونة التي لا حصر لها، ومغطًّى بظُلَلٍ مصنوعة من الشيلان والأقمشة المزخرفة المشتراة من المحلات بأسفلها، هذا على حين يستطيع المرء أن يتبين من خلال قطع الظُّلَل، المنازلَ المعتمة ذات الضوء الخافت فوقها، فيشكل ذلك تناقضًا غريبًا بينها وبين البهجة والأنوار الموجودة في أسفلها.



صبي حمّار





ركاب دابة

أما المحال التجارية فقد تغير طابعُها تمامًا، فلم تعد تُرى هناك تلك السلع التي كانت مبعثرة هنا وهناك، كما اختفت تلك الصواني التي كانت تحمل مختلف أنواع الخناجر والخواتم والملاعق وما شابهها. وتحول كل متجر إلىٰ غرفة استقبال أنيقة ومفروشة، كما تجد الجوانب والأسقف كلها مغطاة بالحرير والكشمير والديباج والقطيفة والأقمشة الفاخرة المطرزة التي لا نظير لها، والتي لم يكن المشتري الفضولي ليراها في أي يوم من أيام المناسبات العادية. ولقد شكلت جوانب البازار كتلة واحدة متوهجة طويلة من الذهب والضوء والألوان البراقة. وداخل كل متجر، تجد صاحبه جالسًا يحيط به أصدقاؤه علىٰ شكل نصف دائرة، يرتدون جميعًا أفخر ثيابهم، وهم غايةٌ في النظافة ويَلْزَمون جانب الأدب، حيث إن التاجر القاهري يظهر دائمًا بمظهر الرجل الكريم الأصل، حتىٰ عندما يغشك بطريقة تثير غضبك.

إن ذلك الرجل الذي كنتَ تساومه بشدة وحرارة في الصباح، سوف يدعوك الآن في أدب جم إلىٰ أن تجلس وتدخن معه، وستجد بجانبه منضدة صغيرة من العاج أو الصدف، يأخذ من فوقها زجاجة تحتوي علىٰ شراب حلو الطعم بنكهة اللوز أو الورد، ويقدّم إليك منها في لطف زائد وأدب جم. وتستطيع - وأنت جالس مع صديقك في هذه الفجوة المزدانة بالزخارف المعلقة - أن تشاهد تلك الجماهير المحتشدة وهي تندفع وتتزاحم، حتىٰ يخيل إليك أن سكان القاهرة بأسْرِهم قد تجمعوا في ذلك المكان، وارتدىٰ كل واحد منهم أحسنَ ما عنده من ثياب، وظهرت



سرج حمار

عليه سيماء الفرح والبهجة. وفجأة، تسمع أنغام المزمار وقرع الطبول، وترىٰ جماعة من الدراويش تغني بمدح الرسول والحسين وهي تخترق الجماهير المحتشدة والمبتهجة. وتجد علىٰ يسارك

دكّانًا صغيرًا جلس فيه أحد القُصّاص يروي بطريقة مسرحية قصة محببة إلى حشد المستمعين الملتفين حوله، مأخوذين بسحر القصة وروعتها. وبالقرب منه، ترى أحد رجال الدين وقد انهمك في التلويح برأسه بوقار وبشكل لا ينقطع، مرددًا اسم «الله» أو بعض الآيات القرآنية المؤثرة. وفي مكان آخر، تشاهد جماعة من الدراويش يرددون «الذكر»، أو بعض العبّاد المؤمنين يقرءون القرآن بأكمله. ومن المؤكد أن هذا المشهد كله يبدو خياليًا أو أشبه بالحكايات الخرافية، فإننا بعد رؤيتنا له نستطيع أن نتصور أنفسنا في بلاد الجن، أو في مدينة النحاس، لا في مدينة القاهرة أو في القرن التاسع عشر.



سايس (تابع يعدو أمام العربات)

وفي خارج الخان، تتدفق حشود كثيرة من الناس إلى مسجد الحسين، حيث تحدث مشاهد مروّعة يفعلها الدراويش، وحيث يقوم كل فرد بالطواف حول ضريح الحسين.

وعلى مقربة من ذلك، نرى بعض الرجال يدخلون أحد السرادقات، فتبعناهم، فوجدنا في الداخل بعض الحواة يمارسون ألعابهم، وكذلك حصانًا صغيرًا يقوم ببعض الحركات، ومهرّجًا يقوم بتقليد بطولات الرياضيين في صورة هزلية دائمًا ما تثير الضحك لدى كل من يراها. وفي سرادق آخر، نرى «قراقوز» يقوم بعمل ألغاز وخدع. إن هذا القراقوز المصري يؤدي عمله بشكل أفضل مما يؤديه مثيله الإنجليزي الذي يشبهه تقريبًا، ولكنه لا يحسن اختيار كلماته، ولا يراعي سلوكه التمثيلي. ولحسن الحظ، فقد غادرنا المكان بعد قليل؛ حيث بدأت النكات ترتدي ثوب الخلاعة والمجون، وحيث بدأت الحشرات القاذرة نشاطها بشكل غير عادي. ومع ذلك، فإن الطبقات الدنيا لا تلقي بالًا لهذه الأضرار؛ فهم يضحكون حتى تكاد جوانبهم تنفجر من حركات القراقوز وفكاهاته، ولا

يبالون بما يرونه، ولا إلى أين يذهبون، ولا بمن يقابلونه من الناس. ومهما كانت همومهم وفقرهم، فهم في هذه الليلة المباركة لمولد الحسين يكونون سعداء إلى أبعد الحدود.



حفل زفاف بلدي

ومن مميزات الشعب المصري، أنه يمكن تسليته بمنتهى السهولة؛ فإن الضحك والسرور ينبعثان فيه من أبسط المناظر أو أقدم الفكاهات. ويكفي أن الأوروبي المتعالي يأسف على أنفته وأسلوب حياته الصارم عندما يرى كيف تسري البهجة في قلوب هؤلاء القوم البسطاء من أبسط الحوافز.

وهناك بالتأكيد العديد من مثل هذه المناسبات، وإن لم تكن متنوعة أو مثيرة إلى حد كبير؛ إذ يتبع مولدَ الحسين العديدُ من موالد الصالحين، سواءً أكانوا سيدات مثل «سيدتنا زينب» أو من أهل العلوم الدينية مثل «الإمام الشافعي» الشهير، الذي يوضع في المركب المنصوب على قبة مسجده المصنوعة من الرصاص كميةٌ من الحبوب لإطعام الطيور على امتداد شهر شعبان. ثم هناك

الاحتفال بالإسراء والمعراج، وهي الليلة التي رأى محمد فيها الجنة، حيث رأى أنه قد ركب على ظهر كائن خرافي اسمه البُراق، ثم حوّل صحابته الرؤيا المنامية إلى صعود حقيقي بالجسد إلى السماء.[1] وهناك الصوم الكبير في شهر رمضان الذي سنتناوله عند مناقشة الدين وأثره لدى المصريين المحدثين. وبعد انتهاء شهر الصيام، يجيء «العيد الصغير» عندما يفرح كل مسلم أن الصيام المكفِّر للذنوب قد انتهىٰ وتمّ، ويصيح مع الشاعر الخليفة عبد الله بن المعتز[2]:

قوموا إلىٰ لذاتكم يا نيام	ونبِّهوا العودَ وصفُّوا المدام
هذا هلالُ الفطرِ قد جاءنا	بمنجلٍ يحصد شهر الصيام[3]
تَفِرُّ الثُّرَيَّا من السماء	تفتح فاها كشرٍ و يبتلع الكُروم

عندئذٍ يرتدي كل فرد أفضل ما عنده من الثياب، أو ملابس جديدة تمامًا إن استطاع، ويستعد ليمتع نفسه بعد الحرمان الذي لاقاه في الصيام. يقبِّل الأصدقاءُ بعضهم بعضًا في الشارع، ويؤدي كل الناس صلاة الشكر – صلاة العيد – في المسجد، ويتلقىٰ الخدم البقشيش (العيدية) من سادتهم السابقين والحاليين، وتُلتَهم الفطائر والسمك المملّح في كل منزل، وتزور الأسر بكاملها مقابر أقربائهم، ويقطعون جريد النخل الأخضر وينثرونه علىٰ المقابر، ويوزعون الريحان طيب الرائحة علىٰ كل الحاضرين حول المقبرة، هذا علىٰ حين تدل الأراجيح ولُعب الدوّامة الدورانية عند مداخل القرافة[4] علىٰ أنه حتىٰ زيارة المقابر تتحول لوسيلة للترفيه والمتعة.

عازفو الربابة (أو الكمنجة)
الذين يرافقون المنشدين أو القصاصين

---

(١) من الثابت في العقيدة الإسلامية أن النبي ﷺ أُسري بجسده، ثم عرج إلى السماء بجسده أيضًا، ورجع إلى مكة قبل أن يبرد فراشه، وهذا بأمر الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. ولكنّ فهم الأوربيين مقيدٌ بالظواهر الطبيعية والعقلية الجامدة، فلا يذوقون برد الإيمان، خاصة المتعصبين من المستشرقين. (المترجم)

(٢) هو الشاعر الخليفة العباسي ابن المعتز. والصواب إن الأبيات للشاعر مؤيد الدين الطُّغرائي. (المترجم)

(٣) ترجمت هذين البيتين بالرجوع إلى كتاب حلبة الكميت، إصدار سلسلة الذخائر رقم ٢٧، ص ٢١٧. (المترجم)

(٤) كلمة «قرافة» - أي جَبَّانة - متعارف عليها بهذا اللفظ لدىٰ علماء الدين والآثار الإسلامية والتراث. (المترجم)

بعد ذلك بفترة وجيزة، يحين الوقت لموكب الكسوة - كسوة الكعبة الشريفة - التي تُحمل في موكب مقدس مهيب، وفي حضور كل رجال القضاء والجيش، من القلعة حتى مسجد الحسين، حيث تكون قد اكتملت خياطتها وأصبحت جاهزة ليأخذها الحجاج معهم إلى مكة كي تعلّق على الكعبة الشريفة. وبعد ذلك مباشرةً، يتبع الموكبَ موكبٌ آخر، وهو موكب المَحْمَل الذي يُحمل، كتابوت العهد عند اليهود، أمام قافلة الحج إلى مكة، ثم يعود مرة أخرى بعد انتهاء موسم الحج. ويعد المحمل نوعا من الهودج - هيكل مربع من الخشب وقمته هرمية الشكل - مغطى بقماش مطرز وكتابات مصنوعة من الذهب، ويكون الطغراء - أو الحروف الأولى من اسم السلطان - مكتوبًا بشكل متشابك على قمة الهودج، مع منظر للحرم المكي في المقدمة. ولا يحتوي المحمل بداخله إلا على نسختين من القرآن مربوطتين به من خارجه.

ترجع أصول المحمل إلى الملكة الجميلة «شجرة الدر» زوجة مؤسس سلالة المماليك الأتراك التي أدت فريضة الحج إلى مكة في محفّة بهذا الشكل في العام ١٢٧٢ م. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، صارت تُرسل محفةٌ مع قافلة الحج المصرية كشعار للملَكية. لكن ليس هناك شكٌ في أن للمحمل أصلًا أقدم من هذا، إذ ربما يكون بقيةً متوارثة للدلالة على المركب المقدس الذي كان يُستخدم في المعابد المصرية القديمة، أو قد يمثل المعايير المثيرة للفخر لدى بعض القبائل العربية.


شرفة

لن يسمح لنا الوقت بالحديث عن العيد الكبير، الذي يأتي في العاشر من آخر شهر من العام الهجري؛ أو عن مظاهر الاحتفال بـ«شم النسيم»، عندما تهب النسمات الساخنة لرياح الخماسين، أو عن «ليلة النقطة» عندما تقع نقطة ماء سحرية في النيل فتجعله يبدأ في الارتفاع، أو عندما يضع الناس قطعًا من الكعك على أسطح منازلهم ثم يفحصونها في الصباح، حيث إن القطعة المفتتة تعني حدوث وفاة في العائلة في غضون عام؛ أو الاحتفالات المبهجة التي ترافق فتح الخليج، عندما يكون النيل قد بلغ أقصى ارتفاع له. كل هذه الاحتفالات وغيرها تُعد وسيلة للترفيه والمتعة، ولكن غلطة القاهريّ وحدَه إن لم يمتع نفسه بها.

إن الميزة المثيرة للاهتمام بشأن هذه الأعياد المتعددة، أنها ليست متوافقة على الإطلاق مع

الروح الصارمة للدين المحمّدي؛ فإن العديد منها ليست محمّدية الأصل، بل تعود أصولها بوضوح إلىٰ العادات والشعائر الفرعونية. إن الإسلام - كما علّمه محمد - لا يؤيد مثل هذه المعتقدات الخرافية، لكن الطبيعة البشرية تتغلب علىٰ المعتقدات بشكل أو بآخر؛ إذ يجب أن يرفه الناس عن أنفسهم أحيانا علىٰ الرغم من تعاليم دينهم، وبالتالي – في نهاية الأمر – فإن الاحتفال الذي لا يمثل جزءًا من الدين، وكان في الواقع غير متلائم معه، قد أصبح بالنسبة للمصريين جزءًا عزيزًا وأساسيًّا في حياتهم.

ولقد لوحظ أن مباهج المصريين – سواء الديني منها أو الشعبي – هي مباهج ساكنة؛ فالمصري يتمتع بالنظر إلىٰ الراقصات دون أن يرقص.. ويستمع إلىٰ الموسيقىٰ دون أن يغني أو يعزف بنفسه؛ إذ سيتطلب ذلك الكثير من الجهد.. كما يشاهد الألعاب الرياضية، ولكنه لا يجرب أيًا من أعمال القوة العضلية بنفسه.. ويتجول في الشوارع المزدانة، ويستمع إلىٰ الذكر والقصص البطولية والعاطفية، لكنه يشرع في إنجاز شؤونه علىٰ مهل بقدر ما يستطيع. وإذا لعب ألعابًا، فهي ألعاب تتطلب الجلوس والراحة، مثل الشطرنج والطاولة والدومينو وأوراق اللعب (الكوتشينة) والمنقلة. أما الألعاب التي تتطلب جهدًا، مثل الكروكيت وكرة القدم أو حتىٰ تنس الطاولة، فهي تتخطىٰ طاقته. ولقد كان المصري في إحدىٰ الفترات في الماضي يصطاد الحيوانات والصقور، ولكنه الآن لا يعرف الرياضة أو نشاط الصيد وتعقب الفرائس. وأصبح رمي جريد النخل «عادة» قديمة. وباختصار، إن كل ما يقع في نطاق الرياضة والنشاط البدني، يُعدّ غريبًا علىٰ الطبيعة المتراخية والمسالمة للمصري. وإن كان مسلّي نفسه، فيجب أن يكون ذلك بأسلوب هادئ؛ ففي المناخ الحار لا يتحمس المرء للحركة. يقول الشاعر:

أرقدُ مسترخيًا علىٰ سُرُرٍ من الزنبق وزهور المُولِي
باللحلاوة؟.. حيث يهدهدنا الهواء الدافئ ويهبُّ بدَعَةٍ
وجفون عيناي نصف متسدلة في سكون
تحت سماءٍ مظلمة ومقدسة
وأشاهد النهرَ الطويل البرّاق يمشي الهوينا
ومياهَه تنبع من التلال الأرجوانية.

○○○

الفصل الثاني

أهل الريف



تُعتَبر مصر في المقام الأول بلدًا زراعيًّا؛ فثروتها تتمثل في محاصيلها، ونادرًا ما ينصرف اشتغال شعبها بالحرف والصناعات عن وظيفتهم الملائمة لهم، والأكثر إنتاجًا وربحًا. فأولئك الذين شاهدوا سهول أبيدوس الغنية، المعروفة باسم «مخزن حاصلات مصر»، أو حقول طيبة الخصبة، أو عبروا الحقول العريضة الخضراء المزدهرة في مصر السفلى، التي أُطلق عليها اسم الدلتا بسبب مظهرها المثلث، هم وحدهم الذين يمكن أن يدركوا مدى الإنتاجية الهائلة لتربة مصر.

يمكن بالإدارة الرشيدة زراعة ثلاثة محاصيل كل سنة في التربة الداكنة الخصبة. ولو كانت الأرض الزراعية في مصر موزعة على الناس بالتساوي، لتوفَّر لكل فرد غذاءٌ بتكلفة أيدٍ عاملة منخفضة نسبيًّا، ودون رأس مال تقريبًا . وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة أن حصيلة كل فدان لا تكفي فقط لدفع الضرائب والفوائد على رأس المال المقترض، ودعم صاحب الأرض، بل تسمح أيضًا بهامش أرباح ضخم. وحسب رأي مستر فيليرز ستيوارت – عضو البرلمان البريطاني، الذي عانى الكثير من المشاق في التعرف على الظروف الحقيقية للفلاحين وأعبائهم – فإن حصيلة آكر من الأرض[1] في مصر تزيد بمقدار الثلث على الأقل عما يغلّه الفلاح الإنجليزي من زراعته لأفضل الأراضي في بريطانيا العظمى، إذ أنّ نفقات الإيجار، وتكاليف العمالة في الأرض، والضرائب، وتكلفة المعيشة.. تصُبُّ كلُّها في صالح الفلاح المصري لدرجة كبيرة. وباستثناء الأمور التافهة نسبيًّا – ولو أنها تشكل مصدر ضيق مستمر كالملح والأغنام وضرائب جباية محصول البلح – فإن العبء الوحيد على المزارع هو ضريبة الأرض التي تشكل الإيجار، وهي بالتأكيد لن يزيد متوسطها عن ٣٠ أو ٣٥ شلنًا لكل آكر، في حين تساوي إنتاجية ذلك الآكر من ١٦ إلى ٢٥ جنيهًا سنويًّا.

(١) الآكر : مساحة من الأرض الزراعية تبلغ ٤٠٠٠ متر مربع، والفدان يبلغ ٤٢٠٠ متر مربع. (المترجم)

وليست هناك أمور مفروضة على الفلاح المصري، مثل ضرائب الدخل - ذات المعدَّل الرديء - ورسوم المنازل المسكونة، والضرائب العُشارية، أو أيٌّ من تلك الأعباء المرهقة التي يتكبدها الفلاح الإنجليزي، فلا يؤدي الفلاح المصري إلا ضريبة أرضه، و- إن كان يملك غنمًا أو نخيل بلح - ضرائبَ الغنم والبلح، وبأدائها يكون حرًّا في تكديس الأرباح المتحصِّلة من زراعته لأرضه الخصبة، والتي حصل عليها وادخرها بمنتهى السهولة والرخص.

ولكن هذا اليسر هو أصل مشكلة الفلاح المصري؛ فلقد كان من المفترض أن يكون وضع كل من يمتلك أرضًا زراعية في مصر وضعًا ماديًّا جيدًا.. لكن لسوء الحظ، هناك العديد من الأمور التي تعمل ضد هذه الظروف السعيدة المتكاملة. فالحقيقة أن الأرض يمكنها أن تنتج ثلاثة محاصيل في العام.. لكن لكي يحدث هذا، فإنها تحتاج إلى الري بالطرق العلمية؛ إذ تعتمد خصوبة أرض مصر كُليًّا على النيل. وقد شهد هيرودوت على ذلك منذ ما يقرب من عشرين قرنًا، حينما قال عن مصر إنها «هبة النيل»، كما قرأنا تلك العبارة في كل كتاب أُلِّف عن مصر حتى الآن. ونتيجة للأمطار الموسمية التي تهطل على جبال الحبشة، والتي يستقي منها الرافدُ المسمى «النيل الأزرق» مياهَهُ، يوزع النيل في فيضانه السنوي طبقة غليظة من التربة الطميية السوداء، التي حملها من الأراضي الاستوائية ونشرها على سطح الحقول في جانبَيْ مجراه. وهذه الرواسب الطميية هي التي تمد الأرض بخصوبتها التي لا نظير لها، والتي تُغني تمامًا عن الاحتياج للسماد، وحتى عن إراحة الأرض. وعندما تلمس المياهُ ومحلولها من الطمي والغرين الأرضَ، يمكن أن تُبذَر الحبوب مرةً ويعاد بذرها مرةً أخرى، ثم يُجرى جمع المحاصيل الوفيرة. لكن الفيضان في حد ذاته لن يمتد كثيرًا فيما وراء الأراضي المنخفضة في المناطق القريبة من ضفاف النهر. وبالتالي، فإن الأراضي المرتفعة ستظل صحراء قاحلةً وجدباء - ككل بقعة في مصر - ما لم يصل ماء النيل إليها لريِّها.

لذلك، فإن الوظيفة الأساسية للزراعة المصرية تتألف من زيادة مساحة الأرض المزروعة بالطرق الصناعية، وفي الوقت نفسه التحكُّم في اتجاه مسار مياه الفيضان. ويتم ذلك بشبكة من الترع التي تخترق البلد بأكمله، والتي تجعل صورته في الخرائط أشبه برقعة الشطرنج. وتُوجَّه مياه النيل أثناء الفيضان إلى هذه الترع، بدلًا من السماح لها بالانتشار على الحقول بشكل عشوائي، حيث من المحتمل حينئذٍ أن يُسبب اندفاعُها الجامح الكثيرَ من التلفيات بقدر ما تسببه من المنفعة في الري غير المتجانس للحقول. وتحتفظ السدود بالماء في الترع عندما يبدأ النيل في الانخفاض، فيُستخدم الماء المحتجَز بهذه الطريقة في الري لأطول وقت ممكن. ولكي يصل الماء إلى الأراضي العليا،

تُستعمل أنواع عديدة من المضخات وآلات الري، حيث تُرفع بها المياه من الترع الكبرى ذات المستوى المنخفض إلى القنوات العليا، التي - عن طريقها - توزَّع المياه على الحقول عبر الترع الضيقة. وتستعمل آلات الري أيضًا للحفاظ على مد الترع المنخفضة بالمياه عندما ينخفض النيل لمستوى أدنى من فتحاتها.

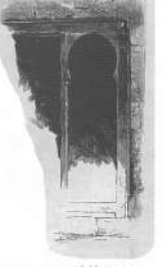

مسجد السلطان حسن: مشهد من الاتجاه الجنوبي

ولهذا، فمن الواضح أن الظروف الملائمة للفلاح المزارع، والتي ثبت إمكانية تحقيقها، تعتمد لدرجة كبيرة على إدارة نظام الري. وللأسف الشديد، لا يوجد في مصر نظام يستحق أن يُطلق عليه اسم «نظام الري»؛ فالترع أُنشئت بشكل سيئ، ومتصلة ببعضها بطريقة غير علمية. والمهندسون المختصُّون تنحصر مسئوليتهم في بيع المياه - التي تعد ملكية عامة لكل الناس وحقًّا ضروريًّا للحياة - لأعلى مُزايد، بحيث إن الغني يستطيع أن يحصل على كل المياه المخصصة للأراضي المجاورة برشوة المهندس، فيما تعاني أراضي الفقراء من بقائها جرداء، أو أن تظل - بالكاد - قادرة على إنتاج محصول هزيل عن طريق العمل الشاق المتواصل للفلاحين بآلات الري اليدوية غير الملائمة.

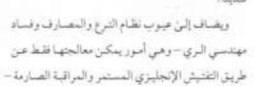
وأحد الخصائص السيئة لنظام الترع الحالي، هو الطريقة التي يُحافَظ بها على منسوب الترع؛ فهذه الطريقة تتم عن طريق السُّخرة (أو العمل القهري) التي تعني أن كل مالك أرض، حتى مستوى ملكية مائة آكر، ملزم بأن يحضُر بنفسه، أو يجلب شخصًا آخر بدلًا منه، للعمل لمدة شهرين أو ثلاثة في السنة لإصلاح الترع. ولا تُدفع أجرة للعامل بالسخرة، ولا يُقدَّم له طعام، فعلى أسرته أن تحضر طعامه من قريته، التي غالبًا ما تقع على بعد أميال عديدة، بل وعليه أن يُجهز معدّاته للعمل، التي - مع ذلك - لا تكون إلا من أصابع يديه العاريتين وقُفّة. فهو ينبش قاع الترعة ويملأ قفته منها، ثم يفرغ محتوياتها خارج حافة الترعة، وبالتالي يزداد عمق الترعة تدريجيًّا. وفي المساء ينام بلا غطاء أو مسكن يؤويه!

يعمل نصف سكان مصر العليا (الصعيد) بهذا الشكل لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر في السنة، مما يعود بالتلف على محاصيلهم. وهم يعانون من مشكلات صحية؛ فقد أُخبرنا أن ٢٠ ألف عامل ماتوا في حفر ترعة المحمودية بالإسكندرية خلال عصر محمد علي، وقد تم الانتهاء من حفرها

علىٰ نحو رديء. وكما يذكر اللورد دوفرين، بعد بحثٍ مُضنٍ وتحقيق ثاقب: « لقد تم استدعاء حوالي خمسمائة رجل لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع للعمل في مشروع يستطيع ثلاثمائة رجل إنجازه في ثلاثة أيام ». و تصف هذا العدد إن كان مجهزًا بالمعدات الملائمة والتنظيم الجيد. « وتقتضي السخرة أن يُستدعىٰ سنويًّا من العمالة الزراعية حوالي مائة ألف إلىٰ مائة وثلاثين ألف رجل، لمدة تتراوح بين ستين ومائة وعشرين يوما ». وتنجز جماعاتُ العمال المنظمة



فتحة حَذْوِيَّة في جدار



والمجهزة بالقووس والمجارف وعجلات اليد تلك الأعمال المطلوبة منها بشكل أفضل بكثير، وبتكلفة أقل بالطبع، حيث إن السخرة ليست إلا أداة إفقارٍ للناس فقرًا شديدًا!

ويضاف إلىٰ عيوب نظام الترع والمصارف وفساد مهندسي الري – وهي أمور يمكن معالجتها فقط عن طريق التفتيش الإنجليزي المستمر والمراقبة الصارمة – فقرُ الناس ومحافظتهم علىٰ نظام حياتهم، وقِصَر نظر حكامهم، مما يؤدي إلىٰ عجز لا لزوم له يتمثل في تشغيل الآلات البدائية والمجهدة والمضيِّعة للوقت. وبدلًا من تعاون الفلاحين المصريين معًا لشراء آلات بخارية، أو الاقتراض من الحكومة لهذا الغرض، فإنهم يتكيفون جميعًا مع شواديفهم البائسة، وسواقيهم عالية الكفاءة، علىٰ الرغم من أنها غير وافية بالغرض، وتضيع الوقت والجهد في عمل يدوي، أثبتت التجارب في الدلتا إمكانية إنجازه بسرعة، وبتوفير في التكلفة، وبدرجة أوسع نطاقًا عن طريق الآلات البخارية.

يتكون الشادوف – والذي سترىٰ لوحة له في الصفحات التالية – من عصا بها كتلة ضخمة من طين النيل عند إحدىٰ نهايتيها، تتأرجح بين عمودين علىٰ غرار الميزان القَبّاني، وبها دلو بسيط مرتبط بنهاية الذراع الطويلة عن طريق عمود خفيف. يجذب العامل الذراع الطويلة لأسفل عن طريق العمود القائم حتىٰ يمتلئ الدلو من النيل أو الترعة، ثم يسمح وزن كتلة الطين – التي تعمل

علىٰ موازنة الثقل – يرفع الدلو لأعلىٰ مرة أخرىٰ للمستوىٰ المرتفع الذي يُرغب في إيصال الماء إليه، ثم تفرغ محتويات الدلو في القناة الأعلىٰ. وتعتبر هذه العملية مرهقة إلىٰ حدٌ كبير، ويمكن لأي شخص أن يثبت ذلك لنفسه في غضون دقائق تنتهي باقتناعه التام. وإضافة إلىٰ ذلك، فأداؤه بطيء وغير فعال، كما يمنع أفضل الأفراد في قطاع الأعمال اليدوية والحرفية من أدائهم لأعمال أخرىٰ. وقد نحتاج أحيانًا إلىٰ أربعة شواديف – الواحد فوق الآخر – لرفع الماء عدة درجات من مستوىٰ سطح النيل المنخفض إلىٰ الحقول التي تعلوه.

تمتلئ ضفاف النيل بالأشخاص المنهكين من العمل علىٰ هذه الآلات البدائية تحت الشمس الحارقة من الشروق إلىٰ الغروب. ومما يبعث علىٰ الأسىٰ، أن نرىٰ هذا الإهدار للطاقة، والتفاقم في المعاناة التي لا لزوم لها، تستمر يوميًّا – وعلىٰ مدار العام – لمجرد نقص الوعي العام وضعف القدرة علىٰ المغامرة بالتغيير.

مدخل مزخرف بالألوان الحمراء والبيضاء (الحجر المُشَهّر)

وتعد السواقي تطويرًا واضحًا للشواديف؛ فهي عبارة عن عجلات ذات تروس، تتصل بها جِرار الماء عن طريق أسنان خشبية. تُملأ هذه الجرار من الأسفل وتُفرغ بالأعلىٰ مع دوران العجلة، وهي تعمل عن طريق زوج من الجواميس أو الثيران مرتبطَيْن معًا.

ويمكن أن يدير السواقي صبيٌّ أو امرأة، وبالتالي فهي تُعد وسيلة قيِّمة جدًّا لتوفير الجهد والعمالة. لكن يتكلف تركيبها حوالي ثلاثين جنيهًا، دون حساب تكلفة الجاموس والسائق (المشرف). وتعد التكلفة الابتدائية أمرًا بالغ الأهمية في بلد لا يفهم معنىٰ الجمعيات التعاونية، ولا تقدِّم فيها الحكومة المحلية قروضًا للمزارعين. وبالتالي، في الصعيد – حيث الناس أفقر من أهل الدلتا وحيث تقع الأرض في مستوىٰ أعلىٰ – لا يزال الشادوف محتفظًا بمكانته في العمل الزراعي، وتبدِّد قوة الرجال في الأعمال غير الضرورية وغير الفعالة، علىٰ النحو التالي:



بستان نخيل في ممفيس (ميت رهينة)

١- عند استعمال الشواديف: يتطلب العمل ستةَ رجال، يكدحون من شروق الشمس إلىٰ غروبها بلا انقطاع تقريبًا، لري آكرين من الشعير أو آكر واحد من القطن أو قصب السكر. وحيث إن هناك رجلًا واحدًا فقط قادر جسديًا علىٰ ري ثلاثة آكرات من الأراضي المزروعة في مصر، فمن الواضح أن الشواديف لا يمكن أن تكفي لري البلاد بأكملها.

٢- الساقية: تعمل عن طريق جاموستين أو ثورين أو ثلاثة. وبإمكانها ري ثلاثة عشر آكرًا من محاصيل الحبوب، أو خمسة من القطن، أو أربعة من قصب السكر. تعمل ليل نهار، ويديرها ولدان.

٣- المضخة البخارية التي تعمل بقوة عشرة أحصنة وبإمكانها ري مائة آكر في الموسم.

وفي الدلتا، يتعاون الفلاحون من هنا وهناك لشراء مضخة بخارية، ويفضلون السواقي علىٰ الشادوف، ولكن لا يوجد مثل هذا التطور في الصعيد. ولحين أن يتم إصلاح نظام الترع والمصارف، وتحل قوة الجاموس (في إدارة السواقي) أو المضخات البخارية محل الأعمال اليدوية، لن يستفيد الفلاح المصري الاستفادة المثلىٰ من أرضه الخصبة التي أسعده الحظ بامتلاكها.

أكواخ الفلاحين في قرية

وإننا نتساءل حقًا عمَّا إذا كان يمتلكها!.. فالأرض بدلًا من تجزئتها إلىٰ حيازات صغيرة، كما كانت في إحدىٰ الفترات الماضية، تتحول حيازتها أكثر وأكثر إلىٰ أيدي كبار المُلاك، وبالتالي يفقد الفلاحون أراضيهم بشكل سريع- نتيجةً لعادتهم المتأصلة في الاقتراض والخضوع للشروط الابتزازية للمرابين الذين ينهبون المصريين بدرجة غير معقولة لا يحكمها ضمير، وبشكل أكبر مما فعله أسلاف كل مقرضي الأموال في زمن موسىٰ- وذلك إلىٰ حدٍّ ما بسبب الغياب الكلي للعدالة، وعجز الفلاح الجاهل أمام قبضة الحكام الفاسدين والقضاة المرتشين والطبقة العليا التي لا قلب لها ولا ضمير. وسرعان ما يُحرمون من أراضيهم ويتحولون إلىٰ عمال باليومية، أو أُجَراء بإيجار باهظ في أراضي وأملاك عِلْيَة القوم الذين نهبوهم. هذه الأمور ستتحسن تحت الحكم البريطاني، لكن هذا التحسن سيستغرق زمنًا للتخلص من ديون الفلاحين المحلية الضخمة، وإعادة إنشاء نظام مصغر للفلاحة يضمن تطبيق نظم التعاونيات في استخدام الآلات وإعادة تشكيل نظام الري، وهو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يعيد الرخاء لهذا الشعب.

استراحة على ضفة النيل

وفي الحقيقة، إنه نتيجة للكثافة العددية للفلاحين المصريين، يمكن أن يُطلق عليهم اسم «الشعب»، حيث إن سكان القرى يشكلون أربعة أخماس سكان مصر. ومع ذلك، فإن سكان القرى يُعتبرون أقلية مهملة. وقد تفتخر القاهرة والإسكندرية بكثافتهما السكانية البالغة نصف مليون شخص تقريبًا، ولكن مدن الدلتا الأخرى - دمياط والمنصورة والزقازيق وطنطا ورشيد - لا يتجمع فيها أكثر من ٢٠ أو ٣٠ ألف نسمة في كل مدينة. ولا يوجد في الصعيد مدن كبرى في الواقع. وتعد أسيوط - عاصمة مصر العليا - أشبه بالقرية الكبيرة، وأسوان - بالكاد - تماثلها، أما الأقصر وإسنا والمنيا وبقية المدن فيُطلق عليها «قرى»، هذا إذا لم تكن هناك قرى أصغر ونجوع تحمل نفس أسماء هذه المدن.


كفيف

ويمكن أن يقال - إذا التمسنا التعبير الدقيق - أن مصر تتكون من مزرعة كبرى، عليها نقاطٌ تمثل عددًا من القرى، تسكنها كثافة سكانية زراعية. هذه الكثافة السكانية الزراعية تُعرف باسم «الفلّاحين»، ومفردها «فلّاح»، وتعني لفظيًا من «يعزق» أو «يشق» الأرض، أي بالتالي: مُزارع. ولا توجد تسمية أقل ملاءمةً من تلك التسمية؛ حيث نادرًا ما تتطلب التربة في مصر حرثًا أو تقليبًا؛ فالطمي الجديد الذي يترسب كل عام لا يحتاج إلىٰ حَفر من أجل أن نجعله ملائمًا لبذر البذور. ولا يتطلب حرث التربة العميقة إلا تقليب التربة التالفة تحت قدمي الفلاح، ثم نبش سطح التربة قليلًا، وهذا هو الإجراء التمهيدي المطلوب لرمي البذور. إن لفظ «الساقي» هو التسمية الأفضل من لفظ «فلّاح» لِيُطلق علىٰ المزارع المصري، إذ - تحت النظام العتيق الحالي - يروي المزارع الأرض من الصباح إلىٰ المساء، إلا عندما يُجبَر علىٰ إصلاح القنوات والترع للآخرين، الأمر الذي يُعد أيضًا نوعًا من «الري بالماء». لكن فيما يختص بهذه المشقة في الريّ والعناية بالترع، فإن الفلاح المصري لديه وقتٌ كافٍ لعمل ذلك؛ فمشاغله أقل من مشاغل الفلاح الإنجليزي، إذ لا يعاني من خشية هطول الأمطار الغزيرة ولا أمراض النباتات. والحَدَث الوحيد الذي يمكنه أن يُثبت محاصيله أو يتلفها هو فيضان النيل السنوي. فـ «النيل المعطاء»، أي: الفيضان الكامل، يعني الوفرة والرخاء.. و«النيل الشحيح»، أي: الفيضان تحت المستوىٰ الضروري للري، يعني الجوع والحاجة، علىٰ الرغم من أنه - حتىٰ في هذا الظرف - تخفف الآلة والمشروعات من هذا الظرف السيئ. وفيما عدا هذا العامل الحيوي في الزراعة المصرية، لا يوجد هناك سبب طبيعي للخوف لدىٰ الفلاح؛ فهو لا يحتاج أية مساعدة صناعية، ولا


رافعة مياه

مركّبات السوبرفوسفات ولا الأسمدة المعقدة؛ فالعملية بأكملها سهلة إلى حدٍّ كبير، فما على المزارع إلا أن يرى فقط المقدار المترسب والمتراكم من الطمي، وقد انتشر على جميع أنحاء الأرض، حتى يقوم بتقليب التربة تقليبًا خفيفًا وبدائيًّا، ويقوم ببذر بذور القمح أو الشعير، ويحافظ على إبعاد الطيور عن المحصول النامي، ثم يحصده عند نضجه بمنجل مصنوع على الطراز القديم، ويدرسه بأداة درس (نَوْرَج) مثيرة للفضول ذات عجلات حديدية ثقيلة، ثم يغربلها بعد أن «يُذَرِّيها» يقذفها في الهواء، وعندئذٍ تصبح الحبوب جاهزة للطحن في الطاحونة. وهنا لا مجال لأي خطأ، ولا حاجة لعمل تكيُّف للمحاصيل مع التربة، فكل الأرض تصير جيدة بعد «النيل المعطاء»، وتنمو المحاصيل وتزدهر بشكل ممتاز.



شادوف

وبالطبع، فإن السكر والقطن مختلفان، فهما محصولان مستوردان وجديدان، ومزاياهما لم تَثْبُتْ بعد بشكل وافٍ. لكن محاصيل الحبوب والبقول تزرع بسهولة، وبمعدّل ربحية عالٍ وعمالة قليلة. وفيما يلي التقويم الزراعي المصري، كما يصفه الدكتور «كلونزينجر» في كتابه الرائع عن الصعيد:[1]

(1) " *Upper Egypt : its People and its Products* ", pages 131-33.By C.B. Klunzinger M.D. (Blackie , 1878)

صعيد مصر ، أهله ومنتجاته. ص ١٣١-١٣٣. تأليف كارل كلونزينجر. (بلاكي ١٨٧٨).

سبتمبر

١٥-جمع محصول القطن (يزرع القليل من القطن في صعيد مصر).
١٦ - بدء نزول الندى.
١٧ - بَذْر بذور الرمان.
١٩-جمع الزيتون (في الوجه البحري).
٢٠-وقت زراعة الليمون (أو الموالح الحمضية الصغيرة المصرية).
٢١ - البلح (وكذلك في بدايات أغسطس).
٢٤ - الرمان.
٢٧ - الفواكه الطازجة، أفضل أنواع الفواكه.
٢٩ - أكل الثريد (وهو خبز ومَرَقٌ ولحم).

أكتوبر

١ - من الأفضل النظر إلى السحاب.
٨- نضج الفواكه.
٩-(بَذْر بذور البرسيم، الذي يمدنا بثلاثة أو أربعة حَشَّات في صعيد مصر. بدلا من ذلك، فإن نباتات أعلاف الدواجن وعِرْق السوس تُبذر على نطاق أوسع وتستخدم كعلف للمواشي والغنم).
١٠ - حصاد الذرة.
١٥ - حصاد الأرز (في الوجه البحري فقط).
١٦ - نهاية ارتفاع الماء في النيل.
١٨ - شرب عصير الفاكهة.
٢٣ - بَذْر بذور الكتان.
٢٥ - بذر بذور القمح (والشعير).
٢٦ - تجنب النوم في العراء.
٢٧ - بدء البرودة في الصباح.

نوفمبر

٢ - لا تشرب أثناء الليل.
٥ - الورود.
٧- بَذْر بذور البنفسج.
٨-جمع الزعفران.
١٧ - تساقط الأمطار.
١٨ - هبوب الرياح الجنوبية. اشرب الماء الدافئ عند الصيام.
٢١ - جمع محصول الذرة (محصول خريفي ينبت خلال الفيضان).
٢٤-رعي الخيول.
٢٥ - يصير الليل باردًا بأكمله.

في شهر نوفمبر تُبذر معظم المحاصيل الشتوية: العدس، الحمص، القمح، الشعير، الفول، البازلاء، الترمس، القرطم، الخس، الكتان، الخشخاش، الذرة الشتوية.

ديسمبر

٢- تُبذر بذور الكراوية، الينسون، الكمون. موسم تزاوج السرطان الأسود.
٤- عصر الزيتون.
٥- تناول كل شيء حار.
١٠-(أول حصاد لنبات البرسيم).
١١- هلاك الحشرات - اختفاء البعوض والثعابين.
١٥- نضج قصب السكر (رمي بذور الشمام الشتوي).
١٦- لا تشرب شيئًا من الأواني المكشوفة لمدة ثلاث ليال.
١٧- النمل يخترق أعماق التربة.
١٨- يخرج البخار من التربة.
٢٣- أول نوبات الصقيع.
٢٥- البَذر المتأخر للقمح.
٢٩- تقليم أشجار الكروم.

يناير

٣- تجنب أكل لحوم الطيور.
١٠- حصاد عرق السوس وعلف الدواجن أو أكله.
١١- رمي بذور التبغ. برد شديد.
١٧- عيد التعميد. أكثر نوبات البرد شدة (تسمىَ نوبة برد عيد الميلاد. في هذا الوقت يكون المسيحيون في أقصىَ تقواهم ويأخذون غطسًا باردًا). يصبح ماء النيل حلو المذاق وصافيًا.
١٨- تدفأ أعماق التربة.
٢٢- تناول الأصناف الحارة من الطعام (مثل البقول والخضروات).
٢٨- آخر نوبات البرد الشديد.

فبراير

١- ارتفاع العصارة النباتية في سيقان النباتات. ظهور الشبق لدىَ المواشي.
٣-وضع شتلات الخوخ والبرقوق. زرع الأشجار.
١٠- ولادة الحملان الصغيرة.
١٣- انكسار موجة البرودة.
١٨-٢٠- انخفاض درجة حرارة الشمس.
٢١- تزاوج الطيور.
٢٢- ظهور ثمار الخيار الصغير.

٢٥- تجنب الجلوس في الشمس.

مارس

٢- تكاثر الطيور المائية بأعداد كبيرة.
١٠- زراعة القطن الهندي (والأرز). تكاثر دودة القز (في الوجه البحري فقط). حصاد الشعير.
١٢- تكاثر الجراد.
١٤- زراعة السمسم.
١٧- الأعاصير العنيفة والدوامات الهوائية.
٢٠- الشمس الكبيرة.
٢٤- حصاد قصب السكر (نضج الشمام).
٢٥- زرع القطن المصري. حصاد الكتان.
٢٦- هبوب الرياح الشمالية.
٢٩- بَذْر بذور الكراوية.
٣٠- تناول لحوم الماعز والطيور.

أبريل

٢- تجنب أكل الجبن.
٥- وقت فصد الدم (الحجامة).
٦- إزهار الأشجار (إثمار نخيل البلح، ورمي بذور الذرة الصيفية ونبات النيلة).
٨- وقت تنظيف الأراضي من الحشائش والآفات.
١٠- جمع القمح في صعيد مصر.
١٢- جمع نبات اللوز.
١٦- انتشار البرد.
١٧- أول جمع للمحاصيل والثمار في القاهرة.
٢٠- حفظ الورود.
٢٩- عيد الفصح يوم الاثنين. بداية الخماسين (يتغير ميعاد عيد الفصح أحيانًا).

مايو

٢- بَذْر بذور الحنة.
٤- استعمال الأحماض للتربة.
٦- هبوب رياح قوية من الشمال.
٧- عَمَلُ الحجامة، وشرب المشروبات المنقية للدم.
١١- بَذْر بذور الخيار (الصيفي).

١٢- جمع محصول القمح المتأخر.
١٤- تجنب أكل اللحم المملح.
١٧- بَذر حبوب الذرة (الصيفية) في صعيد مصر.
٢١- جمع رؤوس الخشخاش.
٢٢- هطول المن وأسراب السمّان. جمع زهور القرطم.
٢٧- بدء موجات الحرارة الشديدة. ظهور نجم الشعرى اليماني.
٣١- أوان ظهور المشمش.

يونيو

١- بدء تقلص العصارة النباتية للأشجار.
٢- حسب قول أبقراط، يجب تجنب العلاج الطبي لمدة ٧٥ يومًا بدءًا من هذا اليوم.
٥- نهاية "تحاريق النيل" (موسم الجفاف).
٧- رمي بذور الأرز.
٨- تغير ماء النيل.
٩- ظهور نجوم فلك الثريا.
١٠- نشوء حرارة شديدة في أجساد الرجال.
١١- تشقق التربة.
١٤- تصاعد أبخرة عفنة من التربة والمستنقعات.
١٥- جمع العسل من خلايا النحل.
١٦- لا تشرب من ماء النيل لمدة خمسة عشر يوما.
١٦-١٧ - ليلة النقطة.
١٩- أول ظهور لعناقيد العنب.
٢٠- نضج البطيخ.
٢٢- أشد موجات الحرارة.
٢٣- بدء فيضان النيل.
٢٤- الاستحمام في الماء البارد.
٢٥- شرب التمر هندي.
٢٦- شرب العصير من عناقيد العنب غير الناضجة.
٢٧- استعمال الأحماض للتربة.
٢٩- قطاف الخوخ والبرقوق.

٣٠- آخر فرصة لبَذْر بذور السمسم.

يوليو

٣- الإعلان عن ارتفاع منسوب النيل.
٤- تجنب المسهّلات (الشُّرْبة).
٥- هلاك الجراد.
٧- ازدياد سرعة النيل.
٩- رياح شمالية شديدة نسبيًّا.
١٠- الوقت الأساسي لجمع العسل.
١١- اعتدال الهواء.
١٤- انتهاء الأبخرة العفنة ونشاط البراغيث. اختفاء الطاعون في الأماكن التي ظهر فيها.
١٩- هبوب رياح شديدة.
٢٠- جمع بذور الخردل. (حصاد الذرة الصيفية).
٢١- هبوب رياح السَّموم لمدة أربعين يومًا.
٢٥- تفشي الإصابة بأمراض العيون.
٢٦- تجنب غسل الملابس لمدة سبعة أيام.
٢٧- التين والعنب.
٢٨-الكمون الأسود.
٢٩- عصر العنب قبل تخمُّره.

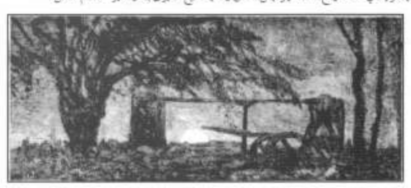
أغسطس

١- الشمّام الصيفي.
٣- ظهور نجم الشعرى اليمانية.
٩- بَذْر بذور الفجل. جمع القطن.
١٠- نضج ثمار الفستق.
١٢- أول ظهور للرمّان.
١٥- بَذْر حبوب الذرة الخريفية.
١٧- تجنب لدغات الحشرات.
١٨- تغير ألوان ورق الشجر.
١٩-تجنب أكل الحلوى. رمي بذور الثوم والبصل.
٢٠- فطام الحيوانات (البهائم) الأليفة.

٢٤- الفئران والبعوض.
٢٥- تكاثف البرودة في الصباح. ولادة الحملان الصغيرة.
٢٩- شرب اللبن الرائب. تجنب الاستحمام بماء دافئ.
٣١- بَذر بذور اللفت. قلي السمك. شرب القليل من الماء.

***

على الرغم من كل هذه الأعمال، فإن رجل القرية - ما لم يكن مشغولاً بعمله على الشادوف - له وقت معين من الراحة يقضيه في التدخين وشرب القهوة - ولا أقول الخمر - والثرثرة مع أصدقائه. وعلى الرغم من كدحه في أرضه عبر آلاف السنين، فإن الفلاح ليس نكِدًا ولا حقودًا. وهو يعلم أنه مظلوم، ولكنه لا يدع مظالمه تمنعه من فرحه وسعادته، فتراه يغني الأغاني، ويروي الفكاهات وهو جالس مع أصحابه، ويضحك كما يضحك رجل المدينة. ولا يمكننا أن نتوقع أن يصير شديد الذكاء، حيث كان الغرض الأساسي والأوحد لكل حكامه من مينا إلى إسماعيل أن يعاملوه كآلة وألا يفكر إلا في نفسه. ومع ذلك، فهو ليس أحمق وقد يستطيع أن يرى بقدر ما يراه معظم الناس.



ساقية

وبالتأكيد، فإن الفلاح المصري ليس مؤهّلاً لأن يحكم نفسه في الوقت الحاضر. وقد نشك في كونه ريفيًّا ساذجًا مثل كل أفراد المجتمع الزراعي. ومن المحتمل أن تظل الهيئات البرلمانية أو النيابية أمرًا غامضًا بالنسبة له على امتداد الخمسين عامًا القادمة. إن الفلاح المصري يحتاج للرعاية الطيبة والإرشاد والحماية (من نفسه ومن حاكمه الظالم أيضًا) مثل الطفل الصغير، وذلك للعديد من السنوات، حتى تختفي من طبيعته الآثارُ الخبيثة للعبودية، والرعبُ الذي ربّى فيه الكذب والخداع، واليأسُ، والخنوعُ في مواجهة الظلم والطغيان.. تلك الآثار التي تؤدي به إلى الاقتراض ونزع الملكية منه والطرد والخراب، وعدم ثقته في جنس البشر التي نتجت عن قرون من وقوعه تحت سيطرة الحكام الذين لا يرعون مصالح شعوبهم ويُخْلِفُونَ وعودهم، وهو أمر يتطلب وقتًا لإزالة هذه الصفات من طبيعته.

يحمل الفلاح بداخله مقومات الرجل الصالح. وتكوينه الجسدي رائع، ونفسيته سعيدة متسامحة، كما أنه غير مؤهل للمعاملة الوحشية مع غيره؛ فلم يُسمع قط عن فلاح يركل زوجته بقدميه، علىٰ الرغم من أن معاملته للحيوانات قد تحسن لدرجة ممتازة. ويحتمل أن يكون عقله بطيء الفهم والإدراك، مثل عقل أي فرد في طبقة زراعية أخرىٰ، ولكنه قابل للتعلّم. فإذا تحرر الفلاح من الأعباء التي تقهره الآن، فلا بد من أن ينال مستقبلًا مزدهرًا، وذلك إن لم يحاول السياسيون في بريطانيا السعي في دفع الفلاح لذلك بسرعة.

وتعد القرية المصرية نسيجًا متفردًا بذاته؛ فهي عبارة عن طريق ممهدة ومرتفعة لدرجة كافية، بحيث لا يصل ماء الفيضان إليها. وتقود هذه الطريقُ المسافرَ من النيل إلىٰ جماعة من الناس تتراوح ألوان بشرتهم ما بين البني والرمادي، ولا يشبهون أي جنس قد يُرىٰ في البلاد الأخرىٰ.

وتشكل الأكواخ جدارًا كاملًا يحيط بالقرية، من دون أي فتحات فيه إلا حيث يوجد المدخل الرئيسي، أو حيث ينهار أحد هذه الأكواخ الذي يُعاد بناؤه كما هو معتاد. شُيِّدتْ هذه الأكواخ بالطوب المجفف في الشمس.. نفس المادة التي تُبنىٰ منها كل المباني المدنية في مصر، بدءًا من منازل مدينة ممفيس (ميت رهينة) حتىٰ منازل ساحل البحر المتوسط. وقد كان بنو إسرائيل يعملون في صنع مثل هذا الطوب، وقد رأيتُ الطوب نفسه الذي صنعوه، مجففًا ومختلطًا بالتبن، في مدينة «بيثوم» المطمورة التي جرىٰ التنقيب عنها مؤخرًا. وإذا هطلت أية أمطار غزيرة مستمرة، سيتحول هذا الطوب إلىٰ مادة طينية ذائبة، كما يُشاهَد كثيرًا في الصحراء الشرقية في الطريق إلىٰ مدينة القصير علىٰ ساحل البحر الأحمر. لكن مثل هذه الكارثة لا تحدث أبدًا في مصر بفعل الأمطار، ولو أنه من المعتاد أن نرىٰ البيوت تذوب تدريجيًا في الفيضان، ويجرفها عندما لا تكون في منسوب عالٍ يكفي للهرب من اكتساح مياه النيل.


شيخ قرية

يُعدُّ الكوخ المصري - في أفضل حالاته - بناءً ذا شكل مؤقت؛ فحوائطه ليست قائمة الزوايا أو مبنية علىٰ زوايا صحيحة، فكل جزء يبدو متأهبًا للانهيار، وليست هناك أية محاولة لإضفاء الثبات أو الجمال عليه. ويتكون السقف من جدائل (حُصُر) أو حُزَم من عيدان الذرة مغطاة وملتصقٌ بعضُها إلىٰ بعض بالطين. وقد تؤوي حجرة صغيرة الأبعاد عائلةً بأكملها، كما توفر ساحةٌ صغيرة بالخارج حجرةً للأطفال والحيوانات والطيور ليمارسوا نشاطهم في الطين والقذارة ويستمتعوا إلىٰ أقصىٰ حد.

وفي الحقيقة، إن أفقر الأكواخ ليس بمثل هذه الجودة، فهي شبيهة بالبيوت السَّلِّية أكثر من أي شيء آخر. في هذه البيوت «يعجن الفلاح لنفسه كوخًا من الطمي الذي تركه النيل في كل فجوة، ثم

يخلطه ببعض التبن. وبهذا، تتكون حجرة قد يتم الدخول إليها زحفًا عن طريق فتحة، وتُغطى بالقصب (البوص) وعيدان الذرة والخِرَق البالية. ثم يَبني حوله جدارًا من الطمي بقدْر ارتفاع قامة رجل تقريبًا، يحيط بفناءٍ أو زريبة. وتُترك مساحات أسطوانية فارغة في الجدار كصوامع تُستخدم في حفظ الحبوب، وكبيت للحمام، وكنٍّ للطيور المنزلية، وفرنٍ، وخزانة لحفظ الأواني.[1]

وتجوس كلاب القرية على الأسطح وبجانب الجدران، وهي تمثل أداة حراسة ممتازة، ولكنها لا تنال المعاملة الكريمة للحيوانات الأليفة. وفي وسط الأكواخ، يوجد أحد أنواع الأبراج الشبيهة بالمدافئ الأوربية، وهو مصنوع من الطوب المطلي بالجير، ويمثل مئذنة للمسجد الصغير البدائي، تعلو حولها في كل اتجاه الأبراج المخروطية اللافتة للنظر، التي تشبه أبراج المعابد القديمة، وعلى قمتها شرفات بها فتحات مزوَّدة بأغصان تحط عليها الطيور، حيث تجد الأسراب الهائلة للحمام فيها ملجأها بعد سعيها اليومي بغية الاقتيات بحبوب الذرة وصراعها مع الفلاحين الذين يصطادونها بالنبال لحماية محاصيلهم النامية من غاراتها. فالحمام له فوائده، ولكنه أيضًا - بلا شك - له سلبياته وعواقبه. وتتجمع كل المنازل أو الأكواخ في القرية المصرية بلا مخطط أو ترتيب، ويعد من المستحيل أن تكتشف بمجرد النظر الخارجي أين ينتهي مسكنٌ ما وأين يبدأ المسكن الذي يجاوره.



مركب نيلي في ضوء القمر

ولا يوجد أي شيء في القرية يشبه الشارع، إلا في مساحة مفتوحة صغيرة حيث يوجد منزل شيخ البلد، فيجتمع كبار السن ليدخنوا نرجيلاتهم ويتباحثوا في شؤون عالمهم الصغير. وتقودنا حارة متعرجة، صعبة التمييز، إلى البيوت الأخرى. وكثيرًا ما يمدنا حائط متهدم، أو زريبة مكشوفة، بأفضل طرق الخروج إلى سكان الحي. وخارج السياج المبني من الأكواخ الذي يعزلنا عن العالم الخارجي، نجد الترعة، أو مصرف القرية، وهو مكان للروائح والمناظر المزعجة، الذي - مع ذلك - يفرح الكلاب والأطفال باللعب فيه، ويعد مكانًا لجحافل الذباب الطائشة التي تقع على عيونهم وفي أفواههم.



النيل عند كفر الزيات

(١) صعيد مصر، كلونزينجر، ص ١٢١. Klunzinger : "Upper Egypt", page 121.

عندما يرى المرء تَعوُّد الأطفال المصريين على هذه الغارات الذبابية الاعتيادية، يكون مستحيلًا عليه أن يُفاجأ بالنسبة الهائلة للبالغين المكفوفين أو العُور، إذ يزداد الرمَدُ بطرق عديدة، وبلا شك ينتشر عن طريق الذباب. ويجب أن يُعزىٰ قدر كبير من انتشاره إلىٰ إهمال الأمهات وجهالتهن وقذارة الأطفال، إذ تعتقد النساء أنه من النحس أن تغسل وجه الطفل، وتفضل أن تجعله أعمىٰ طوال حياته علىٰ إزالة الذباب المهلك الذي يغطي عينيه مثل طبقة من الجص اللاصق.



منزل يهودي

في الحي السكني بكل قرية هناك ترعة، تظللها أيكة من النخيل، حيث غالبًا ما يجتمع الرجال للثرثرة، وتجيء النسوة لجلب الماء، بقاماتهن الطويلة الفارعة والمتناسقة، فيتحركن بخيلاء تحت ثقل الجرار الكبيرة التي يحملنها علىٰ رءوسهن. وعلىٰ مسافة غير بعيدة، تجد ضريحًا لأحد الأولياء المحليين، حيث يحافظ الفلاحون بتقواهم علىٰ إضاءة مصابيح الضريح علىٰ الدوام.. وحيث يلجأ الواقعون في مشكلات، أو المصابون بمرض، لنَيل بركة الكرامات التي يُعتقد أنها تتوافر لدى الأولياء المسلمين الأموات، مثل أولئك القديسين في الكنائس الأخرىٰ.

جدار منزل مخطط باللونين الأحمر والأبيض (الحجر المُشهَّر).

وهناك «أمور كثيرة يحرِّكها الإيمان» في مصر، كما هو الحال في الكثير من البلدان في الغرب، لدرجة أكثر مما قد يتخيلها البشر. ليس بسبب أن الغرض المقصود يستحق الإيمان به، ولكن لأن الإيمان بشيء عديم القيمة في حد ذاته له تأثيره الذاتي بالإيحاء، وقد يُشفىٰ الناس بالإيحاء تقريبًا بنفس سهولة إصابتهم بالمرض عن طريق الإيحاء أيضًا.

من الصعب أن تجد قرية في مصر ليست بها حكايات عجيبة تُحكىٰ عن العلاجات المعجزة السحرية التي تُجرىٰ علىٰ يد الولي الصالح المدفون بها. ويمكن لهذه الحكايات أن تجعل أكثر الكذابين وقاحة يشهدون علىٰ تلك الحكايات «الحقيقية» لو وضعوا أياديهم علىٰ قبر الرجل الصالح. وللمصريين توقير فائق الحد لأوليائهم، الذين هم عادةً مجاذيب لا يؤذون، ولكنهم كثيرًا ما يكونون دجالين محترفين. بعضهم يتجول عاريًا تمامًا بلحية شعثاء وضفائر شعر متدلية، يأكل نشارة الخشب والتبن والزجاج المكسور، أو يرتدي أقمشة غريبة الشكل ومتعددة الألوان، ويلعب ألعابًا سخيفة، بل والأسوأ من ذلك أنه يجري في الشوارع العامة.

لو أن أحد هؤلاء الأوغاد قابلك في الشارع وسألك الصدقة، فعليك أن تعطيه، وإلا فإنك تعرض لخطر النحس المحتمَل الذي يتبع رفضك إعطائه المال، حسب الاعتقاد الشعبي الخرافي! وأحيانًا، قد يصبح أحد هؤلاء الأولياء ذوي البنية الضخمة، والمسلّح - كما هو معتاد - بعصا طويلة وثقيلة، عدوانيًا في سلوكه. وقد تصادَفَ لأكثر من رحّالة أنه قضىٰ أكثر من ربع ساعة في خوف ونكد، واقفًا ينظر بترقب إلىٰ الحافة الحادة للنبوت الذي يتحسسه به أحد هؤلاء الأولياء المزعومين مفتولي العضلات. ومع ذلك، فليس من الضروري أن يموت الشخص الصالح حتىٰ يصبح ذا شأن عظيم، فإنه يوقَّر في حياته، بل ويوشك أن يُعبَد بعد وفاته. وحينئذ ستضاف لسيرة حياته ومعجزاته تلك الحكايات المزخرفة الرائعة التي يحب المسلمون أن يضيفوها إلىٰ شهدائهم ومشايخهم الطاهرين من الذنوب.

وهناك تشابهٌ ما بين معظم الصالحين المحمديين يُعد مثبطًا للهمة بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بهم؛ إذ يُظهر أولئك الصالحون فقرًا مختلقًا يبعث علىٰ الأسىٰ، وكثيرًا ما يُقنعون أنفسهم باتباع السلوك شديد الزهد لأسلافهم. فهم مغرمون بأن يظهروا - في بداياتهم - في ثوب لامع أبيض وناعم، ويضعون عطر المسك. وفي غضون حياة طويلة قضيت - علىٰ حساب جيرانهم - في العزلة والتأمل، يحتالون بالخداع بمعجزتين مقبولتين لدىٰ الجمهور البسيط الذي يتلاعبون به، ثم يموتون بشكل مشابه جدًا لغيرهم من الناس، فيتوقعون أن تُبنىٰ علىٰ جثامينهم قبة أو ضريح يزوره أجيال من الأتقياء والمؤمنين الذين يحتاجون إلىٰ بركاتهم الرُّوحية أو الدنيوية، لدخول الجنة، وإنجاب الأطفال، وجمع محاصيل وفيرة، وهم جاهزون بمال يدفعونه لهم. والشيء العجيب هو أن هذه الخدع الضعيفة والتافهة، دائمًا ما تنجح. إن أهل الريف - وهم سذج مثل كل الريفيين البسطاء الذين يشأ قليل منهم في المدن - يتجمعون عند قبر الولي، ويقيمون عليه قبة بيضاء بسيطة، ويطلبون نزول البركات علىٰ رأسه، ويعملون دائرة من القضبان الخشبية تحيط بالقبر من اليسار إلىٰ اليمين، ويتمتمون بالأدعية، أو بأجزاء من القرآن، وبالصلوات علىٰ النبي وكل الأولياء، تنتهي بـ: «يا الله، أقسم عليك بالنبي، وبهذا المدفون في هذا المكان، أن تعطيني كذا وكذا من البركة» أو «رميتُ حملي علىٰ الله وعليك يا صاحب هذا المكان المبارك»، ويقبّلون السياج الخشبي والحوائط والعتبة، ويوزعون علىٰ الفقراء الماء والخبز والمال علىٰ رُوح الولي، ويضحّون بعجل عند القبر كعرفان لاستجابة الدعوات، ويضعون الزهور ونبات الريحان وجريد النخل علىٰ القبر. ويدل بيض النعام المعلق، والمصابيح، والتذكارات المقدسة، والأوعية الفخارية الجميلة، والأقمشة المزخرفة المعلقة، والمناظر


باب خشبي بسيط

الطريقة المصورة من أعلىٰ للمسجد الأقصىٰ ومكة والأماكن المقدسة الأخرىٰ، علىٰ حماسة وإخلاص جيران الضريح.

ولا يُعَد حارسُ مقبرة الولي منصبًا رفيعًا؛ إذ كثيرًا ما تأتي النسوة الفقيرات من الأحياء المجاورة بهدايا صغيرة من الخبز أو المال، التي يأملون بها ضمان شفاعة الولي ومعروفه. وقد نكون متأكدين أن حارس المقبرة لا يقدم دائمًا نذورهم وهداياهم إلىٰ الجنة، ومع ذلك فإن أغرب خصائص عبادة القديسين هذه هي المعتقد الخرافي للمسيحيين في مصر الذين يبدون في منتهىٰ الجشع في طلب البركات التي يحاولون الحصول عليها، سواء بالوسائل العادية أو الغريبة، ويزورون كثيرًا قبر أحد أولياء المسلمين ويقبِّلونه ويتصدقون بترك مالٍ فوقه، اعتقادًا منهم أن هذا السلوك الاسترضائي سوف يعزز مكاسبهم في هذه الدنيا وفي الآخرة. وفي الحقيقة، يشترك الصالحون المسلمون والقديسون المسيحيون في أشياء كثيرة؛ فأحيانا نرىٰ أثر حلقة من حكايات الأسطورة الذهبية Legenda Aurea[1] مذكورة في "حكايات الصالحين المسلمين" Acta Sanctorum Islamismi، ومن المستحيل أن نذكر العدد الهائل للوقائع التاريخية الصحيحة التي اقتبسها «جياكومو فوراجيو Giacomo Voraggio» من المصادر المحمدية.



امرأة فلاحة من الترعة

تشبه المدينة الريفية (البَنْدَر) القرية إلىٰ حد كبير، ولكنها أكبر منها، وتحتوي علىٰ القليل من البنايات الجميلة؛ مثل مسجد أو مسجدَيْن كبيرَيْن، وبيت المدير، وربما بيت القاضي، والمحكمة المحلية، أو نقطة شرطة.

وتُعَدُّ المحكمة الريفية مشهدًا لافتًا للنظر بالنسبة للرجل الأوروبي؛ فبالمرور خلال فناء محاط بشجر الصفصاف العتيق، تدخل غرفة تغصُّ بالكتبة الأقباط، الذين يشكّلون نقابة حصرية تؤدي دور كاتب المحكمة في كل جلسات المحافظين والمحاكم الصغرىٰ. وفي الواقع، يعد الكاتب القبطي من الناحية العملية قاضيًا في المحكمة الابتدائية، حيث يُعتمد علىٰ رأيه فيما إذا كانت دعوىٰ الفلاح تستحق أن تصل إلىٰ اهتمام



فلاح في وقت الراحة

(١) Legenda Aurea هو الاسم اللاتيني لكتاب «الأسطورة الذهبية Golden Legend» الذي ألفه رئيس أبرشية الرومان الكاثوليك في جنوا بإيطاليا، جياكومو فوراجيو (١٢٣٠-١٢٩٨م)، وهو يتناول حكايات القديسين والشهداء المسيحيين. (المترجم)

المحافظ أو القاضي أم لا. وهذا الرأي يمكن الحصول عليه عن طريق حفنة من المال.. فإذا لم يكن بحوزة الفلاح ما يكفي من المال ليَرْشُوَ به الوسيط القبطي، فلن يفوز بالوصول إلىٰ مجلس القاضي بنفسه علىٰ الإطلاق. وربما يكون هناك فرق طفيف، إن كان هذا القطب الشرعي ذو السلطان، الذي يجلس مدخنًا نرجيلته علىٰ ديوان بالغرفة المجاورة، يضمر نوايا مشابهة لتلك الخاصة بكاتبه القبطي، فيما يتعلق بفائدة البقشيش الإتاوية، والتأثير النافع لصوت الضرب بالفَلَقة علىٰ باطن أقدام كلٍّ من المدَّعي والمدَّعَىٰ عليه. فالخطة الوحيدة هي «رشوة» الكاتب، وبالتالي ستحصل علىٰ إقامة دعواك، وليس بالضرورة علىٰ العدل.

يتواجد هؤلاء الكتبة الأقباط في كل مدينة، وفي بعض المراكز، مثل جرجا، التي يمثل الأقباط جزءًا كبيرًا من سكانها. تميزهم دائمًا العمامة والقفطان الأسودان، وإن كانت النظرة إلىٰ وجوههم وحدها تكفي للتعرف عليهم. من الصعب أن نبين مدىٰ اختلاف مظهرهم عن المسلمين؛ فنادرًا ما يخطئ المرء في التمييز بينهما؛ إذ يشكلون الطبقة الدنيا رسميًّا، ويعتبرون - بلا جدال - أكثر فسادًا وشراهةً من الحكام الأتراك أنفسهم. وهناك، إلىٰ حدٍّ بعيد، تفاهم جيد بين طائفتَي اللصوص، فحتىٰ الآن هناك تشابه بين ذلك الذي يحدث بين قاضي الصلح المحلي وكاتب القضاة، ذلك أن الكاتب - في الحقيقة - هو الذي يعرف القوانين ويقيم الأحكام، في حين يصدِّق الرجل العظيم المنصب علىٰ أحكامه. ومن المحتمل أنه لم يثبت وجود طائفة أخرىٰ رسمية مرتشية في مصر مثل الكتبة الأقباط؛ ففي الحقيقة أثبتت التجربة ذلك مع المسلمين - السكان المحليين - دون أي تحسينات تذكر. ومما لا شك فيه، أنه لن يكون هناك عدل في هذا البلد ما دام «جرجس» أو «حنا» يحتفظ بوظيفة كاتب المحكمة بمحبرته وأوراقه!

تلغراف

مع ذلك، تعد الكنيسة القبطية موضع دراسة تثير الفضول، إن لم تكن مزعجة؛ فهي تُعد أحد فروع اليعاقبة من الكنيسة الأرثوذكسية (اليونانية)، التي ترجع إلىٰ القرن الخامس الميلادي. ولقد قاومت كلَّ محاولات الإصلاح أو التوسع أو الحل، ولا تزال ماثلةً بقدر محدود، وهي في الأساس كنيسة مهدية proselytised؛ لكنها لا تسعىٰ لتوسعة نطاقها خارج نطاق الحدود المصرية؛ فهي تحافظ علىٰ شعائرها الخاصة، والعادات التي رافقت بدايتها بلا تغيير، وتستخدم اللغة القبطية في



في انتظار وجبة



صبي حمار

طقوسها الدينية، تلك اللغة التي تُعد نموذجًا من اللغة المصرية القديمة، ويُعبّر عنها بالحروف اليونانية، لكن كيفية نُطقها قد نُسيت بمرور الزمن. وأعضاء الكنيسة القبطية يتزوجون من بعضهم فقط، ومن ثم تحافظ على تفرُّد شكلها الظاهري، ذلك الشكل الذي يذكّر بكل وضوح بالمظهر الخارجي لأتباع الفرعون.



نارجيلة

وفي العصور الماضية، كثيرًا ما اضطهد مسلمو مصر أقباطَها لدرجة مؤلمة، وكان ذلك غالبًا بالتحريض، لكن الآن يعيش أهل العقيدتين على أرضية صداقة متينة. ويحيا المسلمون والأقباط الآن جنبًا إلى جنب مثل الإخوة، إلا عندما تذكّر مشاجرةٌ عادية المسلمَ الحق أن جاره ليس إلا « كلبًا كافرًا»!!

يرتدي القبطي ملابس شبيهة بملابس المسلم، لكنه يفضّل الألوان الداكنة. وهو مثل المسلم يحرّم أكل لحم الخنزير، ويضيف لحمَ الجمال إلى المحرّمات على عكس المسلم. ومع ذلك، فإنه يعوّض صيامه المتكرر بكميات هائلة من الشراب المُسكر المصنوع من عَرَق البلح الذي يزداد به بدانة، على الرغم من الحِمْية النباتية التي يتبعها خلال أشهر الصوم التي تحددها الكنيسة.



إبريق ماء

وعلى العكس من المسلم، يتزوج القبطي زوجة واحدة فقط، وبمراسم مختلفة تمامًا عن مراسم زواج جيرانه المحمديين، حيث يذكر مستر «لورانس أوليفانت Lawrence Oliphant» حفل زواج قبطي في كتابه «الأرض السوداء»[1]، صـ ١٦٤ وما بعدها، وهو كتاب يحتوي على الكثير من الفوائد والطرائف، فيقول:

«في الليلة التالية، شهدتُ حفلَ زواج اثنين من الفلاحين، وقد عُقد في حوالي الساعة العاشرة، وكان - إلى حدٍّ ما - أكثر تسلية من الزواج الأرستقراطي الذي تلاه في منتصف الليلة. ففي وسط الكنيسة، رُتبت المقاعد بحيث اتخذت شكل مربع من ثلاثة أضلاع. وكان هناك مقعد في منتصف المركز جلستْ عليه العروس والعريس جنبًا إلى جنب، وكانت أقدامهما الحافية تتدلى مرتفعة بمقدار ست بوصات من

(١) عنوان الكتاب بالإنجليزية: Land of Khemi، وتعني لفظة Khemi بالهيروغليفية: الأسود أو الأسمر، إشارة إلى طمي النيل. (المترجم)

الأرضية. وكان أصدقاء العريس الذكور يحيطون به من اليمين، والإناث تُحِطْن بالعروس من اليسار. وحيث إنهن من طبقة الفلاحين، فإن أوجُهَ النساء كانت غير مغطاة، وارتدين عباءات زرقاء وغطاءً أزرق للرأس، وهو الشائع لدى عامة أهل الريف. ومع ذلك، فقد مثّلت العروس استثناءً، فوجهها بأكمله كان مغطىً بمنديل قطني أحمر مشدود بإحكام على وجهها، لدرجة أن الرائي قد يتساءل عن كيفية استطاعتها التنفس! وبدا العريس - الذي كان شابًّا صغيرًا بكل ما في الكلمة من معنىً - خجولًا وقلقًا إلى حدٍّ كبير، وممسكًا في يده بمنديل أبيض ملازم لفمه بإصرار كما لو كان يعاني وجعَ ضروسه. في البداية اعتقدت أن الأمر كذلك، لكن عندما صارت يداه مشغولتين بشيء آخر، أمسك منديله بأسنانه، فاستنتجتُ أنه كان مستحيًا فقط.


نسوة يجلبن الماء

كانت أقدام الجميع - بمَن فيهم القساوسة - حافية، وكان معظمهم من الطبقة الفقيرة. ومن الواضح أن الكاهن الذي أجرى مراسم الزواج كان يشغل منصبًا ثانويًّا جدًّا يضعه في مرتبة أدنى في الكنيسة، وبدا أن همه الرئيسي هو أن ينهي الإجراءات بأسرع ما يمكن، وأن يُدفع له مال على ذلك. جلس الكاهن بنفسه على كرسي منخفض أمام العروسَين السعيدَين، وأخرج كتابَ صلواتٍ قبطيًّا مِن صدره، وأعطى الإشارة للحاضرين بأن يبدءوا عمليات إجراء الزواج، التي خلالها يجلس رجلُ القرفصاء على عقبيه خلف كرسي الكاهن، ويعزف بزوج ضخم من الصنج، في حين يتخذ نصف دستة أخرى من الرجال صفًّا وينشدون أغنية كئيبة بصوت أَخَنَّ عالٍ. وعندما كانوا يتوقفون عن الإنشاد، كانت النساء المصطفّات على المقاعد الطويلة يفجّرن أصواتًا حادة بنغمة موسيقية متهدجة أشبه بالعويل، تشبه نداء البوم الصيّاح. ويرافق هذا تحريك اللسان بسرعة بين الشفاه أثناء الصراخ، وتعد صرخة الفرحة الشائية هذه شائعةً لدى كلٍّ من المسلمين والمسيحيين في كل بلاد الشرق، وتسمى «زغاريت». ولها تأثير بربري وشرس، حيث كانت تقاطع من وقت لآخر الإنشاد الغريب ورنين الصنج لجوقة الإنشاد الكنسي. بعد ذلك، يؤدي الكاهن الجزء الخاص به، فيتلو الصلوات بسرعة كأنه في سباق.

خلال كل هذه الفترة، كان الرجال يثرثرون ويضحكون بصوت مرتفع، ويبكي الأطفال الرضع. وبين الحين والآخر، كان الكاهن يتوقف عن تلاوة الصلوات لكي يتحدث قليلًا مع أولئك الرجال الأقرب إليه عن أمور ذلك اليوم. من الصعب تخيل أي مراسم دينية غير موقرة، أو أقل التزامًا بالطقوس الدينية، من تلك التي جرت في هذا الاحتفال!

وفي وسط كل هذا، ودون ارتباط بأمرٍ معيَّن، أخذ الكاهن يد العريس اليسرى ووضع في إصبعها الخنصر خاتمًا. وبعد المزيد من الإنشاد والقراءة والصياح والمحادثات العامة، أخذ قنينة، أفترض أنها تحتوي على الماء المقدس، ورسم علامة الصليب على جبهة العروس والعريس بمحتوياتها. ثم فتح رداء الأخير من الأمام ورسم صليبًا آخر على صدره، ثم كشف عن ذراعيه ورسم عليهما العلامة ذاتها. وبعد فترة فاصلة أخرى، نزع قَلَنْسُوَةَ العريس الحمراء ووضع أخرى بيضاء مكانها، ثم وضع فوقها مرة أخرى القَلَنْسُوَةَ الحمراء. ثم- بعد فترة فاصلة- أخرج حبلًا أسود اللون ولفه حول جسد العريس من تحت ثوبه الخارجي، ثم خلع القَلَنْسُوَةَ الحمراء مرة أخرى وربط قطعة من الخيط القرمزي حول رأس العريس، وفعل الشيء نفسه للعروس التي لابد أنها كانت تكظم غيظها طيلة هذه الفترة!


قناة لسحب المياه من النيل

وعلى امتداد هذه الفترة، كان الحاضرون يثرثرون ويحملون في أيديهم شمعًا مصنوعًا من دهن الحيوانات، الذي أضفى ضوءًا خافتًا على المشهد. وعلى الرغم من السرعة التي كانت تُقرأ بها الصلوات، والثرثرة والإنشاد، والتكرار المستمر لنشيد «كيري إليزون Kyrie Eleison»(*) المتنوع بالزغاريت، فقد مرت ساعة على الأقل قبل أن يمسك الكاهن بقبضتيه رأس العريس والعروس في مشهد يبدو وكأنه سوف يضرب رأس أحدهما بالآخر، ولكنه اكتفى بضمهما، وبالتلويح بيده عليهما، فيما أعتقد أنه كان يباركهما. ثم حَلَّ الحبال والخيوط التي كان قد ربطها حولهما، والتي تعني - حسب ما أعتقد- أنه قد عقد رباطًا روحيًّا آخرَ بينهما. ثم فجأة نزع المنديل من فم العريس ونشره على ركبتيه. وللمرة الأولى، ساد هدوء مشحون بالهمسات الخافتة والتوقعات، ثم وُضِعت في المنديل بعض العملات الفضية فوق بعضها تصل إلى حوالي عشرة شلنات - حسب ما أعتقد- ثم نهض الكاهن فجأة ووضع بعضًا من هذا المال في جيبه، واستمر في توزيع الباقي على مساعديه الصغار، الأمر الذي تسبب في ظهور حالة من التذمر والغيظ والجدال حول كيفية تقسيم هذا المال الحرام.


مراكبي نيلي

(*) ترنيمة مسيحية مشهورة تُرتَّل في الأفراح. (المترجم)

ولقد بدا لي أن الرجل ذا الصنج قد نال أقل من حقه، وأنه يشاركني الرأي، على حين حاول كائن كهل كريه المنظر - يبدو أنه شماس الكنيسة أو ما شابه ذلك - خطف المبلغ كله. نال الكاهن - الذي كان أول من أخذ المال - قدرًا لا بأس به من الشتائم لأخذه أكثر مما يستحق. لكن النظام عاد بطريقة أو بأخرى إلى الاحتفال، ونهض العريس وسار نحو الباب. ومع ذلك، بدا التعامل مع العروس أكثر صعوبة، فلقد أرادت أمرًا ما لم أستطع تبيُّنه، لكن أمها وامرأتين أو ثلاثًا أخريات بدأن يَرْدَعْنَها بطريقة غريبة نوعًا عما أرادته. كانت العروس ضئيلة الجسم، فجرّتها النساء على المقعد



تاجر

مثل بالة من الملابس. وفي النهاية، وفي وسط صراعها، اندفع رجل - أحسَبُه أباها - ووضعها على كتفه، وخرج حاملًا إياها تتبعه بقية النسوة، فتسلقت اثنتان منهن بقرح محفّة مسطحة موضوعة على ظهر جمل كان رابضًا بالخارج، وحُشِرت العروس بينهما. مال الجملُ للأمام لدرجة أنني اعتقدتُ أنهن سيقعن على رأسه، ثم مال للخلف حتى بدا أنهن جميعًا سيقعن من وراء ذيله على الأرض، ثم وقف ثابتًا على قدميْه، ومضى يبطء وشموخ حاملًا على ظهره الحمولة الثمينة، في الوقت الملائم بالضبط، لكي يفسح طريقًا لموكب العروس الأرستقراطية التي كنت في بيتها خلال الليلة الماضية.

بمثل هذه الأعراس، يتنوع طابع الحياة الرتيبة لعامة الناس في ريف مصر؛ إذ تتشابه هذه الحياة


حمّال

لدرجة كبيرة مع حياة القاهريين، إلا أنها في الريف أكثر سكونًا وبطئًا. وفي الحقيقة، يؤدي الفلاح عملًا شاقًّا بالشادوف، لكن من الصعب القول بأنه يعمل أكثر من طاقته؛ فساكن مدينة الريف، مع ذلك، يؤدي بالكاد أي عمل على الإطلاق. وهناك القليل من الأنشطة التجارية التي يعمل فيها، فمعظم السلع التي تتطلب مهارة في صنعها تُستورد من الخارج، والصناعات القليلة المتبقية لا تتطلب عددًا كبيرًا من العمال، ولا تستغرق الكثير من وقتهم. ويمكن أن نرى في مدن الريف المصرية نشاطات وحرفًا مثل دباغة الجلود والصياغة وأعمال النجارة والخراطة البسيطة وصناعة النسيج بالأنوال الخشبية - التي تنال فيها أصابع اليد قسطًا من المعاناة - والغزل والسمكرة وصناعة الفخّار، وهذه الأخيرة ربما تكون أشد الصناعات جذبًا للسياح الذين لا يترددون أبدًا في شراء كراتين ضخمة ملأى بالنارجيلات الفخارية والمباخر وطفايات السجائر والشمعدانات وبعض الأعمال الفخارية الحمراء والسوداء المصنوعة في أسيوط.


آنية خزفية حمراء من أسيوط

وكذلك تشتهر القلل وأواني الماء الكبيرة (الأزيار) والبلاليص المصنوعة في قنا، والأقمشة الزرقاء المصبوغة المصنّعة في إسناء التي تشكّل المادة المميزة لملابس الفلاحين في مصر الوسطى والسفلى. لكن يبدو أنه لا أحد يجهد نفسه في أيٍّ من هذه الصناعات؛ فالحرفيّ لا يعمل إلا بقدر ما يشعر أنه يجب أن يفعل، ثم يُمتع نفسه بقسط خفيف من النوم «قيلولة». وهو يستيقظ مبكرًا إلى حدٍّ ما لأنه يتوقع أن يؤدي صلاة الفجر، وكذلك لأنه يعتبر أن النوم تحت الشمس المشرقة مضر بالصحة. لكنه يعوض طاقته الصباحية بتدخين أنفاس النرجيلة المريحة في المقهى المجاور، ويتناول إفطارًا بسيطًا مكونًا من الخبز والفول واللبن. ثم يبدأ في عمله - أيًّا كان هذا العمل - فيؤديه دائمًا بأسلوب رقيق ومتراخٍ معًا، لا مجال فيه لما يسمى بالسرعة. وإن حاولت أن تعجله، فستكون لديه الإجابة الجاهزة: «بُكْرَه إن شاء الله». ثم ينام في وسط النهار بعد غداء بسيط يتكون من الخبز والفواكه، ولا يبدأ في الحركة مرة أخرى حتى يمضي وقت العصر حيث يحث نفسه على أداء صلواته، وشرب قهوته، وتدخين نرجيلته، وأداء بعض الأنشطة. ومع اختفاء آخر شعاع ضوء عند غروب الشمس، يُسمَع صوت الأذان مرة أخرى من

المأذنة، فيغلق التاجر دكانه، وينحّي الصانع أدواته، ويَطوي العالم والكاتب والمتعلم كتبه. وبعد أداء صلاة العشاء، يتحرك المقيم بالمدينة الريفية بتأنٍّ، راجعًا إلىٰ بيته، حيث يكون عشاؤه في انتظاره بالفعل. في هذه الوجبة التي عادةً تعتبر الوجبة الرئيسية اليومية، يتصرّف كالشُّره؛ إذ تحضر زوجته الطعام علىٰ طاولة خشبية مقامة علىٰ قطع من الخشب أو قوائم قصيرة (طبلية). أساس الوجبة هو الخبز المصنوع من دقيق القمح، أو الدُّخن (دقيق الذرة)، أو الفطير غير المختمر، المخبوز علىٰ نار وقودها من روث البهائم.. فيلتهم منه كميات هائلة. كذلك تكون زوجته قد سلقت أو قَلَت له سمكة بالبصل والزيت، أو حمامة، أو دجاجة ساخنة، في طاجن من الفخار، يكون مذاق حسائها لذيذًا جدًّا عندما يغمس الفطير فيها. وأحيانًا يتم إحضار قطعة صغيرة من لحم الضأن أو اللحم البقري أو الجملي أو الماعز، وتُقدم معها البامية بالشوربة، أو ذلك السائل اللزج الشبيه بالسائغ المعروف بالملوخية.



ابريق خزفي أسود من أسيوط

ومع ذلك، فهذه تُعتبر أعلىٰ الأطباق. وعادةً ما يرتضي الناس في المساء أيضًا أكل الفول الذي أصبح الطبق الشعبي بلا منازع. وإذا أمكن، يجب أن يكون علىٰ المائدة صنفان أو ثلاثة، يذوقها ساكن المدينة الريفية دون استثناء لأي صنف، فيأخذ لقمة من هذا الصنف ثم لقمة من ذلك. وبصفة عامة، يَرضىٰ الفلاح من الطبقة الأدنىٰ بوجبة الخضار العادية، المكونة من الخبز، والثوم، والقصب، واللوبياء، والذرة، وثمار الدوم، ونادرًا ما يتناول اللحم أو البيض أو اللبن. وبعد وجبة العشاء، إما أن يظل صاحبنا الريفي في منزله يسلي نفسه مع حريمه، أو يتخذ موضعًا له أمام منزله متمددًا علىٰ أديم الشارع، أو يجلس القرفصاء وسط زمرة من جيرانه المسالمين. ونادرًا ما يزور المقهىٰ ثانيةً، أو يستدعي صديقًا لمنزله أو فناء بيته، هذا إذا كان له صديقٌ قادر ومستعد لجمع أصدقائه حوله لزيارة اجتماعية في المساء.



انية خزفية من اسيوط

يكفي ضوءُ القمر والنجوم لإنارة هذه الجلسات، وإن كانوا في الشتاء ووجب عليهم أن ينسحبوا لداخل الحجرة المظلمة، فيكفي الوميض الضعيف لمصباح الكيروسين. لا يوجد في هذا البلد ما يسمىٰ بالعمل الليلي، سواء أكان يدويًا أو ذهنيًا، حتىٰ بين المتعلمين. والكثير من الناس المكفوفين وضعاف البصر الذين يتجولون هنا لم تنتقل إليهم أمراضهم بسبب إرهاق

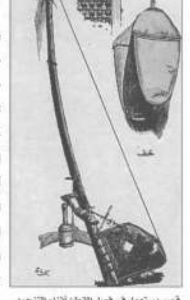
أعينهم. وكما هو الحال اليوم، سيكون كذلك غدًا؛ فمعظم الأحداث الهائلة التي تجري في العالم الخارجي الكبير لا يتأثر بها معظم الناس هنا، مهما كان ذلك الحدث.. حيث تصل الصحف إلى القليل جدًا منهم، والذين يفهمون ما في محتوياتها عددهم أقل منهم.

وأقصى الضرورات فقط هي التي تجعل المواطن يسافر في رحلة. وعندما يسافر فإنه يؤدي فريضة الحج إلى مكة، أو - في أشد الحالات - يذهب إلى بلد آخر ينتشر فيه الإسلام».[1]


اواني للماء


معلف للخيل

تقضي النسوة الفلاحات «أيام عمل» أكثر من أزواجهن؛ فهن يقمن بكل الأعمال المنزلية مثل الغسيل، والتنظيف، والطبخ، والعناية بالأطفال (حسب القواعد السائدة) وخبز الخُبز. يستيقظن قبل شروق الشمس، فيُعددن لأزواجهن القهوة، وأحيانًا يغتسلن في النيل، لكن هذا لا يعد واجبًا حتميًا. ولا يُثقلن أنفسهن بأداء الصلوات العديدة كالرجال، ونادرًا ما تجد امرأة تقية!


قوس يستعمل في فصل القطن أثناء التنجيد

ووسائل تسليتهن الرئيسية هي الذهاب للحمام، وعمل زيارات طويلة المدة إلى النسوة من صديقاتهن. مع ذلك، فمن الضروري ألّا يكون أي رجل حاضرًا في هذه اللقاءات البهيجة، حتى وإن كانوا أزواجهن. ولا تعير السيدة الريفية اهتمامًا كثيرًا إلى رؤية الرجال لها خارج أبواب بيتها. وعندما يصل المرء إلى النوبة، فإن السيدات ذوات البشرة الداكنة من أهل البلاد يبدو أنهن يُعفَيْن من ارتداء جزء كبير من الملابس الاعتيادية الهزيلة للفلاحات، لكن الرجال لا يشهدون الحفلات الصاخبة للحريم داخل البيوت. ولا تغادر بعض النساء المصريات بيوتهن بعد زواجهن، لكن الفقيرات منهن لا يتمتعن بهذه النعمة الفاضلة، حيث يجب أن يذهبن

(١) صعيد مصر، كلونزينجر، ص ١٥٨-١٦١. C.B. Klunzinger : "Upper Egypt ", pages 158-61.

لإحضار المياه من الآبار أو الترع، ويجمعن الحطب والعلف، ويشترين مستلزمات المنزل.

وكما نرى، فإن الحياة الريفية في مصر تعد أكثر هدوءًا ورتابةً من حياة الريف في وطننا. ففي الحقيقة، الناس هنا لهم احتفالاتهم الخاصة، لكنهم لا يعقدونها بالصخب والبهجة التي تميز مثيلاتها في العاصمة.. فالقهقهة الصاخبة نتيجةً لحركات المهرِّجين والمقلِّدين الغريبة، والإثارة التي يهيجها أداءُ الراقصات وتمايلُهن، تشكل مصدر ابتهاج الفلاحين الهستيري. ولا يزال بإمكان المرء أن يرى بالقرب من معبد الأقصر العظيم الأصول المتوارثة للتسلية البدائية التي أبهجت ملوك الفراعنة ورعاياهم، والتي أعاد رسمها مستر «تاديما» في لوحته المشهورة.

لكن الطابع البسيط لحياة الفلاح قليلًا ما يتعرض للصدمات العنيفة، ونادرًا ما تغيِّر الفرحة أو الإثارة من نمطها الرتيب. تشكل أعراس الزواج واحتفالات الميلاد وموالد الأولياء، التغيرات الأساسية في الروتين الهادئ للعمل المريح. وحتى البدو الذين تستوطن قبائلهم أطراف الأراضي الزراعية، والذين ترتبط حياة الترحال لديهم بالعديد من الخواطر والمعاني الرومانسية، لا يتمتعون إلا بالقليل فحسب من تنوع المناظر الجميلة، أو الإقامة الثابتة في أرض من الأراضي. إن عنايتهم بالماعز أو البقر، وانهماكهم في أعمال متباينة وتافهة مثل اللصوصية، والإغارات أحيانًا على القرى، تشكل تقريبًا حياةً رتيبة شبيهة بتلك الخاصة ببَذْر الحب وحصد المحاصيل أو تدخين الغليون أو النرجيلة. لكن البدو ليسوا مصريين، وعلى الرغم من أنهم يشكلون ميزة تصويرية في مشاهد مصر، فإننا نحتاج إلى مساحة لوصفهم.[1]

ومع ذلك، هناك «بدو» غير أولئك الذين يتجولون في السهول المصرية السفلى والسورية. إن كلمة «بدو»، التي تعني «هَمَجًا» في أوربا، هي جمع اللفظ «بدوي»، والذي يعني ببساطة رجل الصحراء. وهناك العديد من الأعراق تسكن الصحاري المصرية يطلق عليها اسم «البدو». وعند سفرنا نحو الجنوب، فإننا نقابل أنماطًا من الناس شديدة الاختلاف يُعْرَفون بأنهم بدو سوريا وشبه الجزيرة العربية. وعلى كل فرد يصل إلى أسوان أن يزور قرية البشاريات المجاورة إذا أراد أن يرى بعض أفضل الرجال وأجمل النساء في مصر.

---

(١) البدو في الصحراء الغربية والصحراء الشرقية وسيناء وغيرها عنصر أساسي من مواطني مصر، لهم ما لبقية المصريين من حقوق، وعليهم مثل ما عليهم من واجبات، وإن كان اهتمام أولي الأمر بشؤونهم أقل من اهتمامهم بسكان المدينة والريف. (المراجع)

الترويح في مصر القديمة. بريشة الرسام «ألما تاديما».

إن الأودية التي تتقاطع مع سلسلة الجبال الصخرية في الصحراء الواقعة في الجانب الشرقي من النيل، والمطلة على امتداد مجراه العلوي من الأحراج الاستوائية حتى أسيوط، قد استوطنتها من العصور الأولى قبائل العبابدة، وقبائل «الجيادي» الذين اعتاد الجغرافيون القدامى - ومنهم بلايني[1] - أن يلقبوهم بالمصطلحات المشهورة: «ساكنو الكهوف»، أو «آكلو الأسماك».

ويختلف العبابدة كليًّا عن البدو الذين يجوبون الصحراء في أقصى الشمال؛ فبدلًا من البشرة السمراء النقية والملامح الدقيقة للعربي الأصيل، يُظهر لنا العبابدة بشرةً برونزية داكنة - تقريبًا سوداء - وأنفًا مستقيمًا وتعبيرات دمثة ولطيفة. وشعرهم الأسود الطويل - الذي لا يتجعد أبدًا مثل شعر الزنوج - يلتف خلف الرأس، أو يُضفَّر في ضفائر طويلة تتدلى على أكتافهم، ويُصفَّف في المقدمة على شكل خصلة شعر قصيرة.. وهو بذلك مصدر للفخر والعناية المفرطة، وقد تضاف له كمية عشوائية من دهون التجميل. وتعتبر دبابيس عَقْد الشعر، وزبدية دهن الشعر، أدوات التجميل الأساسية للعبابدة.

وقد ألغت خصلة الشعر الغليظة الحاجة إلى قبعة أو عمامة أو أي غطاء للرأس. وبهذه الخصلة، إضافة إلى الثوب الخارجي الأبيض الفضفاض الذي يشكل كساءه الوحيد - هذا إذا ارتدى ثوبًا - ينتصب العبابدي مبيِّنًا الاختلاف القوي بينه وبين الفلاح والعربي.

والعبابدي مولَعٌ بالرماح والسيوف أو السكاكين، ولكنه ليس مقاتلًا أو صيادًا؛ فهو - على عكس العربي - لا يحمل أبدًا بندقية. وترتدي النساء عباءة بيضاء تغطي الصدرَ، لكنها تكشف الكتفَيْن والذراعَيْن، وثمة عباءة فضفاضة منتفخة فوق كل ذلك، يمكن سحبها على الرأس والجسم بأكمله. وفي الشتاء يرتدين الثياب البنية الصوفية التي تلبسها الفلاحات. ويضع الرجال أقراطًا في الأذن، وكذلك النساء، إضافة إلى تحليهن بأقراط الأنف والعقود وأسْوِرَة المعصم وخلاخيل القدم، والعديد من الحلي الأخرى مثل العقود الزجاجية، وخيوط الصدف الأبيض، وحلي نحاسية بقدر ما يستطعن جمعه.

ترجمان

وتعد خيمة البدو - الموضحة في الرسم المنقوش ص ١٠٦ - أكثر من مجرد ملجإ شديد الفخامة للعبابدي الطموح، ولذلك فعليه أن يرضى بكوخ رديء مصنوع من القليل من الأعمدة، ومغطى ومحاط بحُصُر مصنوعة من القش القديم تشكل الجدران والسقف المائل، ويُترك جانبٌ

(١) بلايني Pliny، جايوس بلاينيوس سيكوندوس (٢٣-٧٩ م)، عالم روماني في الطبيعيات وكاتب. (ويبستر - المُراجع).

واحدٌ مفتوحًا من ذلك المأوىٰ المستطيل، أو مغلقًا إلىٰ حدٍّ ما بستارة معلّقة، لتشكل بابًا.

«تبلغ أبعاد الفناء الداخلي عامةً ثلاث خطوات طولًا ونحو أربعة أقدام ارتفاعًا، بحيث يستطيع المرء فقط أن يجلس أو يستلقي بداخله. لكن - في الحقيقة - لا يستطيع ساكنو هذه المناطق عامةً تخيُّل أن هناك أية لذة أو ارتياح نفسي في الوقوف. وفي داخل هذا المسكن تعيش العائلة، حيث إن هناك في كل كوخ متسعًا لزوجين يعيشان معًا بحرية مع حشد من الأطفال. وبصفة عامة، يصل عدد الأكواخ في مستعمرة العبابدة من أربعة إلىٰ ثمانية أكواخ بهذا النمط، ارتباطًا بعدد العائلات. وفي القليل من المجتمعات السكانية كما في قرية لقيطة الصحراوية - التي تحتوي علىٰ حوالي خمسين منزلًا - وفي قرىٰ وادي النيل، وفي حي العبابدة بمدينة القصير، تخلّىٰ السكان بعض الشيء عن حياة الترحال والبداوة، حيث نرىٰ بيوتًا شبيهة بالجحور مبنية بالطين أو كسر الأحجار، بمثل طراز مساكن


في ظل صخرة ضخمة

فلاحي النيل. وقد يوجد العديد من السكان في الكهوف الطبيعية، وهم بالتالي "سكان كهوف" كما كان يطلق عليهم القدماء. ويعتبر السكن في هذه الكهوف خطرًا بعض الشيء بسبب الثعابين. وتوجد في الكهوف بقايا مثل بقايا جمرات الفرن، ورماد النيران والصخور السوداء... إلخ، والتي تُبين بصفة عامة أنها قد سُكنت ببشر، لفترة مؤقتة علىٰ الأقل. وكثيرًا ما تتوقف القوافل هنا من أجل استراحة القيلولة، فيطهون طعامهم بالداخل لتجنب حرارة الشمس أو هبوب الرياح. ومن الممكن أن نجد آثار ساكني الكهوف القدامىٰ إذا أجريت التنقيبات لأعماق كافية.

«تفي الأدوات المنزلية الأخرىٰ بغرض المعيشة في تلك البيوت البائسة؛ فهي تتكون من القليل من أوعية طبخ مصنوعة من الطمي أو حجر الطلق، وقِرَب للماء واللبن مصنوعة من الجلد، ودلاء جلدية، وأكواب خشبية للشرب، وزبدية خشبية أو جلدية يُحفظ فيها الطعام لحين الحاجة، والقليل من الأحجار المفتتة، وحصيرة مصنوعة من القش، أو سجادة بدائية الصنع من الصوف الخشن، والقليل من الحصىٰ المكوَّم عشوائيًّا فوق بعضه لاستخدامه كموقد. يحمل كل شيء الصبغة البدوية المؤقتة. ويستخدم البدو للقَطْع سكينًا حديديًا فقط، ولا يستخدمون حجر الصوّان - الذي تمتلئ به جبالهم المكونة من الحجر الجيري بدرجة كبيرة - لهذا الغرض، حيث يستخدمونه فقط لإشعال النار.

«الغذاء الرئيسي للعبابدة هو اللبن والذرة. ويستمتعون بالذرة إما مشوية أو نيئة، أو علىٰ شكل فطائر غير مختمرة، تُخبز علىٰ نار وقودها روث الجمال. والفواكه القليلة التي تقدمها الصحراء تشكل أيضًا معظم وجبات الطعام. ونادرًا ما يتمتعون باللحم الطازج، إذ إنهم يبيعون مواشيهم، وليست لديهم مهارة الصيد. ومع ذلك، فإن أي حيوانات برية يستطيعون اقتناصها يعتبرونها طعامًا لذيذًا، بما فيها الضباع والأرانب البرية واليرابيع والثعالب والغزلان.

وأولئك العبابدة الذين يعيشون على ساحل البحر الأحمر يقتاتون بشكل أساسي على السمك والرخويات. وحيث إن هذا الغذاء الهزيل هو طعامهم، فلا يُستغرب حينئذٍ أن يشعر العبابدي دائمًا بالجوع. وعندما تظهر إحدى القوافل طعامها، فدائمًا ما يظهر أحد أبناء الصحراء بعد شمّه رائحة الطعام من على مسافة. وهو لا يتسول.. لكن بخصوص الأشخاص الذين يأكلون مع هذا الجائع الشبيه بالكلب، ذي المظهر الجدير بالشفقة، لا يستطيعون إلا أن يدعوه لإشراكهم الطعام والشراب، خاصة مع المسلم، الذي لا يقْبل أبدًا حينما يأكل أن يدع غريبًا واقفًا دون أن يوجه إليه الدعوة لتناول الطعام. وعند نصب مخيم بجانب إحدى تجمعات العبابدة، فإن أقل إشارة تجلب أطفال البدو والجياع والعراة، فيتجمعون حول المخيم بلهفة تثير الاستمتاع، ويَملأون أفواههم بقطع الخبز واللحم المتبقية التي تقدّم إليهم، والتي لا يتسولونها منهم أبدًا. وما إن ينفض المخيم، حتى تنقض على الفور كائنات الصحراء الجائعة المختلفة على مخلفاته.



خيمة بدوية

«والعمل الأساسي للعبابدة هو تربية قطعان الأغنام وقيادة الجمال، فهم يربّون الجمال والماعز والخراف، ولا يربّون أبدًا الخيول أو المواشي، وقد يقتني بعضهم أيضًا حمارًا، وكلهم يمتلكون كلابًا. ويتاح الرعي فقط عندما تسقط الأمطار في الشتاء، فتُستدعى النباتات الخضراء إلى الظهور للحياة. وفي موسم الجفاف وسنوات القحط، كثيرًا ما يتوجّب على الرعاة أن يقوموا برحلات طويلة في الجبال لكي يجدوا مرعى، وإلا يتخلصون من قطعانهم، أو حتى يضطرون لتأجير أنفسهم لبعض الوقت للعمل في وادي النيل كمزارعين، أو في أي عمل آخر.. أما عندما تخضرّ أودية الصحراء من جديد، فمن المؤكد أنهم سيعودون ثانية إلى وطنهم المحبوب.

قيمة نباتات الصحراء كمادة غذائية قليلةٌ بلا شك، وبالتالي فإن ماشية العبابدة - مثل الناس أنفسهم - ضامرة وجائعة، على الرغم من أنها تتجول باستمرار على امتداد النهار والليل أيضًا.

وعند القيام برحلة مع جمل العبابدة، فإن على المرء أن يضع في حسبانه التأخير الذي تسببه عادةُ تناول الطعام الثابتة لديه. وتستغرق رحلة قوافل الماء من القصير إلى بئر ما على مسافة عشرة فراسخ حوالي ثلاثين ساعة، وهي عند العبابدة تستغرق ما بين يومين إلى ثلاثة أيام. ولا تمر جمال



العبابدة على شجيرات أو أجمات من دون أن تجردها، وهي لا تجد غضاضة في ذلك، حيث إنه ليس لها مصدر غذاء آخر، أما جمال الفلاحين عند سيرها في الصحراء - بجانب السماح لها ببعض الرعي في الصحراء - فإنها تُعلف دائمًا في فترة نصب الخيام بالتبن والفول المغذي. وغالبًا ما ينثر العبابدي أمام جماله ملء كيس من جذوع النباتات الجافة التي جمعها من الطريق أثناء النهار. لذلك، فإن جمال العبابدة دائمًا هزيلة، وليست مؤهلة لحمل الأحمال الثقيلة، غير أنها تتميز لنفس السبب وتشتهر بعدْوها السريع. ومن العادة لدى العبابدة أن يعلق على الجمل جيد العَدْو جلد ماعز رائع المنظر كغطاء، وخُرجان بزوائد طويلة، فيقوم برحلة طويلة لمدة ٤٠ فرسخا في ٢٠ أو ٣٠ ساعة(١)، بما فيها محطات التوقف الرئيسية. ويُعتبر كل العبابدة حُداةً ممتازين للجمال العربية وجيدة السنام.



بدوي

«يستمد العبابدة مورد رزقهم من تحويل منتجات بلادهم إلى نقود، إضافةً إلى رعي قطعان الأغنام. وهم على الأخص يمدون الناس بوقود ممتاز على شكل أخشاب وحطب وروث الجمال، وفحم نباتي ممتاز صنعوه بأنفسهم من خشب شجر السنط، ولذلك فهم أيضا مستهلكون للفحم النباتي. وكذلك فإنهم يجمعون النباتات المستخدمة كعلف، والأعشاب الطبية مثل أوراق السنامكي والحنظل، ونبات الأفستين والصمغ العربي الموجود على شجر السنط المتوافر بكثرة في الصحراء. وبعضهم الآخر يلتمسون أرزاقهم بحمل الماء على الجمال أو الحمير.

وفي القُصير، نظير كل حمل ماء على الجمل - الذي يتكون من ست قِرَب من جلد الماعز، ويستغرق جَلْبُهُ ثلاثة أيام كما ذكرنا - يحصل العبابدة، حسب سعر السوق الذي يتغير حسب الظروف، على مبلغ يتراوح ما بين شلن واحد وستة بنسات إلى ستة شلنات إنجليزية.

«يُعتبر الناس المقيمون على النيل الآن أكثر مهارة من العبابدة في قيادة الجمال والقوافل الكبيرة، لكن - حسب ما تذكر قصص الرحّالة - يبدو العبابدة فيما مضى أكثر مهارة في قيادة المسيرة. ويعيش بعضهم بالقرب من طرق القوافل. وبجانب تربيتهم للقطعان، يحصلون على بعض الدخل من الخدمات المتنوعة التي يؤدونها للقوافل المارة، أو المخيِّمة بالقرب منهم؛ مثل إحضار الماء، وأفرع الشجر والأخشاب، وسقي الجمال، والحمل والتفريغ... إلخ.

ونظير هذه الخدمات، يحصلون من سائقي الجمال على القليل من حفنات الذرة والحبوب.

---

(١) (الفرسخ) يُقدر بثلاثة أميال، أي خمسة كيلومترات تقريبًا. (المترجم)

كذلك فإنهم يتمركزون هنا كحراس للطريق، ويقال إنهم يحصلون على مبالغ نقدية من رئيسهم مقابل هذا الواجب، لكن لا تبدو هذه المبالغ كبيرة. وإن كان هناك انقطاع في خط سير القوافل الذي يمثل بشكل رئيسي طريقهم لتصدير الغلال من مصر؛ فإن حراس الطريق يفككون أكواخهم وينتقلون إلى مكان آخر.

يعيّن القليل من العبابدة كسائقي جمال إلى محطات النجّارين الذين يعملون على صيانة أسلاك تلغراف الصحراء. وقد شيدت الحكومة بالفعل لهؤلاء النجارين مساكن من الحجر مبنية كهياكل ثابتة نسبيًّا.


سرج الجمل العربي ذي السنام الواحد

وأخيرًا، يعيش الكثير من العبابدة كسائقي جمال يعملون في خدمة سادة آخرين، أو يصطحبون عبر الصحراء قطعان الماشية التي يجلبها التجار، أو كصيادين وجامعي أصداف كحرفة إضافية. وكما ذكرنا بالفعل، فإن عددًا كبيرًا منهم قد استقر في وادي النيل واحترف الزراعة. وهناك أيضًا رأوا أن يرتبط بعضهم ببعض، فبنوا قرى لأنفسهم، ولم يخالطوا الفلاحين بسهولة.

«وتدار تجارتهم في البلاد التي استوطنوها بالمال، غير أنها تدار فيما بينهم بالمقايضة بدرجة أكبر. وبناءً على ذلك، فإن النساء في داخل مجتمعاتهم قلما يعرفن قيمة المال. وعندما يرغب المرء في جلب أي شيء منهن – مثل الخشب أو اللبن – فإنهن لا يعطينه إياه مقابل مبلغ كبير من المال، ولكن يعطينه ما يطلبه نظير قطعة من الخبز، أو بعض الذرة، أو قطعة من الملابس»[1].

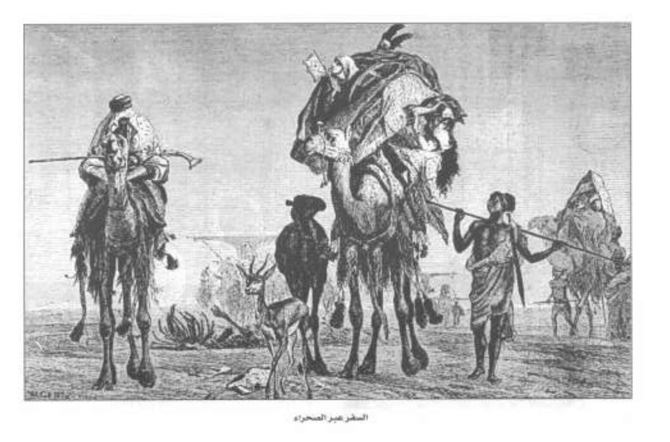
ويتمتع الدكتور كلونزينجر – الذي اقتبسنا من كتابه الوصف التصويري السابق للعبابدة – بأروع وصف لهذا العرق من كافة النواحي. إن بنيتهم الجسدية نبيلة وجميلة. وهم شديدو الذكاء فيما يختص بنطاق اهتماماتهم، وشخصيتهم خجولة وحَذِرَة ومسالمة وشريفة. ومع ذلك، فإن فقرهم يجبرهم على تجنب القيم الجميلة للعرب. إن حاتمًا الطائي – الذي ذبح فرسه حتى لا يدع ضيفه الغريب الذي نزل به يمشي جوعانًا – يُعد شخصية مثالية لا يسير غورَها الأشخاصُ الذين لم يعرفوا الغِنَىٰ قط، ولم يجربوا على الإطلاق فرحة الرخاء والتبذير، والذين هم مصابون تقريبًا بالجوع الدائم. إن عابر السبيل الذي ضل طريقه، والبحّار الذي غرقت سفينته وألقته الأمواج على ساحلهم، سيلقيان استراحة «فاترة» في أيادي العبابدة، ما لم يكن معهما مال أو يستطيعان أن يقدما تأمينًا معقولًا. ففي مفهوم العبابدي للشرف وكرم الضيافة، تعود الأولوية المطلقة لكرم أخلاق

(١) صعيد مصر، كلونزينجر: ص ٢٧٥–٢٨٥. | C. B.Klunzinger : " Upper Egypt ," pages 275-285 , &.

العربي القديم، ولكن حيث إنه تعلّم الجشع والبخل من الأوروبيين، فقد نشكّ في أن فضائله الفطرية النقية لا تزال لديه.



جدال ومساومة



السفر عبر الصحراء

العبابدة مسلمون ذوو طباع سَمْحَة، يؤدون فروض الإسلام، ويتكلمون بلهجة عربية مختلطة يحافظون عليها بسرية مطلقة. وكقاعدة، فهم يتزوجون مرة واحدة في العمر بسبب التكلفة. ومع ذلك، فإنهم يلتزمون بعقد الزواج فيما بينهم بشكل أقل صرامة من الفلاحين. ولهم طقوسهم الخاصة بالزواج وما شابه. ويكومون الأحجار على مقابر موتاهم على نمط سلوك تراكم الحجارة الذي اتبعه أسلافنا السُّلتيُّون[1]. ومن نواح مختلفة، فهم يُعَدون أكثر الناس إثارة للفضول والاهتمام في مصر. ويقدِّر الدكتور كلونزينجر أعدادهم بنحو ثلاثين ألفًا. ويحكمهم رئيس بنظام وراثي، وهو الذي يعيِّن ويسيطر ويفصل الشيوخ التابعين للأحياء الرئيسية. وعلى الرغم من أنه يتبع الخديو اسميًا، إلا أنه لا يدفع أية ضرائب، بل - على العكس - يحصل على نوع من الإعانة الحكومية، المشتقة من جزء من رسوم الطرق التي تُفرَض على القوافل التي تعبر بلاد العبابدة؛ إذ يقوم هذا الرئيس ومساعدوه وأكابر القبائل سنًّا بتسوية المنازعات الداخلية. ولا شأن للحكومة المصرية بأفراد العشائر؛ فلا تفرض عليهم ضرائب، ولا ترغمهم على الالتحاق بالجيش. ومع ذلك، يعد الرئيس شخصيًّا مسئولًا عن تأمين سير المسافرين في طرق القوافل التي تعبر بلاده، ويقدم لها الجمالَ والأدِلَّاء. ونظرًا لأنه يعيش بنفسه في وادي النيل، فيُحتفظ به كضمان أو رهينة لضمان أمان طرق الصحراء.

«إن محمد علي هو مَن أدخل نظام الرهائن هذا بين البدو، وكانت نتيجة هذا الإجراء الاحترازي الحكيم أنه أسس السلام والأمن المطلق في هذه القطاعات غير الآهلة بالسكان. فقبل توليه الحكم، كان هؤلاء العبابدة، وكل البدو الآخرين، قطَّاع طرق يُخشىٰ بأسهم كثيرًا، وكانوا من وقت لآخر يشُنُّون غارات على المناطق المزروعة، ولهذا كان التجار والحجاج (حتى في عصر الرحّالة بوركهارت مؤخرًا)



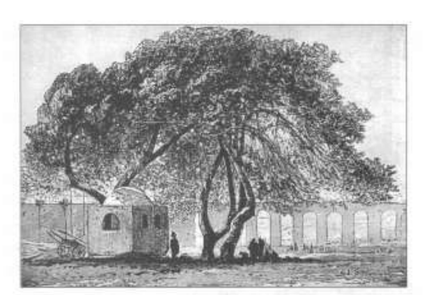
بدوي — قرط لامرأة نوبية — غلام من النوبة

لا يجرؤون على عبور الصحراء إلا إذا كانوا مسلحين ومتجمعين في قوافل كبيرة. وقد تغير الوضع الآن تمامًا، لدرجة أن البضائع والأشياء الضائعة يمكن إعادتها بإعطاء أوصافها لأحد مشايخ العبابدة».[2]

---

(١) السلتيون : شعب قديم يقطن وسط وغرب أوروبا، ويضم الغاليين والبريطانيين. وهم قوم يتكلمون لغة السلت celt في بريطانيا وأيرلندا وويلز ومرتفعات إسكتلندا (ويبستر — المراجع).

(٢) صعيد مصر ، كلونزينجر ، ص ٢٥٥. Klunzinger : " Upper Egypt" , page 255 .



ضريح في أطراف مدينة القاهرة

الفصل الثالث

المدرسة والمسجد

لا ريب أن نظام التعليم في مصر لا يُعتبر منفتحًا إلىٰ حدٍّ يسمح بتطويره كُلِّيًا أو الوصول به لدرجة الكمال. هذا علىٰ الرغم من أن النبي محمدًا قد عبّر أبلغ تعبير عن فضائل العلم والمعرفة، فقال: «**مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع. وإن العالِم ليَستغفرُ له من في السماوات ومن في الأرض حتىٰ الحيتان في الماء. وفضلُ العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب**». وعلىٰ الرغم من أنه قد لوحظ توقيرُ المسلمين - أتباع النبي - للعلماء، فغالبًا لا يمكن القول إن لديهم - هم أنفسهم - قدرًا من العلم. حقًا، يُظهِر العديد منهم حماسًا جديرًا بالثناء في سعيهم إلىٰ العلوم الدينية والمذهبية وعلوم التفسير في جامعة الأزهر، لكن عقولهم - خارج المعرفة الدينية التقليدية - ضعيفة الاستيعاب للتعلّم، أو حتىٰ لاكتساب المعلومات العامة. إنهم شديدو الفطنة عند مناقشة

تفسير آية من آيات القرآن محلّ جدل، لكن عند مناقشة مسألة في العلوم، أو الأدب، أو اللغات الأجنبية، أو الفلسفة وأعلامها، أو التاريخ، فإنهم بالطبع يبدون جهلاً لأبعد مدى. وفي الحقيقة، يُعَد تعليمُ الولد الذكي آخر شيء يضعه الأب في اعتباره بخصوص تربية ابنه؛ فأول أهداف الأب المصري هو أن يُعلّم ابنه أركان الإسلام، ويدربه على السلوك المؤدّب. وبخصوص ذلك الأمر الأخير، فإننا لا نجد شيئًا معيبًا فيه. وبصفة عامة، يُعد الطفل المصري إنسانًا شديد التهذيب، فإن إقامته الطويلة في الحريم - حيث يتعوّد على التصرف بنفسه بدماثة بين النساء - تمدُّه بثقة في نفسه، وبجمالٍ في طبعه وسلوكه. كما أن الرهبة التي يوقر بها النساءُ ربَّ المنزل، تولّد إحساسًا جيدًا من احترام الابن لأبيه. يقول النبي محمد: «**رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد**». وبناءً على هذا القول المأثور، يوجّه الأطفال في الشرق سلوكَهم تجاه آبائهم؛ إذ يقف الابن الصغير باحترام وتوقير أمام أبيه، ويقبّل يده، ولا يجلس إطلاقًا إلا إذا أذن له أبوه بذلك. والابن البالغ لا يدخن أو يستلقي أمام أبيه. وقد رأيت أبناءً في سن الثلاثين والأربعين يقفون بأدب إلى جوار أبيهم ريثما يأكل الطعام، ويرفضون تمامًا تناول أي شيء حتى ينتهي والدُهم من تناول طعامه. إن غرس احترام الآباء والكبار بعناية يؤدي إلى أفضل النتائج في التربية


نافذة مسجد واسعة

الظاهرية للمحمديين. ولا شيء يثير اندهاش الرحّالة الأوروبي لدرجة عظمى أكثر من السلوكيات اللطيفة والمهذبة للمصريين من كل الطبقات. إنهم دائمًا يفعلون الأمر الصحيح بأكثر الأساليب تلقائية ونبلاً وثقةً بالنفس، والفظاظة المتعمّدة نحو رجل أكبر سنًّا أو أعلى مقامًا تُعد تقريبًا غير معروفة وسط القاهريين، ويعدُّ الطفل العاق أندر ما في الوجود.

ولكن بخلاف السلوكيات والتعاليم الدينية المجرّدة، لا يُعلّم الأبُ ابنه شيئًا، نتيجة للسبب الفريد الذي فحواه أنّ الأبَ نفسه نادرًا ما يعرف أي شيء! يتعلم الطفل - عن طريق الأب ومدرِّس الكُتّاب - القليل بخلاف كيفية أداء صلواته (والتي نادرًا ما يبدأ في أدائها حتى يبلُغ)، وكيف يتوضأ استعدادًا للصلاة، وكيف يرتل القرآن، وكيف يقرأ. وأول شيء على الإطلاق يحدث للطفل التعيس بعد ولادته هو أن يؤذِّن رجُلٌ في أذنه بالأذان أو النداء للصلاة:


مدخل مسجد وضريح قايتباي

«الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله. أشهد أن محمدًا رسول الله. حي على الصلاة. حي على الصلاة. حي على الفلاح. حي على الفلاح. الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله»[1]. وبعد ذلك الطقس، يعوِّدون الطفل على عدم الخوف من الضوضاء، فتدق[2] امرأةٌ بيد الهاون في هاون نُحاسي بالقرب من أذنه، ثم يوضع بعد ذلك في غربال ويُرَجّ جسدُه بشكل كامل.

يستمر التعليم الديني - الذي بدأ بذلك الأداء السالف ذكرُه - بمجرد أن يبدأ الطفل في الكلام، حيث يعلمه أبوه كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله. محمد رسول الله»، ويضيف إليها: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[3]. ثم يتوالى تعليمه آيات مفضّلة معينة من القرآن. وعندما يبلغ الطفل خمسَ أو ستَّ سنوات، يُرسَل إلى مدرسة عامة[4]، وتُلحَق مدرسةٌ من هذا النوع بكل مسجد وسبيل في القاهرة تقريبًا، وكذلك في مدن الريف.

---

(١) الصحيح أن من السُّنّة أن يؤذَّن في الأذن اليمنى، وأن تقام الصلاة في الأذن اليسرى. (المترجم).

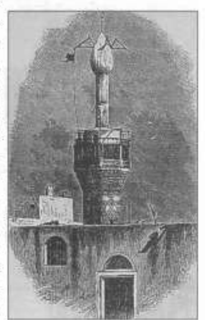
(٢) الصحيح أن ذلك لا يكون بعد الولادة مباشرةً، بل بعد أسبوع من يوم المولد في الاحتفال المعروف بالسبوع (المترجم).

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١١٦ (المترجم).

(٤) يقصد بكلمة المدرسة في هذا السياق وعلى امتداد الفصل: الكُتّاب. (المترجم)

(ثمة لوحة منقوشة على الإسبيل للمدرسة الملحقة بمسجد السلطان حسن، معروضة في صـ١٢٢).

تتكون المدرسة من غرفة واحدة، حيث يتجمع الطلاب - القليلو العدد لدرجة لا تصل لتكوين فصل واحد - أمام معلمهم جالسين القرفصاء[١] في صفوف، وهو بذلك يزوِّدهم بقدر كافٍ مما يمكن القول إنه تعليم مهذب في مصر، نظير مبلغ نقدي زهيد. ويتكوَّن هذا التعليم أولًا من تعلُّم الأبجدية، التي يكتبها المعلم بحروف كبيرة على لوح أبيض صغير يحمله الطلّاب في أيديهم. وبعد ذلك يتعلمون القراءة بخطوات سهلة، ولكن في حالات كثيرة لا يتم هذا الإنجاز على النحو المطلوب، فينتقل الطالب إلى حفظ القرآن، أو جزء منه، عن ظهر قلب. وتعد القدرة على تلاوة جزء معين من القرآن ضرورية من أجل أداء شعائر الدين الإسلامي، الذي يستطيع معظم الناس تحصيله في مصر بشكل جيد جدًّا دون أن يبرعوا في القراءة. وبالتالي، يُعد تعليمُ القرآن الوظيفةَ الأساسية للمدرسة، والقراءة هي السبيل المباشر إلى تلك الغاية المقصودة.



مئذنة مسجد في الإسكندرية

تُخصَّص للطالب سورة معينة من المصحف، الذي يوضع مفتوحًا على مقعد صغير مصنوع من جريد النخيل، فيَشْرَع الطالب في حفظه عن ظهر قلب بترتيله بصوت عالٍ بأسلوب غنائي، مُرَدِّدًا جسمه للأمام وللوراء مع تكرار الآيات وتناغمها. وليس من الصعب التحقق متى تكون المدرسة في فترة العمل، فإن جلبة الضوضاء المشوّشة الناشئة عن الترتيل المتزامن في وقت واحد للأجزاء المختلفة من القرآن تُسمع من مسافات بعيدة.

هذا عمومًا هو كل ما يتعلمه الولد في المدرسة. وفي الحقيقة، إن مدرّسه لا يستطيع أن يعلِّمه أكثر من ذلك.. فذلك الرجل الكفء يعرف منهجه من القرآن، ويستطيع أن يغرسه في عقول طلابه بضربهم على رؤوسهم بالخيزرانة؛ لكنه - مع هذا - جاهل تمامًا، بل أحيانًا لا يستطيع القراءة،

(١) وضع التربيع كما هو معروف في المساجد. (المترجم).

ولذلك فعليه أن يحضر مدرسًا من بين تلاميذه ليكتب الأبجدية وينسخ الجُمَل بحجة أن نظره ضعيف. لا تدرَّس الكتابة عادةً في المدرسة، ولا تشعر الطبقات الدنيا بأي ضرورة لهذا الإنجاز، إذ دائمًا ما يلجأ أفرادُها إلى الكتبة الشعبيين في حالة كتابة خطاب في ظروف نادرة. لهذا يجب على الطالب تعلُّم الحساب والقراءة والكتابة، أو تحصيلها من معلمين آخرين. وإذا رغب الطالب في الحصول على قمة التعليم المصري، فعليه أن يحضر الفصول في المسجد الجامع المسمى «الأزهر». فمن الناحية النظرية، يُعد هذا المسجد مؤسسة محترمة؛ فهو مسجد تحيط بصحنه الكبير المفتوح أروقة مسقوفة porticoes، كلٌّ منها مقسم إلى أقسام مختلفة تسمَّى باللغة العربية «رواقًا»، وهي مخصصة للاستعمال المنفصل للطلاب من الأمم المختلفة. فعلى سبيل المثال، إن أحد الأروقة مخصص لطلبة المغرب، وآخر للطلبة المكِّيين، وثالث للشوام، ورابع للأتراك، وهكذا.

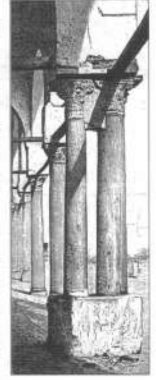


مئذنة حديثة بالقاهرة

يأتي الشباب المتحمسون لطلب العلم إلى هنا من أقصى بلاد العالم الإسلامي: من غرب إفريقيا ومن الهند، ومن شبه جزيرة الملايو، ليتعلَّموا أنقى علوم الدين الإسلامي، والنحو، وعلم العَروض، وعلم البيان والبلاغة، وتفسير القرآن، والحديث الشريف، والفقه، وكل ما يختص بالنظام العلمي الإسلامي. يشرح الأساتذة المتعلمون هذه العلوم وفق مناهج المذاهب السنِّية الأربعة للإسلام لمجموعات متحمسة من الطلبة يجلسون أمامهم على الأرض في شبه دائرة، تمامًا مثل الطلبة الصغار في المدرسة التمهيدية، ويتمايلون للأمام والخلف عندما يحفظون بعض الجُمَل المهمة، أو بعض الأمثلة الأساسية للبلاغة العربية وفضائل علم العَروض، تمامًا كما كانوا يتمايلون من قبل عند تلاوتهم القرآن أمام معلِّمهم الكهل سريع الغضب في المدرسة.

لكن وإن كانت الرسوم المقدمة للمعلم في المدرسة زهيدة، فإن التعلم في الأزهر مجاني تمامًا. وأعظم الرجال المتعلمين في مصر، وكذلك في البلاد المحيطة بمصر، يجيئون إلى هنا ليدرِّسوا حصيلة علمهم دون مقابل.

يتسلم الطلبة يوميًا كميات من الطعام تمدّهم بها المِنَحُ الخاصة بالأروقة المنتسبين إليها، و هذه المنح مصدرها أوقاف الناس الأتقياء الذين يرغبون في سلوك طريقهم الخاص إلى الجنة. ونظرًا لأن هؤلاء الطلبة - السائرين الجادّين على طريق العلم والمعرفة - شديدو الفقر، فهم يزيدون من موارد أرزاقهم بقدر ضئيل عن طريق إعطاء دروس مخصوصة ونَسْخ المخطوطات. وبالأساليب ذاتها، وبتلاوة القرآن في الاحتفالات، فإن الأساتذة الذين كرّسوا حياتهم لإلقاء الدروس في الأزهر يدبرون وسيلة معيشتهم وأرزاقهم. فبعد مرور بعض السنوات من التدريس بالأزهر، غالبًا ما يصبحون قضاة شرعيين، أو مُفتين، أو أئمة مساجد، أو مدرّسين، لكن بعضهم يظلون طيلة حياتهم في الأزهر، وينالون الشرف المأمول بأن ينضموا إلى «علماء» أو «مشايخ» الجامع الأزهر.



الموضع المسمى "عين الإبرة" في مسجد عمرو بن العاص

وفي الحقيقة، يُعدّ الأزهر جامعة الإسلام. ويُرى تأثيره في أي مكان يُعتنق فيه الإسلام على الإطلاق، ويتجمع طلبته من كل أجزاء العالم الإسلامي. إذ ترى فيه شيئًا من الحماسة القديمة والبحث المَحض عن العلم والحكمة التي ميزت جامعات أوروبا في القرن الثاني عشر العظيم، عندما خرّجت علماء، لا نبلاء الدول، وأعدّت الرجال لحياة جادة للدراسة، وليس للحصول على لقب اللوردات والانتساب لنادي مورتليك.

يُعد نظام التعليم بالأزهر مثاليًا جدًا، فالشباب الفقير الذين يجيئون إليه يُرحّب بهم على الفور، ويتعلّمون كل ما يعرفه الأساتذة، وهذا ما يرادف معنى التعليم الإسلامي. ويتلقى الطالب أعلى تعليمًا يمكن أن يتلقاه المسلم، بالطرق الإسلامية، دون الحاجة إلى دفع قرش واحد. وعندما تقف وسط حشود الطلبة، الذين يعج الأزهر بعشرة آلاف منهم كل عام، لا تستطيع عند مقارنة الغاية من هذه الجامعة الإسلامية وجامعتي أوكسفورد وكامبردج

البريطانيين، إلا أن نستشعر الخجل ونتعجب أنه مع كل تقدّمنا الذي نفتخر به، لا نزال حتى الآن متخلفين عن عِرق أجنبي غير متقدم بالنسبة إلينا، حيث لم نكتشف بعد أن التعليم حقٌّ طبيعي لكل مواطن، وأن الدولة يجب أن توفر ذلك التعليم دون مقابل مادي أو ثمن لكل فرد من أفرادها.

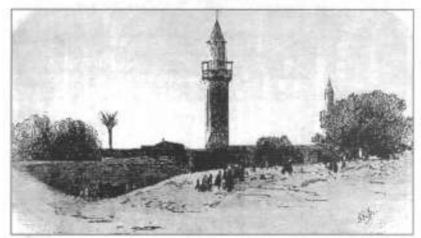
وبدلًا من رسوم الكلية، ورسوم الجامعة، وضرائب المعارك الحربية، ورسوم الخدم، ورسوم المحاضرات، ورسوم الأساتذة الجامعيين، ورسوم الامتحانات، ورسوم الدرجات العلمية، فإن الطلبة الدارسين بالأزهر يتسلمون - إلى حدٍّ ما - الوجبات الغذائية مجانًا، ويتعلمون بلا مقابل، ويتسلمون إجازة (ليسانس) عن تفوقهم وبراعتهم كمدرّسين وطلاب. وبدلًا من حفلات الخمور و«عشاء شرب الأنخاب»، فإنهم يتجمعون معًا على كسرة من الخبز وزجاجة من الماء ليتناقشوا في مسائل النحو وتفسير القرآن، ويصابون بالصداع من إعمال الفكر وليس من الشرب حتى الثمالة. وبدلًا من مضايقة آبائهم بدفع فواتير خياطة وتفصيل ملابسهم، واشتراكات نادي اليخوت ونادي الكروكيه وكل النوادي الأخرى، فإن طلبة الأزهر يديرون مصاريف معيشتهم المقتصدة بأنفسهم.

إن أية مقارنة بين الطرفين ستكون في صالح جامع الأزهر بالقاهرة، ما دام «المبدأ» هو أساس المقارنة، ورغم أن الحقيقة المؤسفة هي أن المواد التي يتعلمها الطلاب في الأزهر قد تُعدّ أقل إفادةً في حياتهم بعد ذلك - مثل فن التفعيلات السداسي في علم العروض والقوافي - فإنها لا تنتقص من جمال النظام التعليمي. إن التدريب في الأزهر بلا شك خاطئ وعتيق؛ إذ تنتمي علوم النحو والبلاغة والبيان والإفتاء إلى عصر علماء القرون الوسطى، وتعتبر ذات فائدة عملية ضئيلة للمتعلمين، ما عدا - ربما - اعتبارها فرعًا من فروع المعرفة العقلية. وإضافة إلى ذلك، تميل نزعة هذه الدراسات حتمًا إلى التعصب؛ فالعلماء وأساتذة الأزهر - كقاعدة - متعصبون لعرقهم، وأحيانًا يبدو من المستحيل لمسيحي أن تطأ قدماه الأزهر دون التعرض لخطر السب أو حتى للأذى الجسدي. لكنْ في الوقت الحاضر، غرست حامية بريطانية في الذهن رؤًى أكثر تسامحًا[1]، ولولا هذه القوة العسكرية الاحتياطية، لم يكن يجرؤ أوروبي على الدخول إلى حرم الأزهر هذا العام.

---

(١) هذه هي نظرة المستعمر دائمًا لتبرير أساليب الاستعمارية ؛ والعبارة المكتوبة هنا تمثل دس السم في داخل العسل ، فمبدأ الاستعمار : «فرّق تسد». ولقد أوصى الدين الإسلامي بالتسامح مع الجار ، وخاصة إذا كان مسيحيًا ، لنص الآية القرآنية ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ سورة المائدة: ٨٢. (المراجع)

لقد ثبت أن تعليم المصريين يُعَدُّ تقريبًا في مجمله تعليمًا دينيًّا؛ فمهما كان التدريس هناك عن العلوم والتاريخ واللغات أو أي شيء غير مرتبط بالقرآن، فهو عمل يختص به المدرسون الأوروبيون أو المدارس القليلة التي أُنشئت على النموذج الأوروبي. تعمل هذه المدارس وفق نظام جيد، وعلى الرغم من ذلك فهو بطيء جدًّا وتدريجي، لكن المسلمين السُّنِّيِّين يرفضون - بطبيعة الحال - المؤسسات التعليمية التي بها لمسة من أساليب الفرنجة الكفار. ويتعلم المصري البسيط - كما رأينا - القليل بخلاف القرآن والصلوات والفروض الأخرى لدينهم.



الواجهة الخارجية لمسجد عمرو بن العاص في حي «مصر» القديمة

والآن، تصبح ماهية هذا الدين في أشد الحاجة إلى الشرح. يُسمَّى هذا الدين «الإسلام» أو «إسلام النفس»؛ أي «إسلام الأمور لله»، وقد نشره محمد في بداية القرن السابع الميلادي. وكان انتشار هذا الدين سريعًا جدًّا، لدرجة أن الناس قد اعتنقوه من المحيط الأطلسي إلى بحر قزوين في أقل من قرن. ويُعد الإسلام تطويرًا للديانة اليهودية؛ بعد أن عُدِّلَتْ لتلائم طبيعة العرب(١)، واختلط مع الكثير من المعتقدات الخرافية(٢) والشعائر الدينية التي تنتمي لشبه الجزيرة العربية.

مصدر معرفتنا لهذه الديانة هو القرآن.. ذلك الكتاب (السِّجل) العجيب والمركَّب الذي

(١) هذا الزعم مردود عليه ومرفوض، ويمثل تكرارًا لما يدَّعيه اليهود على الإسلام، أمثال جولد تسهير وجوينتلي وغيرهما وقد ردّ على هذا الزعم العديد من العلماء والأساتذة والمفكرين الإسلاميين. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (المترجم).

(٢) وصفها النص الإنجليزي بالخرافات (superstations)، وهي في الواقع معجزات miracles. (المراجع)

يتضمن مواقف من سيرة محمد الزاخرة بالمواعظ المثيرة لعواطف المسلمين، وقصصًا ملحمية مدروسة، وتشريعات، وأوامر، وفروضًا إلهية، وشعائر الدين، والعديد من الأمور المختلفة [1]. ومع ذلك، فمن الخطإ أن نتصور أن القرآن مجرد كتاب يقدم نظامًا عقائديًا، أو مدوّنة لقوانين



الأروقة المقنطرة الشرقية بمسجد عمرو بن العاص

وتشريعات؛ فإن حجم التعاليم الأخلاقية المُتشدّدة، والأوامر الإلهية فيه، صغيرٌ لدرجة تلفت النظر، والقسم الأكبر من الكتاب يتألف من دعوات للناس بالعقل والقلب لأن يتركوا عبادة أصنامهم ويتحولوا لعبادة الله الواحد الحيّ، وتصويرات حية وشديدة للنهاية الرهيبة لأولئك الذين يرفضون الإيمان بالله، والعاقبة الحسنة للمؤمنين في جنة الله [2]. ويتألف كذلك من ضرب الأمثلة،

---

(١) انظر ستانلي لين بول: «خطب وأحاديث النبي محمد» (مكملان).
See S.Lane- Poole : "The speeches and Table-Talk of the Prophet Muhammad." (Macmillan)
(٢) قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ سورة الكهف: ٤٩. (المراجع).

والدعوة للتفكر في الظواهر الطبيعية، والنجوم والشمس وفصول السنة، وإعادة إحياء الأرض والنباتات في الربيع، والتأمل في دلائل الرعد وعمق البحار. كل ذلك يستخدم للغرض الأوحد؛ وهو توضيحُ عظمةِ وجلال الإله الواحد لعقول وأفئدة مستمعي القرآن، الذي تعد عبادته وطاعته مصدر سعادة الإنسان العظمىٰ، والذي كانت العبودية له غاية محمد الأسمىٰ. ومهمته التي قضىٰ فيها عمره هي الوعظ والدعوة إلىٰ أداء الصلوات والدعاء والإنذار من عذاب الله، والتضرع إلىٰ الله، والجدال والتحذير. هذه العبادة لله الواحد الأحد هي الإسلام.. دين محمد.. وهي صورة من التوحيد الخالص البسيط والصارم والصحيح. وهي ديانة رفيعة في مفهومها عن العلاقة بين الإنسان والله، ونبيلة في تعاليمها عن حق الإنسان علىٰ أخيه الإنسان.

ومن الناحية العملية، قد تكون تلك الديانة جامدة شكلية؛ فهي تضع نبيًّا وكتابًا بين الإنسان وخالقه، كما تفتقر إلىٰ المحبة الموجودة في المسيحية.. لكنها - من ناحية عقيدة التوحيد العليا والصادقة في معناها - تعد رفيعة وسامية إلىٰ أعلىٰ درجة[1].

لطالما وجد الرجالُ الذين نشئوا علىٰ المفاهيم الأوروبية للدين صعوبةً في تفهُّم الجاذبية التي تحتويها عقيدةُ المسلم و التي تنعكس علىٰ عقول وأفئدة الناس في الشرق. «لا إله إلا الله. محمد رسول الله». لا شيء في هذا - حسبما يقولون - يهز شغاف القلب. ومع ذلك، فقد أوقدت هذه العقيدة حماسًا لم ينطفئ قطّ، وكان للإسلام شهداؤه الذين عذبوا أنفسهم في سبيله، وزهّاده الذين رفضوا كل متع الحياة، وتقبلوا الموت بابتسامة من أجل الإيمان الذي بداخل قلوبهم. ومن السذاجة أن نقول إنّ السعادة الأبدية في الآخرة هي التي تفسر ذلك؛ فالشهداء الحقيقيون للإسلام - كما في المسيحية - لم يموتوا لينعموا بالجنة.. ولو كان ذلك صحيحًا، فإن الإيمان بوعود العقيدة يجب أن يعقب القبولَ القلبي للدين. ولابد للإسلام من قوة يستولي بها علىٰ إيمان الناس قبل أن يلهمهم هذا الشوق للجنة التي وعدهم بها.

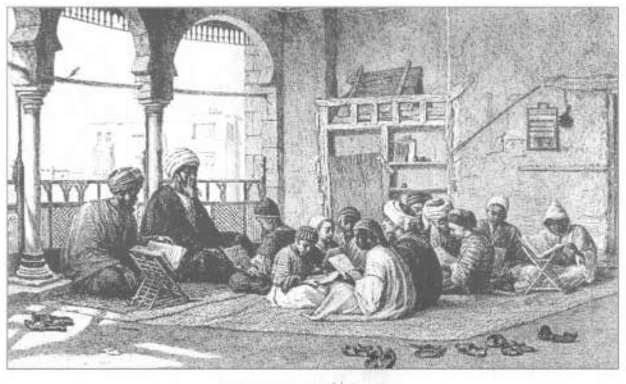
أظن أن عقيدة محمد في الله قد أسيء فهمُها، وبالتالي كان تأثيرها علىٰ الناس غير مفهوم. إذ يُمثَّل لديهم إلهُ الإسلام بصفة عامة علىٰ أنه جبار لا يَرحم[2]، يحرك البشرية، كما نحرك نحن قطع الشطرنج علىٰ اللوحة؛ دون النظر إلىٰ التضحية بهذه القطع. وهناك بعض الحقِّ في هذه الصورة؛ إذ ينظر الإسلام إلىٰ الخالق نظرته إلىٰ الخزّاف الذي يصنع الخزف أكثر من نظرته إليه كوالد يرحم أولاده[3].

---

(١) النبي محمد أرسله الله لهداية الناس - بإرادة الله - وأنزل عليه القرآن الكريم لتوضيح أمور دنياهم وأخراهم ودينهم، فلابد من النبي والكتاب لإبراز تعاليم الدين. أما المحبة، فتملئ روح الإسلام - من القرآن والسنة - بالأخلاقيات الحميدة والتسامح والعفو سواءً للمسلمين مع بعضهم البعض، أو مع أهل الكتاب بل ومع الكافرين والحيوانات. (المترجم).

(٢) هذا كلام فارغ، بل هو رحمن رحيم، يغفر للمسيء إذا تاب، كما تكرر ذلك مرارًا في القرآن الكريم. (المترجم)

(٣) كلامٌ خاطئ، سيرد ستانلي لين بول عليه في الصفحة التالية. (المترجم)



مدرسة (كُتّاب) في مسجد السلطان حسن



عقود تعلوها شرفات
بمسجد أحمد بن طولون

ان اعتقاد النبي محمد في الله يماثل ما فضّل العقل السامي[1] دائمًا أن يفكر فيه ؛ فربُّه – سبحانه وتعالىٰ – هو العليم العادل، وأول صفاته التي يفكر فيها هي قدرته التي لا تُقاوَم، وأنه رب العالمين، خالق والأرض، الذي خلَق الموت والحياة، بيده المُلْك، والذي يسبب ظهور الفجر، ويجعل الليلَ يُغشي النهار، الملك الكبير القاهر ربُّ العرش العظيم، تشهد الرُّعود علىٰ كماله، والأرض كلها بيده، والسماوات مطويات بيمينه. وبقدرته وبعلمه الغيبَ فإنه يحسن الاختيار والتدبير. إن الله هو الحكيم العادل الحق سريع الحساب، الذي لا يَعزُب عنه مثقال ذرة من عمل الخير والشر الذي عمله كلُّ إنسان، ولا يُضيع عمل المؤمنين وثوابهم.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].



مدخل الميضأة في صحن
مسجد ابن طولون

لكن مع كل هذه القوة، فهناك أيضا اللطف والشفقة التي ترتبط بالقوة العظمىٰ؛ إن الله هو الحفيظ علىٰ عباده، وملجأ اليتيم، وهادي الخاطئين، شافي كل مرض، بيده الخير، وهو الرب الكريم، المحسن، السميع القريب.

تبدأ كل سورة من القرآن بالكلمات: "بسم الله الرحمن الرحيم"، ولم يكلّ النبي محمد قط من إخبار الناس كيف أن الله غفور رحيم، وأنه يحب عباده، وأكثر رحمةً بهم من رحمة الطير بفراخها ومن الأم بولدها. إن عقيدة الإله الأكبر الواحد الأحد – الذي يجب علىٰ كل إنسان أن يستسلم لمشيئته – هي لبُّ الإسلام، وهي الحق الذي عاش محمدٌ من أجله وجاهد وعانىٰ ثم انتصر. لكن هذه

(١) السامية : نسبة إلىٰ سام بن نوح ، وهي مناصرة لليهود. (الكتاب المقدس : سفر التكوين : الإصحاح السابع، الآية ١٣). والسامية تشمل : اليهود والعرب والأشوريين والفينيقيين وغيرهم (المراجع).

(٢) آية الكرسي من القرآن الكريم. سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

العقيدة لم تتضمن تعاليم جديدة، حيث إن محمدًا نفسه كان كثيرًا ما يقول: إنه آخر الأنبياء، وآخر من يوحَى إليه من السماء. والعديد من الأنبياء - إبراهيم وموسى والمسيح (عليهم السلام) - قد علّموا الناس العقيدة الإيمانية ذاتها من قبل، لكن الناس أصغت قليلًا إلى كلامهم ومواعظهم. لذلك أُرسل محمد برسالة لا تختلف عمّا جاء به الأنبياء من قبله. إنْ هو إلا رسول، ولكنه آخر الأنبياء وأعظمهم، «خاتَمُ الرسل»، و«أفضل خلق الله». هذه هي العقيدة الثانية للإسلام: «محمد رسول الله». ومن الجدير بالذكر أن ذلك لا يعني أن محمدًا هو الرسول الوحيد الذي أرسله الله العلي القدير؛ فالإسلام في هذا الشأن أكثر تسامحًا من الديانات الأخرى، وليست تعاليمه هي فقط التعاليم الصحيحة التي قد عرفها العالم على

مئذنة مسجد أحمد بن طولون

الإطلاق، فقد أرسل الله العديد من الرسل لإرشاد البشر إلىٰ الطريق الصحيح، وهؤلاء الرسل علّموا الناس نفس الديانة أو العقيدة التي كان يعظ بها نبي الإسلام. ومن ثم فإن المسلمين يضعون موسىٰ وعيسىٰ فقط في المرتبة الثانية من التبجيل بعد النبي محمد. وكلهم يدّعون أن نبيهم أفضل رسل الإله الواحد.(١)

قال النبي: «مَن شهِدَ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، أن والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل».(٢)

وإضافة إلىٰ عقيدة الإله الواحد الأحد، ورسالة النبي محمد، يجب أن يؤمن المسلمون بالملائكة والجان والشياطين، وبالجنة والنار، والبعث والحساب.

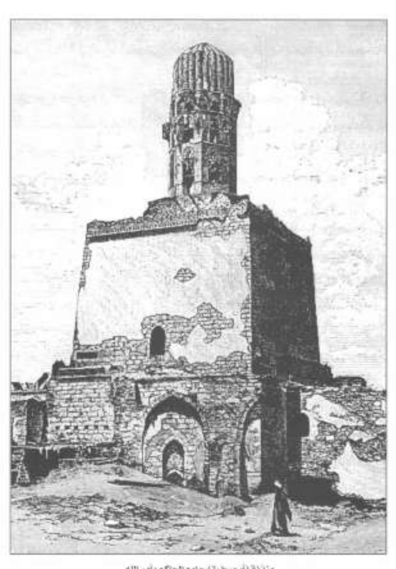
تعد الواجبات والفرائض في الإسلام مرهقة علىٰ نحو فريد، وتتكون أساسًا من الصلاة والزكاة والصوم والحج إلىٰ مكة. وتعتبر صلوات المسلمين حركات محكَمة ومفصّلة، فهي لا تستغرق وقتًا فقط في أدائها، ولكنها تتطلب من المصلي أولًا أن يمارس الوضوء بالماء للوجه والفم والرقبة والذراعين والقدمين، وذلك أساس أداء فرض الصلاة، فلا تصح بدونه. ويصدر صوت الأذان أو النداء للصلاة (انظر صـ ١١٦) من مآذن المساجد خمس مرات يوميًّا، ويجب علىٰ المصلي أن يتوضأ نفس العدد من المرات حسب القواعد المفروضة الدقيقة، وأن يردّد الأدعية ويتلو القرآن في صلاته بأسلوب مفروض دقيق لا يُخلّ به. وفي الواقع، إن هذه القواعد ليست موجودة في القرآن، لكن المحمديين تعلّموا أن يجدوا الإرشادات الضرورية في «السُّنّة» أو السلوك الشخصي لنبيهم، وهي مذكورة ومسجلة بدقة عن طريق صحابته. ويمكن أن تؤدّىٰ الصلوات في أي مكان. ومن الأمور العادية أن ترىٰ صاحب الدكان الذي تساوم معه يبسط سجادة صلاته – عندما يؤذن للصلاة – متجهًا إلىٰ القبلة في مكة، ثم يسترسل في أداء الشعيرة كما هو مفروض.

---

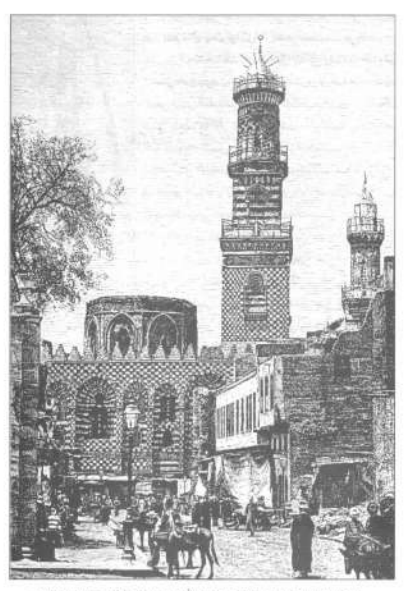
(١) انظر: ستانلي لين بول «دراسات في مسجد» ص ٨٨–٩١ S. Lane- Poole : " Studies in a mosque ," pages 88-91

(٢) انظر مشكاة المصابيح، المجلد الأول، ص ١١ "Mishkat El-Masabih," Vol.1, page 11. (المؤلف)

و(مشكاة المصابيح) كتاب في السُّنّة للإمام أبي محمد حسين البغوي المتوفى عام ٥١٦ هـ =١١٢٣م. (المترجم)



مئذنة (أو مبخرة) جامع الحاكم بأمر الله



مسجد المنصور قلاوون في سوق النحاسين كما يُرى من ميدان بيت القاضي الذي يقع أمامه.


مئذنة مسجد وضريح

وعلى النقيض من ذلك؛ يؤدي العديد من الناس صلواتهم دون انتظام، أو يغفلونها كلية. وأفضل الصلوات هي تلك التي تؤدّىٰ في المساجد. لقد وُصِف كثيرًا الشكلُ والمظهر العام لهذه المباني المتميزة، وسيكون من الضروري هنا أن نعيد إلىٰ الذهن النسَق العام لفناء المسجد المفتوح (صحن المسجد)، الذي تحيط به الأروقة ذات الأعمدة، أو أربعة أروقة واسعة أشبه بجناح الكنيسة، والتي منها الرواق المعمّد - أو الجناح - الكائن علىٰ الجانب الشرقي للمسجد، ويعدّ أكثرها زخرفة، ويحتوي علىٰ منبر الوعظ وساحة لأداء صلاة الجمعة. ومع ذلك، يكون من الأفضل أن نتوقف هنا لحظةً لنقوم بوصف القليل من أشهر المساجد في القاهرة.

هناك أكثر من ثلاثمائة مسجد في القاهرة. وما دمنا لن نذكر شيئًا عن الزوايا، فمن الضروري أن نختار باقة من تلك المساجد. ومع ذلك، فإن الطراز العام للمساجد متجانس جدًّا لدرجة أنه عندما يرى المرء عشرين مسجدًا، فمن السهل أن تستقرئ منه فكرة عامة عن بقية المساجد الأخرى. كما أنه لا تظهر في النسبة العظمىٰ من المساجد الثلاثمائة إلا اختلافات طفيفة في تفاصيل الزخارف الدقيقة والأضرحة الملحقة بالمساجد.

وفي الحقيقة، إن العديد من المساجد غير مزخرف ولا يستحق الذكر، لكن معظمها يحتوي علىٰ بعض أعمال الزخرفة والنقوش - أعمال متنوعة من الموزايك (الترخيم)، أو القرميد (الآجُر)، أو الحفر علىٰ الخشب والحجر - تستحق المشاهدة، وقد يقضي الزائر للقاهرة الشتاء بأكمله في استكشاف المساجد دون أن يكمل رؤية كل مَواطن الجمال فيها. سيمدّك مسجد عمرو بن العاص (٦٤٣ م) ومسجد ابن طولون (٨٧٣ م) ومسجد الحاكم بأمر الله (١٠٠٠م)، ومسجد المنصور قلاوون (١٢٨٧م)، ومسجد السلطان حسن (١٣٥٦ م)، ومسجد قايتباي (١٤٧٠ م) بخلفية عن تاريخ عمارة المساجد.

«بُني أول مسجد في مصر مباشرةً بعد الفتح الإسلامي للبلاد، علىٰ يد قائد جيش الفتح نفسه «عمرو بن العاص» في عاصمته الجديدة؛ مدينة الفسطاط.. ولا يزال المسجد يحمل اسمه. أحيانًا يشير إليه الكتّاب القدامىٰ باسم «مسجد الفتح»، ويُعرف أيضًا باسم «تاج المساجد». وُضع أساس هذا المسجد في السنة الحادية والعشرين من الهجرة، التي توافق سنة ٦٤٣ ميلادية. وحسب رواية المؤرخين العرب الأوائل، فقد كان علىٰ هيئة بسيطة جدًّا، لكن الحكام المتعاقبين لمصر قد عملوا

علىٰ توسعته وتعزيز بنائه من أطلال الكنائس والمعابد المتهدمة. بالتأكيد، بلغ المسجد أبعاده الواسعة الحالية في القرن العاشر الميلادي. ومنذ تلك الفترة، تم إعادة ترميمه مرات ومرات نتيجة لتأثره بالحروب والحرائق والزلازل. وقد قام صلاح الدين الأيوبي في القرن الثاني عشر بزخرفته لدرجة كبيرة وشاملة. وقد قيل – فيما يختص بهذه التجديدات – أنه وَضَع لوحة تذكارية من الرخام في المكان الذي وضع فيه أساسات هذا التجديد من الأحجار والأخشاب. وعلىٰ الرغم من حالته الخربة الآن، فإنه لا يزال أحد المباني المثيرة للاهتمام في التاريخ الإسلامي. يقع المسجد في الجهة الشرقية من مصر العتيقة (يسميها الأوروبيون: مصر القديمة) عند حدود تلال القمامة بجانب الأطلال المتفحمة الباقية من تلال مدينة الفسطاط القديمة، التي دمرها المسلمون بأمر «شاور» – وزير آخر الخلفاء الفاطميين – في عام ١١٦٨م لمنع وقوعها فريسة في يد جيش الصليبيين بقيادة عموري ملك أورشليم، الذي كان قد دمَّر بالفعل مدينة بلبيس في الدلتا، ثم تقدم نحو الفسطاط. ويعتبر تصميم المسجد في وضعه الحالي غاية في البساطة، ويتطابق مع الشكل النمطي المستطيل، علىٰ غرار المسجد الحرام في مكة.

يبلغ عرض الجامع ٣٣٩ قدمًا، وطوله ٣٩٠ قدمًا. ولا تقدم الواجهة الخارجية البسيطة أي دلالة علىٰ عظمة الساحة الداخلية للمسجد. كذلك لا يُرىٰ من الخارج إلا الحوائط الطويلة والعالية المشيدة بالطوب الرمادي، إذ تعلو وسط تلال القمامة خاليةً من أي نافذة أو زخرفة معمارية من أي نوع. ولا تعلوها إلا مئذنتان بسيطتان ونخلة. (انظر صـ١١٩).

وفيما مضىٰ، كانت هناك ثلاثة أبواب في الحائط الغربي، سُدَّ منها اثنان الآن، والباب الوحيد المستخدَم هو الذي يوجد بالقرب من المئذنة الكبرىٰ، غير بعيد عن الزاوية الجنوبية الغربية. وبمجرد العبور من خلاله، يدرك الزائر الأجنبي – بإعجاب – الحد الواسع والصفة المهيبة لهذا المبنىٰ، بصفوف أعمدته الشامخة، والأعداد الهائلة من أعمدته الرخامية، وبصحنه المفتوح الواسع الذي يستطيع أن يتجمع فيه آلاف المصلين بسهولة. وفي وسط هذا الصحن – الذي يُسمىٰ «فَسَحَة» – هناك «فسقية» أو صهريج مرتفع علىٰ هيئة ثُمانية الزوايا، تظلها سقيفة خشبية، وتحملها ثمانية أعمدة من الرخام. حول حافة هذا الصهريج وُضعت صنابير علىٰ مسافات متباعدة عن بعضها، بشكل ملائم، حتىٰ يستطيع المؤمنون الوضوء من المياه الجارية من تلك الصنابير قبل أدائهم الصلاة. ولا تزال في صحن المسجد نخلة وشجرة زعرور زُرعتا منذ فترة طويلة، وما زالتا مزدهرتين بالقرب من هذه الفسقية.

«وعلى الجانب الغربي، هناك رواق مقنطر مكوّن من أعمدة رخامية، ذات تيجان منقوشة، تدعم الأروقة وممراتها الخالية من النقوش. وعلى الجانب الشمالي، كان هناك في بداية إنشاء المسجد أربعة صفوف من الأعمدة، كانت تدعم الأروقة أيضًا، لكنها تهدمت بكاملها تقريبًا أو أزيلت لتستخدم في بناء مبانٍ أخرى، ولا تزال هناك قواعد للأعمدة تُظهر أسطوانة العمود الذي قام عليها ذات مرة. وإن الجزء الأكبر من صف الأعمدة الجنوبي، الذي كان يتكون من ثلاثة صفوف من الأعمدة، مصاب بنفس حالة التهدم.



مسجد الإمام الشافعي

ولحسن الحظ، فإن الإيوان - أو الحرم - على الجانب الشرقي من صحن المسجد لا يزال في حالة جيدة. هنا، تجد ستة صفوف من الأعمدة (انظر ص ١٢٠)، وكذلك صفًا من الأعمدة البارزة من الحوائط، متصلة بالحائط الشرقي، وهذه الأعمدة تدعم الأروقة المقنطرة arches المهيبة، وبالتالي تكوّن ستة أروقة مقنطرة تحمل فوقها سقفًا مسطحًا من العوارض الخشبية البارزة. هذه الأروقة - التي تعتبر غاية في البساطة، ومع بعض الاستثناءات ذات هيئة دائرية - تعتبر حديثة. وتقوم على دعامات مربعة بُنيت فوق الأعمدة. يصف المؤرخون القدامى السقف بأنه «منخفض جدًا»، إذ ربما كان في بدء إنشائه تحمله الأعمدة فقط. وهناك بعض الأمثلة على الرواق المشار إليه بين الأعمدة البارزة من الحائط الجنوبي، التي لا يُعرف تاريخ بنائها. ومن المحتمل أنها قد بُنيت في قرننا التاسع عشر الميلادي. تتكون الأعمدة من عدة أنواع من الرخام، تعلوها تيجان أعمدة كثيرة النقوش.. هذه التيجان صُممت بطرز مختلفة من فن العمارة الكلاسيكي والبيزنطي.

أخذت هذه التيجان من الكنائس المسيحية، ومن عدد أكبر من المعابد القديمة» من أجل تزيين هذا المسجد. وهي ليست على ارتفاع متجانس، لكن هذا العيب جرى إصلاحه عامّة عن طريق رفع بعض أساسات الأعمدة بدرجة أعلى من الأخرى. وأحيانًا استُخدم رأسُ عمود مقلوب لرفع العمود إلى الارتفاع المطلوب، دون مراعاة طراز العمود، إذ يبدو أن الحجم هو الشيء الوحيد

الذي تمت مراعاته في اختيار الرأس. ولا تتبع الأروقة اتجاه الحوائط كما هو معتاد في أروقة الأديرة العادية، لكنها تؤلف أروقة متجهة من الشمال إلى الجنوب، وصفوفًا أخرى من الأعمدة بلا أروقة في الاتجاه من الغرب إلى الشرق.

ثمة عروق متقاطعة من الخشب بين كل الأعمدة، فوق تيجان الأعمدة مباشرةً. وكل تاج عمود تعلوه «طبلية تاج العمود»، المصنوعة من خشب شجر الجميز، والتي تستند عليها العروق الخشبية الأفقية الرئيسية. وبهذا تكون كل الأعمدة متصلة ببعضها. وتفيد العروق في تعليق المصابيح. ووفقًا للمؤرخ المقريزي، كان هذا المسجد في فترةٍ ما يضاء كل ليلة بثمانية عشر ألف مصباح، وكان به تسعون ومائتان وألف نسخة من القرآن.



ميضأة في صحن مسجد السلطان حسن

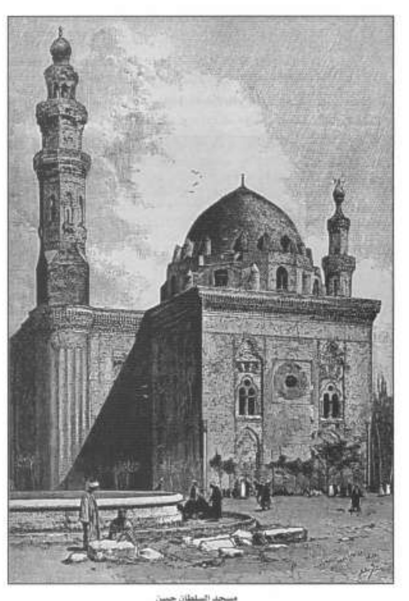
«وبالقرب من الركن الشمالي الشرقي من الحرم - إيوان القبلة - هناك ضريح محفوظ بعناية، يقال إنّ به رفات القائد الشهير «عمرو» مؤسس المسجد، والبعض الآخر يقولون إنه قبر ابنه الشيخ «عبد الله بن عمرو».

«تقع القبلة، أو محراب الصلاة، في منتصف الحائط الشرقي، وبالقرب منها منبر الوعظ، الذي ينتصب أمامه عمود رمادي من الرخام يحمل اسم محمد. ويعتقد المحمديون أن هذا العمود قد نُقل بمعجزة من مكة إلى القاهرة بناءً على طلب عمرو بن العاص عندما كان يبني المسجد. تظهر علامة «كرباج» أو سوط النبي (خط أبيض في العمود الرمادي) كدليل على المعجزة. يقال عن العمود: إنه بعد أن أمره النبي بأن يتحرك مرتين لم يستجب، فضربه بالسوط وقال بصوت عالٍ: «آمُركَ أيها العمود باسم الله أن تتوجه بنفسك إلى مصر». ومما يدحض صحة وقوع هذه المعجزة، أن مصر لم تُفتح إلا بعد وفاة النبي.

«فيما مضى، كان هناك في صف الأعمدة الغربي العديد من الأعمدة المزدوجة، لكن ما تبقى منها الآن زوجٌ واحد فقط (انظر ص ١١٧). هذان العمودان موجودان بالقرب من المدخل، تفصلها مسافة ثماني أو عشر بوصات عن بعضهما. يُدعى الزائرون - كاختبار لتقواهم أو إيمانهم - ليحاولوا المرور بينهما. وهناك في القدس - داخل الحرم الشريف - «طريق ضيق» مشابه لهما، وهو تمثيلٌ حرفي مثير للاهتمام بـ«الطريق الضيق الذي يؤدي للحياة الخالدة». ولم تُجْرَ أية محاولات حديثة لترميم هذا المسجد أو الحفاظ عليه، ومع ذلك فهناك مقولة عن أن سقوط مسجد عمرو بن العاص والإسلام سيتم في آن واحد، وربما كان لهذا الاعتقاد في فترة ما تأثيرٌ هام في إنجاز ترميمات المسجد المتعددة».[1]

---

(١) إي.تي. روجرز و مس روجرز في «آرت جورنال»، ١٨٨٠، ص ١٧.
E.T.Rogers and Miss Rogers in The Art Journal for 1880, page 17.

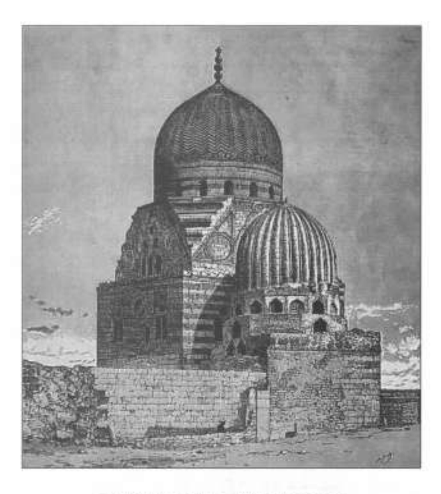


مسجد السلطان حسن

وبتتبُّع الترتيب التاريخي، فإن المسجد الذي يليه في الأهمية بالقاهرة هو **مسجد ابن طولون**، الذي بناه ذلك الأمير في عام ٨٧٩ ميلادية بتكلفة تعادل ٧٢ ألف جنيه، على ربوة تسمى «قلعة الكبش». هذا البناء المهيب - وإن كان متهدمًا لدرجة تدعو للرثاء - تم بناؤه من الآجُر والجص. الأروقة العالية ذات الجدران المملَّطة التي تحيط بالصحن الواسع، تحدُّها كتاباتٌ رائعة بالخط الكوفي وزخارف نباتية تقليدية، وصفٌّ علوي من نوافذ ذات تصميمات بديعة متنوعة، تحيط بها أُطُر مزخرفة من الأرابيسك الأكثر جمالًا (انظر صـ ١٢٣). يمثِّل مسجد أحمد بن طولون - بالنسبة لمساجد المماليك التي بُنيت بعده - عينَ ما يمثِّله الطراز المعماري القوطي ذو الخطوط العمودية للإنجليز القدامى، كما يُعد أقدم النماذج للأروقة المملَّطة. ومئذنته المدهشة ذات السلم الخارجي، والممر المؤدي إلى الميضأة في مركز صحنه الجميل، مرسومان في صفحتي ١٢٣، ١٢٤.

ويلي مسجدَ ابن طولون - زمانيًّا - **المسجدُ الجامعةُ**: «**الأزهر**». لكن ما تبقى منه جزء قليل جدًّا من البناء الأصلي الذي بناه جوهر الصقلي، فاتح مصر باسم الخليفة المعز (سنة ٩٧٠ م)، وذلك خلف بعض الأروقة الجميلة ذات النقوش والكتابات الكوفية في الرواق الشرقي.

وقد بُني **جامع الحاكم بأمر الله** (فيما بين عامي ٣٨٠ و٣٩٣ هجرية).. ذلك الخليفة الفاطمي المجنون سيئ السمعة، الذي يرتبط اسمه بمذهب الدروز الغريب، والذي تملأ غرابة تصرفاته وقسوته فصلًا رهيبًا من التاريخ المصري. ولا يزال المسجد يحتفظ بالكثير من هيئته الأصلية، على الرغم من أن الملك الصالح أيوب - حفيد صلاح الدين - قد رمَّمه في عام ١٢٤٢ ميلادية. ومنذ ذلك الوقت، عانى المسجد كثيرًا من الزلازل والإهمال. وتنتشر في صحنه المفتوح الرائع بقايا الأعمدة المهدمة. ولقد كان يُستخدم كمصنع للحبال، وكساحة لصباغة الملابس، وكمصنع للزجاج. سُدَّت المداخل الرئيسية لجامع الحاكم بحوائط مبنية، ويستطيع الزوار الآن الدخول إليه عبر مقهى، أو مصنع للبيرة، أو ورشة لصناعة الزجاج، حيث تُصنع الشُّبَح والأسْوِرَة للبيع في السودان. وتحوَّل الرواق المملَّط الجميل، والأروقة التي على هيئة حدوة حصان في الجانب الغربي الممتلئة حتى آخرها، إلى ورش، تعلوها المئذنة - أو المبخرة - الفريدة، تحملها قواعد شبيهة بأبراج المراقبة (انظر اللوحة صـ ١٢٦). ويصل الحائط الشرقي ما بين بوابتي القاهرة القديمتين: باب النصر، وباب الفتوح. وخلال الاحتلال الفرنسي، كانت فتحاته تستعمل لإطلاق النار ببنادق «المسكيت».



مسجد وضريح من القرن السادس عشر الميلادي في القرافة الجنوبية

«كانت الأروقة الشرقية أكثر أجزاء المسجد قدسية. وقد كانت أعمق، وبها عدد أكبر من صفوف الأقواس، كما كان بها المنبر ومحراب القبلة الذي يشير إلى اتجاه مكة، وبقية الأثاث البسيط الذي يحتاجه بيت عبادة إسلامي. ومع ذلك، لم يكن الإيوان - أو النهاية الشرقية - لمسجد الحاكم بأمر الله يُستعمل لمدة طويلة، فقرر وزير الأوقاف أن يستخدمه - وحده - لأغراض إقامة

متحف الفن العربي بالقاهرة. ولم يكن مؤكدًا أن هذا الجامع سيكون مجرد مقر مؤقت لمجموعة الآثار العربية، لكن ما دام المبنى واسعًا بما فيه الكفاية، فليس هناك مكان تُخزّن فيه كنوز الفن العربي أكثر ملاءمةً من هذا المسجد القديم الذي بناه ابن وحفيد الخليفة الفاطمي الذي فتح مصر في منتصف القرن العاشر الميلادي، وأوْجَدَ هذين القصريْن الرائعين اللذيْن تحوّلا بمرور الوقت إلىٰ مَعْلَمَي مدينة القاهرة الحديثة.

وبدخولنا في دهليز مسقوف - حيث ينهمك الصنّاع المحليون بداخله في تنظيف وترميم بعض الأعمال الخشبية المطعّمة بمهارة فائقة، ولكن بمقابل زهيد - ومرورًا عبر قسم خشبي، نجد أنفسنا في الرواق المعمّد الرئيسي لإيوان الجامع. وهو الطريق الذي يؤدي عبر سلسلة متوالية من الأروقة إلىٰ المحراب الذي - إضافة للمنبر في شطره الجنوبي - لا يزال موجودًا في نفس المكان الذي وقف فيه الخليفة المجنون أثناء الفترة التي نسب لنفسه فيها الألوهية، والتي شهد له بها أتباعه علىٰ نفس البلاط الذي نقف عليه الآن.


مشكاة زجاجية مطلية. من مسجد السلطان حسن. (متحف الفن العربي. القاهرة).

ولا يُعد المحراب، ولا المنبر، نموذجًا متميزًا للفن العربي. إلا أن الكتابات الكوفية الجميلة، المنقوشة حول المسجد فوق الأروقة، والقريبة من السقف المتبسط المصنوع من جذوع النخيل، تعدّ مثالًا رائعًا لتلك المميزات الشهيرة للفن والخط العربييْن.

ومع كل خطوة نخطوها داخل المكان، تُبهج نفوسَنا المعروضاتُ الجميلة والمثيرة للاهتمام، وهي مبعثرة بين أروقة إيوان القبلة، وموضوعة على مناضد مؤقتة من خشب الصنوبر غير مطلية، ومكدّسة أمام الحوائط والأعمدة، أو محفوظة في الصناديق الزجاجية ذات الوجهين، وتعتبر مصدر فخر وبهاء للمتحف. ولابد أن العديد منها قد ظل محجوبًا عن الأعين في حجرات التخزين بالمسجد في السنوات الماضية، لكن تم إنقاذ القطع الأخرى من أيادي المرممين غير المهرة. وربما تعد أول المعروضات التي تقابل عينيك أكثر العينات روعة في المجموعة كلها. تتكون هذه العينات من سلسلة من المناضد المنخفضة تسمى «كراسي» (طَبالي) كتلك يجلس إليها المسلم لتناول طعامه، بعد أن توضع عليها صينية دائرية معدنية كبيرة الحجم.

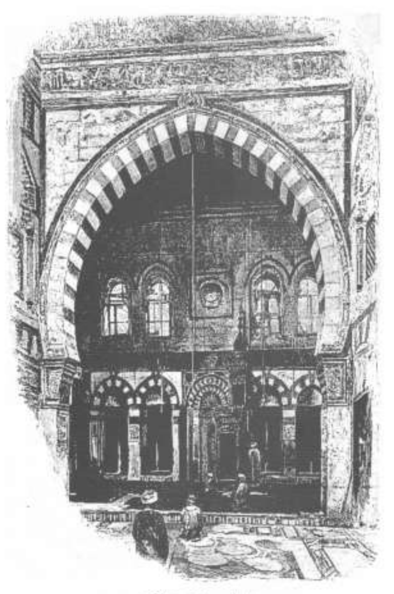
هذه المناضد الصغيرة تُصنع أساسًا من الخشب العادي، وتغطَّى بمربعات ومثلثات مطعَّمة مصنوعة من الصَّدف وخشب الأبنوس الأسود والخشب الملوَّن، مرتبة في أشكال هندسية، ويمكن رؤيتها في أثناء عملية تصنيعها في الشوارع المؤدية من الغورية إلى الأزهر، وتتكلف حوالي ثلاثين فرنكًا. وهذه هي أكثر أنواعها شيوعًا. وهناك نوع أفضل كان يستخدم فيما مضى - خاصة في سوريا - به طُنُف كلسية تدعم سطح المنضدة، ورسوم بارزة من النقوش المصنوعة من الصَّدف موجودة بين الألواح المفتوحة، وبها نقوش على كل جزء من الألف مربع من المربعات اللؤلؤية بالتناوب مع الخشب الأسود، تشكل سطح المنضدة.

لا يقتني متحف الفن العربي حاليًّا أية قطعة من هذا النوع، لكن ثمة قطعٌ أخرى ربما تكون متميزة وفريدة. اثنتان من تلك المناضد - توضحها رسوم صفحتي ٥٧، ٥٨ - لا تشبههما أية مناضد يراها المرء، حتى في أكثر المنازل أناقة وأثاثًا؛ المائدة الأولى عبارة عن كرسي ذي ستة جوانب مصنوع من النحاس والفضة، وهو عملٌ فني مثقَّب، ذو تصميم فائق الجمال وشديد الرقة، يشبه شُرُط الزينة أكثر من المعدن.

والمنضدة الأخرى شديدة الشبه بسابقتها في صناعتها، لكنها أثقل وزنًا وذات خطوط أقوى، وسطحها وأحد ألواحها معروضان في ص ٥٩. ونلاحظ أن السطح له أبواب مطوية قد يكون الغرض منها إدخال المباخر، والتي كانت ستوضع على الرف بداخله. وهذا «الكرسي» مغطى بالكتابات العربية من خط النسخ المعتاد، أو الخط اليدوي المتصل.



إطعام الطائر المقدس أبي منجل " ايبيس" في بهو معبد الكرنك



داخل مسجد وضريح قايتباي

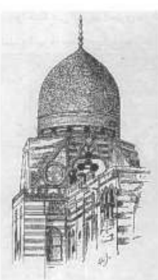
والكتابة على الشريط العلوي من اللوح تُقرأ: «النصر لمولانا السلطان الملك الناصر - ناصر الدنيا والدين - محمد بن السلطان الملك المنصور الشهيد قلاوون الصالحي. عزّ نصرُه». تقرأ نفس الكتابة على القضبان بأعلى وأسفل الأبواب، ولكن في هاتين الحالتين يحاط اسم الأمير محمد بدائرة من الفضة. والخطوط العربية الكبرى المنقوشة في اللوحين بأعلى وأسفل الأبواب تتكون من ألقاب التمجيد ونعوت نفس الأمير. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الكتابات الموجودة على سطح المنضدة، وهي مكررة بالخط الكوفي في الدائرة الداخلية. والنقوش البارزة في وسط الأبواب تحتوي على الكلمات التالية.. (على اليمين): العزة لمولانا السلطان، و(على اليسار): الملك الناصر محمد.. وتلك التي في اللوح الأعلى تنتهي بالكلمات: «ابن المنصور قلاوون». كان قلاوون عبدًا مملوكًا للملك الصالح، حفيد شقيق صلاح الدين الأيوبي، الذي حكم مصر في فترة الحملة الصليبية للقديس لويس، قرب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. وسرعان ما وصل قلاوون نفسه للحكم بعد وفاة بيبرس، مؤسس دولة سلاطين المماليك. وبعد توليه الحكم من عام ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م، وبناء مارستانه المشهور (أو المسجد الملحق به مستشفى) وضريحه ومسجده الجميل (انظر صـ ١٢٧)، ترك المُلكَ لأبنائه، الذين منهم الملك الناصر



مئذنة قايتباي في القرافة الشرقية

محمد- التي صُنعت تلك المنضدة خلال فترة حكمه - والذي حكم مصر وسوريا والعديد من الدويلات من عام ١٢٩٣ حتى ١٣٤١م. ومسجده الذي يقع بجانب المارستان مباشرةً، وكذلك مسجده الآخر والأكثر إثارةً للاهتمام الموجود بالقلعة، لا تقارن بهما العديدُ من الآثار الإسلامية الأخرى. وهما يشهدان على ثروته.. بل بالأحرى على حُسن ذوقه».(١)

(١) ستانلي لين بول، «آرت جورنال»، ١٨٨٣. S.Lane- Poole , in The Art Journal , 1883 .



قبة مسجد وضريح قايتباي

أما يُطلق عليه عامّة «أكبر نماذج الفن الإسلامي في القاهرة وأكثرها مهابةً وروعة»، فهو مسجد السلطان حسن الواقع قرب القلعة. بنىٰ هذا المسجدَ الملكُ الناصر أبو المعالي حسن بن محمد بن قلاوون، الذي بدأ العملَ فيه عام ٧٥١ هـ الموافق ١٣٥٦ ميلادية. وخلال السنوات الثلاث التي قضاها في بنائه، يقال إنه أنفق كل يوم عشرين ألف درهم، أو ألف دينار من الذهب، أي ما يعادل ستمائة جنيه إسترليني. يقول المقريزي الذي كتب مؤلفه الشهير «تاريخ القاهرة» قبل منتصف القرن التاسع، أو بعد رحيل السلطان حسن بمائة سنة إلا قليلا: «إن هذا المسجد فاق كلَّ المساجد التي بُنيت على الإطلاق في أيِّ من بلاد المسلمين». ويقول: «إن اتساع أحد أواويته(1) (حوالي ٧٠ قدم إنجليزية) أعرض بمقدار خمس أذرع من رواق كسرىٰ بمدائن العراق». فصحنُه العظيم الرباعي الأضلاع والمبلط بالرخام، والذي تحيط به الجدران العالية، تبلغ أبعاده مئة وأربع عشرة في مائة وخمس أقدام مربعة، وهو مفتوح علىٰ السماء بلا أسقف. وعلىٰ كل جانب من جوانبه فجوةٌ تتخذ شكل القوس، معلقةٌ فيها مئات من سلاسل المصابيح. ويجد المئات من المتدينين الراحة والمأوىٰ يوميًّا في هذا الجامع. والإيوان الكبير الذي يشير إليه المقريزي، تمتد فيه الفجوة التي علىٰ الجانب الشمالي الشرقي، والتي تُعدُّ أكبر بكثير من الفجوات الأخرىٰ، حيث يبلغ عرضها تسعين قدمًا، وارتفاعها تسعين قدمًا. هذه الفجوة هي الإيوان أو الحرم، حيث – كما في كل المساجد – يكون محراب الصلاة ودكّة المبلّغ، وهي منصة مرتفعة تغطيها سجاجيد الصلاة. وعند مستوىٰ سقف الإيوان الكبير، وعلىٰ امتداد جوانبه الثلاثة، هناك إفريز عريض يحتوي علىٰ سورة من القرآن مكتوبة بخط كوفي واضح، محفور في الصخر علىٰ نطاق مكون من زخارف لولبية متقنة، وقد نُفِّذت بدرجة غاية في الجمال.

وعلىٰ يمين محراب الصلاة في إيوان القبلة (الحرم)، هناك باب يؤدي إلىٰ ضريح السلطان حسن، مؤسس المسجد. وهو في حالة متهدمة نوعًا ما، ولكن بنيته رائعة، تتوِّجُه قبةٌ ارتفاعُها مائة وثمانون قدمًا. والأبواب الداخلية المتصلة بهذا الجناح مغطاة بصفائح البرونز، وتَحُدُّها وتتقاطع معها حزمة متشابكة من البرونز الصُّلب، وكلها محفورة ومرصّعة بخطوط رفيعة من الذهب والفضة بتصميمات غاية في الإتقان والروعة.

(1) كتبها ستانلي لين بول «أروقة» ومسجد السلطان حسن يخلو من الأروقة، والصواب أنها أواوين، ومفردها «إيوان». (المترجم)

منذ بضع سنوات أحضر تاجر تحف وآثار قاسي القلب إلىٰ مستر «إي. تي. روجرز» دستة من صفائح برونزية رقيقة تستخدم في التزيين كعيِّنة من مائة قطعة أو أكثر، وقال إنها معروضة للبيع. ولحسن الحظ، أدرك مستر روجرز أهميتها على الفور، علىٰ الرغم من أن التاجر قد صرَّح بأنه أحضرها من صعيد مصر.. فقام بوضعها في مكان آمن، ثم أعاد ترميمها حتىٰ عادت إلىٰ حالتها الأصلية، رغم أن ذلك أدىٰ إلىٰ العديد من التلفيات وخسارة العديد من القطع الصغيرة!

«في حجرة الضريح، هناك كتابة محفورة في الخشب، توضِّح تاريخ بناء هذا الصرح الضخم. والحوائط الخارجية لهذا المسجد المهيب يقترب ارتفاعها من مائة قدم، ويتوِّجها إفريز ارتفاعه ثلاث عشرة قدمًا، ويبرز لمسافة ست أقدام، ويتكون من الحجر الجيري المتدلي، أو زخارف متدلِّية وبارزة، وقد أصبح ذلك الإفريز منذ ذلك علامةً بارزة ومميزة للعمارة الإسلامية.

إن أروقة المداخل، والأروقة ذات النوافذ المتعددة، وحتىٰ تيجان الأعمدة التي شُيِّدت في الزوايا الخارجية للحوائط، تعج بزخارف متماثلة. والمدخل الكبير في الجانب الشمالي عبارة عن فجوة ارتفاعها ست وستون قدمًا. ويعدُّ تصميمُ الأعمدة التي تدعم هذا الرواق شديدَ التميز؛ فقواعدها مربعة.. وبصعودها في شكل مثلث مقلوب، تتخذ القاعدة شكلًا مثمَّنًا، ومنها يرتفع العمود الأسطواني. وكذلك تحولت المئذنة – علىٰ نحو بديع – من مربع في قاعدتها، إلىٰ شكل مثمَّن الزوايا في جزئها الأعلىٰ. إنها أطول مئذنة في العالم، إذ يبلغ ارتفاعها مائتين وثمانين قدمًا. (انهارت مئذنة أخرىٰ مرافقة لها وحصدت أرواح العديد من الناس، وتنتصب مئذنة ثالثة – ولكنها أصغر – في الزاوية الشمالية للمسجد). إن الإسكتش الصغير الذي رسمه مستر سيمور (انظر ص ٧٥) من الزاوية الجنوبية الغربية، يبين مدى ارتفاع هذا المسجد الرائع مقارنةً بكل المباني المحيطة»[1].

ومع ذلك، فبسبب حجمه – أكثر من كونه بسبب جمال زخارفه وتفاصيله المعمارية – يحتل مسجد السلطان حسن المرتبة الأولىٰ بين كافة مباني القاهرة ومساجدها؛ فحوائطه الخارجية خالية من الزخارف وقبيحة، وقبته قصيرة وعريضة، ومئذنته الضخمة سيئة في نسبها المعمارية، أما الزخارف الداخلية فهزيلة وغير مصقولة. وفي رأينا، إن مسجد قايتباي – القريب من مسجد ابن طولون – وكذلك ضريحه في القرافة الشرقية، أجمل بكثير من مسجد السلطان حسن؛ ففيهما نرىٰ زخارف الأرابيسك في أبهىٰ صورها. لقد كان قايتباي المؤسس الملكي للقاهرة بلا منازع؛ ففي كل أنحاء المدينة يقابل المرء لوحته التذكارية المعروفة: الدائرة المنقوشة علىٰ الحائط باسمه وألقابه والدعاء له بالبركة، علىٰ هيئة شريط عريض أفقي وسط الدائرة أو حولها.

---

(١) إي. تي. روجرز، ومس روجرز في «آرت جورنال»، ١٨٨٠، ص ٧٧-٧٩.
E.T.Rogers and Miss Rogers , in The Art Journal , 1880 , pages 77-79.

وتشهد المباني الجميلة من كل الطرز - من الوكالة الجميلة قرب باب النصر في شمال القاهرة، حتى باب «ستّي نفيسة» في الجنوب - على الذوق الفني الرائع والراقي لهذا السلطان المملوكي الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي. وتقف وكالته العظيمة بالقرب من الأزهر في المقام الأول بين المباني الشاهقة التي أسسها، وواجهتُها مغطاة بأكملها بزخارف نباتية رقيقة من الأرابيسك (انظر عينة لها في صـ ٢٦).

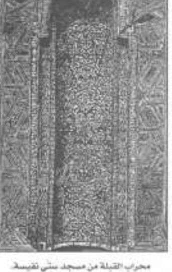
لكن أكبر وأهم وأشهر أعمال قايتباي هي مسجداه، اللذان يصعب علينا تحديد أيهما أجمل من الآخر. وقد تعد الواجهة الخارجية لمسجده وضريحه في القرافة الشرقية منعدمة النظير بين آثار ومعالم الفن الإسلامي في مصر. إن الزخارف النباتية الهندسية، المتخذة نموذجًا وَرَقِيَّ الشكل، والتي تكسو القبة الرائعة ذات الألوان التي تأسر اللب، والمئذنة الجميلة ذات الشرفات البالغ ارتفاعها مائة وأربعًا وستين قدمًا، لطالما أثارت إعجاب الرحالة.



باب ذو مصراعين من داخل مسجد، محفوظ في متحف الفن العربي بالقاهرة.

هناك مشاهد للقبة والمئذنة والمدخل والأجزاء الداخلية للمسجد في صفحتي ١٣٩، ١٤٠ (الرواق الشرقي مع محراب القبلة والمنبر)، مضافًا إليها نافذة على شكل حدوة الحصان (صـ ١٤٥)، قائمة على أعمدة رخامية، توجد في المدرسة المتاخمة لها. البناية من الداخل مسطّحة لدرجة تستدعي الانتباه. وبخصوص هذه الناحية المعمارية، فإن المسجد الآخر الذي أسسه قايتباي في المنطقة المجاورة لابن طولون، يتفوق بلا شك على نظرائه من المساجد؛ لكنْ فيما يتعلق بالواجهة الخارجية، فإنه يقع في مرتبة أدنى قليلًا من واجهة المسجد الذي يوجد في القرافة الشرقية. «القبة مزدانة بزخرفة نباتية معقدة ومطوّقة بشُرُط كثيفة، ونجوم ثُمانية محفورة بعمق عند فواصل منتظمة، ومن الواضح أنها تشكل أساس التصميم. المئذنة بشرفاتها - التي ترتفع الواحدة منها فوق الأخرى - فائقة الروعة، وهي مربعة عند قاعدتها، ثم تتحول إلى مثمّن، وذلك - ببساطة - عن طريق قطع زوايا الأركان. وعلى الأضلاع الأربعة لهذا المثمّن، هناك مداخل على شكل

رواق ثلاثي الوريقات، مع أقواس ناتئة بوضوح، قائمة على قوسين. وفوق الشرفة الأولى المتصلة، تتخذ المئذنة شكلًا أسطوانيًا، وسطحها مزخرف بتصميم يشبه ذلك الذي على القبة. وفوق الشرفة الثانية، تحيط بالمئذنة أعمدة مستطيلة ناتئة، تحمل أقواس الشرفة العُليا»(١).



محراب القبلة من مسجد ستي نفيسة، محفوظ في متحف الفن العربي بالقاهرة.

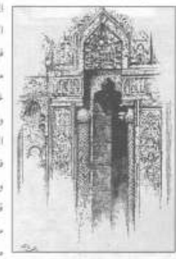
العديد من مساجد وأضرحة المماليك - والتي ترتفع بين الرموس والأقدام الحجرية البسيطة للمقابر المتواضعة البيضاء حولها (انظر صـ ١٤٦) - تتبع طراز مساجد قايتباي، على الرغم من أن المساجد والأضرحة الأخرى تعرض خطوطًا متعرجة أو مضلّعة أقل جمالًا على قبابها، كتلك التي نشاهدها في اللوحة صـ ١٣٤. وقبة مسجد الإمام الشافعي (انظر صـ ١٣٠) مصنوعة من الرصاص؛ لكنها من الداخل مزخرفة على نحو جميل. وهناك إفريز رائع من الخشب المحفور أسفل أساس القبة، ربما يرجع إلى زمن الأيوبيين. والجزء الداخلي من القبة نفسه، بأركانه الجيرية الواضحة وألوانه الفنية، يماثل في جماله كل ما في القاهرة. وتسجل الكتابات في الداخل تواريخ الترميمات وأعمال الزخرفة التي نفذها كلٌّ من قايتباي والغوري، لكن التصميم العام والكثير من الزخارف بالتأكيد تنتمي إلى القرن الثالث عشر الميلادي»(٢).

ومن مظاهر الزخرفة الرئيسية في مساجد القاهرة: المحراب الشرقي - أو قبلة المسجد - والأبواب، والنوافذ، والمصابيح.. وأحيانًا تُزخرَف الحوائط.. ونادرًا الأعتاب. وتُصنع الأخيرة عادةً من الحجر الأبيض المسطّح، لكن أحيانًا - بالصدفة أكثر من التصميم - توضع بلاطات من الرخام المنقوش في أعتاب المساجد، كما في مسجد صرغتمش، حيث توجد بلاطات جميلة في المدخل وفي الصحن

(١) إي. تي. روجرز ومس روجرز في «آرت جورنال»، ١٨٨٠، ص ٨٠. E.T.Rogers and Miss Rogers in The Art Journal , 1880, page 80.

(2) See "an account of a visit to the mosque". Contributes by S. Lane – Poole to The Athenoeum, March 31st, 1883. انظر «وصف زيارة لمسجد» مقال لستانلي لين بول بصحيفة أثينوم، ٣١ مارس ١٨٨٣.

المفتوح، لم توضع بالتأكيد ليطأها الناس بأقدامهم. ومرة أخرى، فإن الحوائط هي آخر الأجزاء التي يُعتنى بها في المسجد.. فمجرد طبقة من الطلاء الأبيض تفي بالغرض.. وباستثناء أولئك المعنيّن بالفن، فإن المصلين يقنعون باللون الأبيض. لكن الإيوان، أو محراب القبلة الشرقي (والذي يشبه الهيكل في كنائسنا)، غالبًا ما يُزيّن جزؤه الأسفل (الدّاد dado) بالفسيفساء والرخام، وأحيانًا يغطّى برقائق قاشاني زرقاء وبيضاء على الحائط الرئيسي. هذه الفسيفساء أو الرخام كثيرًا ما تكون فائقة الجمال. يعتبر الفسيفساء جميلاً من ناحية التصميم والصنعة، لكن عوامل الزمن والإهمال تركت القليل من قطعه الرائعة. وفي العديد من المساجد نرى بقاياه مبعثرة على الأرضية أو اختفت جزئيًا. ومع ذلك، فإن مسجد وضريح قلاوون - على خلاف المساجد الأخرى - لا يزال يحتفظ بزخارفه ونقوشه المثيرة


محراب مسجد

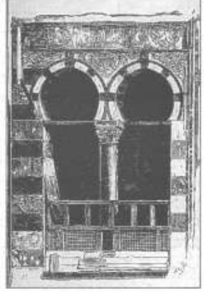
للإعجاب. وأروع نموذج للإيوان (المحراب) المغطّى بالقرميد يوجد في مسجد آق سنقر، الذي جدّده إبراهيم أغا، حيث يعتبر الحائط الشرقي بأكمله مساحة واحدة منبسطة من القاشاني الأزرق والأبيض، مع لمسات هنا وهناك من اللون الأحمر الوردي. وتتجمع بعض بلاطات القاشاني لتشكّل صورة كبيرة من الأشجار، خاصةً أشجار السّرو، مع بعض المصابيح المتدلية منها، وبعض الرسوم الأخرى تتخذ شكل فرع شجرة مورق.. لكن التجانس - أو حتى التناسق - هو آخر شيء يفكر فيه مرمم المسجد؛ فهو يجد بعض البلاط في موضعه، على حين تجد البعض الآخر مخلوعًا، وغيره متآكلاً، ثم يعيد وضعه مرة أخرى ويضيف إليه.. وليس في ذهنه إلا أن يملأ به الفراغات. ويُلصق القاشاني الموجود على الحواف بوضع عمودي جنبًا إلى جنب، وما يطلق عليها «القطعة الوردية» توضع في منتصف دائرة من اللون الأزرق.


كتابات هندسية بالخط الكوفي

وعادةً ما يُحلّى المحراب - الذي يدل على اتجاه مكة التي يجب أن يتوجه إليها المصلي في صلاته - بقطع جميلة من الفسيفساء والرخام والصّدف، وبقوس مصغر منحوت بشكل شديد البروز.

ومع ذلك، فأحيانًا ما يُصنع المحراب من الخشب المحفور كما في حالة محراب مسجد سِتّي نفيسة. وهو الآن في متحف الفن العربي، وتوجد صورة منقوشة له في هذا الكتاب صـ ١٤٣.

وهناك عمل شديد الروعة يُنسب إلى أبواب المساجد، ولم يزر أحد القاهرة إلا واندهش من جمال الأبواب ذات الصفائح البرونزية لمسجد السلطان حسن (انظر صـ ١٣٢) والمساجد الأخرى، على الرغم من الإهمال والاستهلاك اللذيْن ساعدا على دمار الآثار الإسلامية، وجرّدا هذه الأبواب الرائعة من الكثير من جمالها وإتقانها. والكثير من صفائح البرونز قد تلفت إلى حدٍّ ما، وضاعت المفصّلات المصنوعة ببراعة حرفية جميلة، وتركت القاذورات وسوءُ الاستخدام آثارَهما في كل مكان. وهناك طراز آخر من الأبواب مصنوع بأكمله من الخشب، والذي يُرى أحيانًا داخل الإيوان أو المحراب، ويُستعمل عادةً لإغلاق الحجرات أو الخزائن التي تُحفظ فيها أمتعة المسجد.



نافذة جَدَوية

في المدرسة الملحقة بمسجد وضريح قايتباي

وأحيانًا تكون هذه الأبواب من ألواح طويلة من الخشب الأملس، مقسّمة بألواح أخرى منقوش عليها زخارف الأرابيسك وأشكال هندسية. وزيادة على ذلك، هناك نوع ثالث من الأبواب فريد في جماله، وفيه تُملأ الألواح الكبرى بالفسيفساء على شكل هندسي جميل، حيث تتكون من قطع منقوشة صغيرة من الخشب الملوّن والعاج والأبنوس، منتجة أثرًا غنيًا جدًّا في تفاصيله وقيمته الفنية (انظر صـ ١٤٣).

ويُستخدم أحيانًا نموذجٌ بالغ الجمال من الخشب المنقوش - أيضًا - ليزخرف مقابر مؤسسي المساجد. يشبه ذلك التصميم في العديد من نواحيه ذلك الباب المنقوش في صـ ١٤٢، والنموذج دائمًا ذو طابع هندسي، والفواصل غنية بالزخارف. وأفضل عينة للمقبرة المزخرفة في القاهرة هي تلك الخاصة بالملك الصالح أيوب، حفيد شقيقة صلاح الدين الأيوبي، في مسجده المتهدم بسوق النحّاسين. وهناك شكل مشابه للزخارف المستخدمة في المنابر، والذي يمكن أن ترى نموذجًا له في ص ١٣٨. وهناك نسخة

جميلة من منابر قايتباي في متحف "ساوث كينسنجتون"(١). وقد صُنع المنبر في مسجد وضريح برقوق من الحجر، و زُخرف بنماذج هندسية غاية في الجمال، أما منبر مسجد السلطان حسن فمصنوع من الرخام.



مقابر محمديين

أما نوافذ المساجد - أو القمريات كما تسمى في اللغة العربية. فتوضع عادةً في الأعلى، و تُعملُ بالجص، وتُطعّم بقطع صغيرة من الزجاج الملون بحيث تكوّن شكلًا هندسياً أو نباتيًا. و ليس لهذه النوافذ خصائص فنية متجانسة على الإطلاق، سواء في تصميمها أو في جودة الزجاج. وهذا الأخير لا يماثل أبدًا جمال زجاجنا المصبوغ القديم، لكن القطع الأكثر قِدمًا تُظهر ألوانًا غنية ولطيفة، أخفق الفنانون المعاصرون في إبداع نظائر لها. كذلك فإن التأثير العام للضوء المنبعث من خلال الواجهة الزجاجية ذات اللون الغامق جميل بدرجة ليس لها مثيل.

وتعد **المصابيح** - التي كانت تضاء بها المساجد الكبرى فيما مضى - من أكثر القطع تميزًا في منتجات الفن العربي؛ فأحيانًا تتكون من قناديل كبيرة، مثل تلك المبيّنة في صـ١٤٨، والتي تُصنع من الحديد، مع شريط يتوسطها من النحاس اللامع. أو مثل المصابيح النحاسية الجميلة في مسجد الغوري - آخر سلاطين المماليك، الذي توفي عند دخول العثمانيين لمصر عام ١٥١٧ - والذي ترى في صـ١٤٩ قاعدته المنقوش عليها أسماء وألقاب الغوري على بعض الحُلىٰ الناتئة فيه. لكن المصباح الاعتيادي للمساجد كان من الزجاج المزخرف ذي الألوان المتعددة، وكان ارتفاعه نحو قدم، وقطرُه تسع بوصات. ولقد أصبحت هذه المصابيح نادرة جدًا. وقد تم دفع مبلغ ٢٠٠ جنيه إسترليني ثمنًا لقطعة واحدة منها، ويمكن أن نرى القليل من نماذجها الجميلة في مجموعة سليد slade في المتحف البريطاني، وكذا في متحف ساوث كينسنجتون.

ولقد كانت قديمًا تُعلّق في جميع المساجد الكبيرة، أما الآن فتضاء تلك المساجد التي تُفتح ليلًا بمصابيح زيتية من الزجاج الرخيص المعتم شديد الصغر، وهي خالية من أية ملامح فنية على الإطلاق، وتصدر ضوءًا خافتًا يوحي بالخشوع للمصلين. ولقد أدرك خدام المساجد قيمة هذه المصابيح المزخرفة، فأخفوها بعيدًا عن أعين الناظرين ليطرحوها للبيع لجامعي التحف الأوروبيين. وعلى أية حال، فلقد اختفت تلك المصابيح من المساجد، ولم أر - إلا في مسجد واحد سأحتفظ باسمه مخافة أن تستولي على بعض المخربين الرغبة في نهبه - أية مصابيح من الطراز القديم لا تزال معلقة بأسلاكها إلى هياكل حوامل المصابيح الخشبية التي رُكِّبت حول مدخل كل مسجد بغرض الإضاءة!

---

(١) متحف في لندن بإنجلترا. (المترجم).

ولحسن الحظ، فإن لجنة حفظ الآثار العربية قد كشفت النقاب عن مخزون من بعض تلك المصابيح المخبأة، وأمرت بإيداعها متحفَ جامع الحاكم بأمر الله، حيث تنتصب الآن في خزائن زجاجية تجلب البهجة لمن يشاهدها. والقليل منها بلا كتابات أو نقوش، وغير شفافة، ولونها أخضر شاحب أو أزرق، لكن غالبيتها العظمىٰ من الزجاج الشفاف، ومطلية بزخارف أرابيسك ونباتية، تسجل أسماءَ وألقاب السلطان صاحب المسجد الذي عُلقت فيه، وذلك إضافة إلىٰ آية من القرآن مكتوبة بخط النسخ العربي. جُمعت هذه المصابيح من حوالي اثني عشر مسجدًا، لكن العدد الأكبر منها أُخذ من مسجديْ السلطان حسن وبرقوق. وبما أنها من الزجاج، فإنها لا تكون في حالة ممتازة علىٰ الإطلاق؛ بل هي - في الواقع - ذات ألوان رديئة وملأىٰ بالفقاقيع الزجاجية، كما أن شكلها ليس جميلًا. إن تصميم الزخارف الطلائية هو الذي يعطي هذه المصابيح فتنتها الفريدة من نوعها. وأحيانًا يشكل الطلاء قاعدة المصباح، التي لابد أن يخرج الضوء عبْرها بتأثير جميل عندما يكون مصدر الإضاءة مشتعلًا بالداخل. وكثيرًا ما يتم طلاء جسم المصباح وتُترك قاعدته ذات الزجاج غير المزخرف.


منازل الزوار القرافة

وبصفة عامة، تُكتب الخطوط الخارجية بمسحات رفيعة من اللون الأحمر الداكن، أما الخطوط الأكثر غِلَظًا والزخارف فتُكتب باللون الأزرق المخضرّ. والألوان المعتادة هي الأزرق والأحمر، مع لمسات من اللونين الأبيض والأخضر الباهت. وهناك صورة ملونة جميلة لأحد تلك المصابيح موجودة في الصفحة المقابلة لصفحة العنوان في كتاب مستر نيسبيت Mr.Nesbitt: «كتالوج لوصف الأواني الزجاجية في متحف ساوث كينسنجتون»[1]. وقد كنت محظوظًا جدًّا إبّان وجودي بالقاهرة هذا العام؛ إذ أعارني الخديوي نسخة طبق الأصل لأربعة من المصابيح الموجودة ضمن المجموعة العربية، وذلك لعرضها بمتحف ساوث كينسنجتون، حيث يشاهدها الزوّار الآن هناك. ثلاثةٌ منها تحمل اسم السلطان حسن، وواحدة تحمل ألقاب السلطان برقوق، وكلاهما سلطانان من سلاطين المماليك في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي. والعينة المنقوشة في صـ ١٣٥ هي لأحد تلك المصابيح الأربعة، وتحمل - بجانب اسم وألقاب السلطان حسن في الكتابة العريضة المركزية، وفي الكتابات بوسط الميداليات الست البارزة - آية ملائمة للغرض من المصباح مكتوبة علىٰ طوق المصباح، وهي من سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾.... إلىٰ آخر الآية[2]. ثم ست حلقات زجاجية، الغرض منها ربط المصباح

(١) اسم الكتالوج بالإنجليزية: "Descriptive Catalogue of the Glass Vessels in the South Kensington Museum" (المترجم).

(٢) سورة النور، الآية ٣٥. (المترجم).

بالأسلاك التي يعلق منها في خطاف خشبي في السقف»(١).

يعتبر المسجد، مبدئيًا، مكانًا لإقامة شعائر الصلاة، على الرغم من أنه - بصفة عامة - يتخذ هيئة المدرسة، أو الملجأ، أو البقعة الرطبة والهادئة للاسترخاء والوقاية من حرارة النهار، ولم يُتخذ قطّ كمكان للتباهي بالأزياء، أو النظر إلى الجيران، أو لابتزاز الأموال(٢). فالدخول إلى المسجد مباح ومجاني للجميع، وليس هناك إيجار للمقاعد، ولا عروض لعيد الفصح، ولا مبالغ من المال تُجتنى للأعمال الخيرية أو الدينية. كذلك فليس المسجد مكانًا للمواكب الدينية، مثل تلك المواكب الكهنوتية التي كانت تمشي الهوينى في الردهات المهيبة لمعبد الكرنك حيث كان يُخدم الطائر أبو منجل المقدس «أيبيس» كمعبود ديني (انظر لوحة مستر بويتر، المنقوشة صـ١٣٧). لا يوجد في الدين المحمّدي كهنة ولا مواكب كهنوتية. والصلوات هي الشعائر الوحيدة التي تقام في المساجد، ما عدا يوم الجمعة، الذي تضاف فيه إلى الشعائر خطبة دينية قصيرة. إنه لَمشهدٌ فريد أن ترى جماعات الناس وقت الصلاة، عندما يستدعيهم الأذان الصادر من المئذنة في الوقت المحدَّد للصلاة، ويُخرجهم من أداء مهنهم وأشغالهم المختلفة. وإن الصلوات المحمدية متكررة، وتحكمها شعائر ذات ضوابط دقيقة، إلا أن أداء المصلّين لها لا يستلزم الاعتماد على ذاكرتهم.


مصباح حديدي (النور) يستخدم لإنارة المساجد.
محفوظ في متحف الفن العربي بالقاهرة

وفي السطور التالية وصفٌ لصلوات المسلم، يمدنا به إدوارد ويليام لين في كتاب «المصريون المحدَثون. شمائلهم وعاداتهم»:

«تشمل فروض الصلوات الخمس اليومية عدة «ركعات»؛ أي إحناءات للرأس. يقف المصلي مستقبلًا القبلة (أي متجهًا نحو مكة)، ولا يضم قدميه الواحدة إلى الأخرى تمامًا، وينوي في السر أداء الصلاة معيِّنًا عدد الركعات (سنةً أو فرضًا)، ومحدِّدًا الوقت (الصبح أو الظهر.. إلخ)، حاضرًا أو قضاء. ثم يرفع يديه مبسوطتين إلى جانبي وجهه، ويلمس شحمتَي أذنيه بطرف إبهاميه، قائلًا: الله أكبر، ويسمّى هذا القول: «التكبير». ويتابع بعد ذلك تأدية الصلاة بعدد الركعات المفروضة، هكذا: يظل واقفًا، ويداه - اليمنى فوق اليسرى - أسفل حزامه قليلًا. فيتلو (وهو متجه ببصره نحو موضع رأسه عند

(١) ستانلي لين بول، آرت جورنال، ١٨٨٣. S.Lane-Poole, in *The Art Journal*, 1883.

(٢) يشير المؤلف ويُلمح إلى ما انحرفت إليه الكنائس في بريطانيا خلال زمنه. (المترجم).

السجود) سورة الفاتحة، ويعقبها بثلاث آيات أخرى أو أكثر، أو سورة قصيرة تكون عادة «سورة الإخلاص» (رقم ١١٢ بالمصحف)، دون أن يكرر البسملة في القراءة الثانية. ثم يكبِّر حال الخفض للركوع، ويكون بإحناء الرأس والجسد، مع وضع اليدين فوق ركبتيه، مباعدًا ما بين الأصابع قليلًا. ويسبِّح - وهو في هذا الوضع - بقوله: سبحان ربي العظيم (ثلاث مرات)، ويضيف: «سمع الله لمن حمده. ربنا لك الحمد. ثم يرفع رأسه ونصفه الأعلى، ويقول: الله أكبر. ثم يخر بهدوء على ركبتيه، ويكبِّر مرة أخرى». ويكون السجود بوضع يديه على الأرض وكلٍّ من أنفه ثم جبهته فوق الأرض بين يديه قُربَ ركبتيه. ويسبِّح قائلًا: سبحان ربي الأعلى (ثلاث مرات). ثم يعتدل برفع رأسه وجسده، لكنه يظل جالسًا على ركبتيه، مرتكزًا على عَقِبَيْه وواضعًا يديْه فوق فخذَيْه، ويقول: «الله أكبر». ويكرر التكبير معاودًا الانحناء فوق الأرض، ثم يكرر التسبيح على النحو السابق، في السجدة الأولى، ويكبِّر مثلما سبق وهو يرفع رأسه مرة أخرى. هكذا تتم صلاة الركعة الأولى. ويجب على المصلي ألَّا يغير موضع أصابع القدم اليمنى في جميع أوضاع الصلاة المختلفة، وألَّا يحرك القدم اليسرى إلا أقل حركة ممكنة.


قاعدة مصباح مسجد مصنوعة من البرونز. محفوظ في متحف الفن العربي بالقاهرة.

«ينهض المصلي بعد الركعة الأولى (دون أن يحرك قدميه من موضعهما الأول، وخاصة القدم اليمنى)، ويكرر ما فعل في الركعة الأولى. غير أنه يجب أن يتلو بعد الفاتحة سورة أخرى مختلفة عن تلك التي تُليت في الركعة الأولى. وقد تكون - على سبيل المثال - سورة الكوثر.

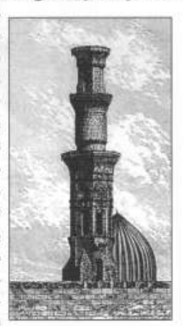
ولا ينهض المصلي مباشرةً بعد كل ركعة ثانية (وبعد الركعة الأخيرة، وإن كانت مفردة في صلاة المغرب)، ولكن يثني قدمه اليسرى تحته، ويجلس عليها، ويضع يديه فوق فخذيه، مُباعِدًا ما بين الأصابع قليلًا، ويقول وهو على هذا الوضع: «التحيات لله، والصلوات والطيبات. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». ثم يرفع سبَّابة يده اليمنى دون أن يحرك يده، ويضيف: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»[1].

وبعد الركعة الأخيرة من كل صلاة، وبعد قراءة «التحيات لله»، يقول وهو ينظر فوق كتفه

(١) لم يذكر المؤلف بقية التشهد، وهو الصلاة على النبي وآله «اللهم صلِّ على محمد....» (المترجم).

اليمنى: السلام عليكم ورحمة الله، ويردد العبارة نفسها وهو ينظر فوق كتفه اليسرى. ويعتبر البعض هذا السلام موجّهًا إلى الملائكة الحارسة التي تسهر على المؤمنين وتسجل أعمالهم، في حين يقول آخرون إن السلام موجّه إلى الملائكة، وإلى الحاضرين من الرجال المؤمنين. وقد يتلو المصلي – قبل التسليم في الركعة الأخيرة[1] – دعاءً قصيرًا (في لغة تستمد مفرداتها من القرآن، أكثر من كونها نابعةً من قلب المصلي نفسه)، وهو ينظر إلى راحتي يديه المرفوعتين كأنهما كتاب مفتوح أمامه، ثم يمسح بهما وجهه ابتداءً من جبهته فما دونها».

وهناك نوافل تؤدّى بعد الصلوات، مثل تلاوة أسماء الله الحسنى «التسعة والتسعين»، التي يؤديها المؤمن أحيانًا، لكن الصلوات المذكورة آنفًا هي الطريقة أو الصيغة الثابتة. وعلى الرغم من تعقيدها، إلا أن أداء الصلاة لا يستغرق أكثر من خمس دقائق. وعلى الرغم من افتقادها الواضح للحيوية، فهي لا تعطي أي انطباع «للتكرار غير المجدي». وتتم وقفة المصلين عن التقوى والاستغراق في الصلاة، وسيماء الوقار تبدو عليهم. وفي يوم الجمعة، وهو يماثل يوم الأحد لدى المسيحيين والسبت عند اليهود، تقام الصلاة العامة التي يقودها إمام، أو قائد الجماعة، المسمّى «الخطيب»، والذي لا يكون كاهنًا بأي حال، أو عضوًا في أية طائفة دينية خاصة أو من طبقة منغلقة على نفسها، بل هو مجرد معلم بمدرسة، أو صاحب دكان مجاور للمسجد، يعيّنه خادم المسجد ليتلو الصلوات ويعظ المصلين، ويُدفع له نظير هذا العمل بنسان أو ثلاثة بنسات في الشهر. وتؤدّى نفس ركعات الصلاة بنفس أسلوب الصلوات في أيام الأسبوع، لكن يتلو مقرئٌ سُوَرَ القرآن، ويجلس الخطيب على أعلى درجة من درجات المنبر ممسكًا سيفًا خشبيًا، يلقي أولًا خطبة قصيرة، ثم يتلو نوعًا من الدعوات للأشخاص الصالحين وذوي المقامات العالية في الإسلام، ثم يدعو لسلطان تركيا، ويختم بهذه الكلمات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ



ضريح ومسجد

(١) المأثور أن يكون الدعاء برفع اليدين بعد التسليم والخروج من الصلاة. (المترجم).

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. اذكروا الله يذكركم، واشكروه يزدكم. والحمد لله رب العالمين»، وبعد أداء ركعتين خفيفتين ينصرف المصلون.

الفرض الثاني الواجب علىٰ المسلم بعد الصلاة هو الصوم. ولا يصوم المسلمون أيامًا معينة في الأسبوع، أو يومًا واحدًا بطريقة أو بأخرىٰ، بل يلتزمون صوم شهرٍ بأكمله. يسمىٰ هذا الشهر «رمضان»، وخلاله لا يجب أن يمس المسلمُ صحيحُ البدن – من شروق الشمس إلىٰ غروبها – أيَّ طعام أو شراب، أو يدخن السجائر، أو يشم رائحة، أو حتىٰ يبتلع لعابه عمدًا، وإلا سيضطر إلىٰ إعادة الصيام مرة أخرىٰ. وعندما يسبب التغيير الفلكي في السنة القمرية (الهجرية) أن يجيء رمضان في الصيف، يصير الصوم شاقًّا إلىٰ درجة كبيرة؛ إذ يطول النهار في الصيف إلىٰ مدة ست عشرة ساعة، ويصبح الصائمون المساكين شبه أموات عندما يهبط الليل بسبب جوعهم الشديد. وعلىٰ الفقراء أن يعملوا طيلة النهار كما هو معتاد، لكن الأغنياء ينامون ويتمددون ولا يفعلون شيئًا، خلاف أن يصبحوا سريعي الغضب ونَكِدي المزاج إلىٰ درجة عالية، حتىٰ يحمل الليل معه – بلطف – الإذن بتناول طعام متخَم بأصناف المأكولات والمشروبات. وخلال رمضان يتحول الليل إلىٰ نهار؛ فتُفتح كل المحلات وتضاء، ويلجأ عامة الناس المُنهكون إلىٰ الاحتفالات الصاخبة في المتنزهات، أو الاستماع إلىٰ قارئي القرآن ومرتلي التواشيح، وهم عامةً يحاولون استرداد رُوحهم المعنوية قبل أن يبدأ يومٌ مرهق آخر من الصيام. ومن الطرق المحبَّبة لإدخال

وقت الصلاة في مسجد

البهجة والمتعة إلىٰ النفس خلال رمضان، تلاوة مجموعة من الدراويش للذكر، وقد شهد مستر لين حلقة ذكر، يصفها في السطور التالية:

«الذاكرون – أو مؤدّو الذكر (بلا مقابل) – الذين كانوا حوالي ثلاثين رجلاً، جلسوا متربِّعين علىٰ هيئة حلقة بيضاوية، علىٰ حُصر تمتد حتىٰ تقارب المنازل علىٰ أحد جانبي الشارع. وداخل هذه الحلقة، علىٰ امتداد أواسط الحُصر، كانت توضع ثلاث شمعات كبيرة، يبلغ ارتفاع كلٍّ منها

نحو أربع أقدام، وقد ثُبِّتتْ في أماكنها في شمعدانات. ومعظم الذاكرين كانوا دراويش أحمدية[1]، وأشخاصًا من الطبقات الدنيا يرتدون ملابس رَثَّة، على حين ارتدى العديد منهم عمامات خضراء. وفي إحدى نهايات الحلقة، كان هناك أربعة منشدين أو (مغنين لقصائد دينية)، وكان معهم عازفٌ على آلة تشبه الفلوت، تسمى الناي. أحضرتُ مقعدًا صغيرًا مصنوعًا من سعف النخيل من مقهى مجاور، وبالاستعانة بالقليل من التدافع، وبمساعدة خادمي، حصلت على مكانٍ وسط المنشدين، وجلستُ هناك لأستمع إلى مجلس الذكر، أو إلى المشهد بأكمله الذي بدأ في نحو الساعة الثالثة بتوقيت



مصلّون مسلمون

(١) نسبة إلى إحدى الطرق الصوفية الخاصة بالشيخ أحمد البدوي. (المترجم).



أداء ركعة في الصلاة
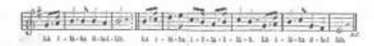
المسلمين (أي بعد غروب الشمس بثلاث ساعات) واستمر ساعتين. بدأ المؤذّون بتلاوة سورة الفاتحة تلاوة جماعية، بعد أن قال شيخهم - أو رئيسهم - بصوت عال: «الفاتحة». ثم أنشدوا الكلمات التالية: «اللهم صَلِّ علىٰ سيدنا محمد في الأولين والآخرين، وصل علىٰ سيدنا محمد في كل وقت وحين، وصل علىٰ سيدنا محمد في الملأ الأعلىٰ إلىٰ يوم الدين، وصَلِّ علىٰ الأنبياء والصحابة أجمعين، في أهل السماوات وأهل الأرضين، ورضي الله - تبارك اسمه - عن ساداتنا ذوي المقامات العالية «أبي بكر وعمر وعثمان وعلي»، وعلىٰ عباد الله الصالحين أجمعين. وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا اللهُ يا ربَّنا، يا قابل التوْب، يا أكرم الأكرمين. اللهمّ آمين».

ثم صمتوا جميعًا لمدة ثلاث أو أربع دقائق، ثم قرءوا الفاتحة مرة أخرىٰ ولكن سرًّا. وهذه الطريقة من أداء الذكر شائعة لدىٰ كل طبقات الدراويش في مصر.

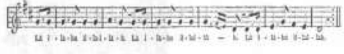


أسرة أعرابية

«يبدأ الآن الذاكرون في الذكر نفسه؛ جالسين بالأسلوب السابق ذكره، فيُنشدون في نغمة بطيئة: «لا إله إلا الله»، على المنوال الموسيقي التالي:



مُحنين الرأس والجسد مرتين مع كل تكرار لـ «لا إله إلا الله». وقد استمروا على هذه الطريقة لنحو ربع الساعة؛ ثم لنفس المدة كرروا نفس الكلمات بنفس النغمة، ولكن بدرجة أسرع، وبالتالي بحركات أسرع. وفي غضون ذلك، غنى المنشدون مرارًا بنفس النغمة (أو مع تغيير طفيف) أجزاءً من قصيدة أو موشح (قصيدة غنائية تشبه الطبيعة الكَنسية لنشيد الملك سليمان)، وهم عامَّةً يلمّحون إلى النبي كموضع للحب والتبجيل. وفي الفترات الفاصلة المتكررة، كان أحد المنشدين يغني بصوتٍ عالٍ «مَدَد»، أي أنه يطلب مساعدة روحانية أو خارقة. وبعد أداء الذاكرين - كما وصفنا سابقاً - فإنهم يعيدون الكلمات نفسها بنغمة مختلفة بنفس طول الفترة الزمنية تقريبًا، أولًا بدرجة شديدة البطء، ثم بدرجة شديدة السرعة. وقد كانت نغمة الذكر كما يلي:



ثم كرروا تلك الكلمات ثانية بالنغمة التالية وبنفس الأسلوب:

«بعد ذلك نهضوا، ووقفوا بنفس الترتيب الذي كانوا جالسين به، ثم كرروا الكلمات نفسها بنغمة أخرى. بعدها، وهم ما زالوا واقفين، كرروا هذه الكلمات بصوت شديد العمق وأجش، وكانوا يركزون تركيزًا رئيسيًّا على كلمة «لا»، والمقطع قبل الأخير من الكلمات التي بعدها، ويطلقون أصواتهم بوضوح وبجهد هائل. كان الصوت يشبه كثيرًا ذلك الصادر عن الدق على الدفوف. وكان كل ذاكر يهز رأسه بالتناوب يمنةً ويُسرة مع كل تكرار لكلمة «لا إله إلا الله».

«انتابت أحدهم - من العبيد الخصيان (الأغوات) - عند هذا الجزء من الذِّكر نوبة صرع، من الواضح أنها نتيجة حالة عظمى من النشوة الدينية، لكنَّ أحدًا لم يُفاجأ لذلك، حيث إن حدوث

حالات من مثل هذا النوع في حلقات الذكر ليس بغريب. والآن، بدت على كل الذاكرين النشوة الهائلة، فأخذوا يكررون هتافاتهم بسرعة أكبر، وجعلوا يهزون رؤوسهم بدرجة أكثر شدة، ويخفضون أجسادهم بكاملها في نفس الوقت، على حين قفز بعضهم الآخر في مكانه. انتابت العبد الخَصِيّ - الذي سبق ذكره - نوباتُ الصرع عدة مرات أخرى. وبصفة عامّة، لقد لاحظت أن هذا يحدث بعد أن كان أحد المنشدين ينشد سطرًا أو سطرين من القصيدة، ويُجهد نفسه أكثر من المعتاد في سبيل إثارة النشوة الروحية في مستمعيه. وفي الحقيقة، كان الإنشاد ممتعًا جدًّا لنفسي ولذوقي. ويجب أن أعترف أنّ الفرق بين الحماس والمجهود المضني الذي بذله الذاكرون عند انتهاء الذكر، وبين سكونهم وهدوئهم ووقار سلوكهم عند ابتدائه، كان مذهلاً لأبعد حد».(١)



سايس (حمار) في القاهرة

هناك نوع آخر من الاحتفالات المبهجة يستمتع به المسلمون، وهو " الخَتْمَة "، أو تلاوة القرآن بأكمله. هذا الأداء الرتيب يقوم به مجموعة من القراء الذين يتبادلون أدوارهم في ترتيلهم المستمر، الذي يُدخل الفرحة إلى نفس المسلم على نحو يثير الدهشة. يميل العرسان السعداء الأتقياء إلى تأجير مجموعة من القراء ليتلوا الختمة، إدخالاً للبهجة على نفوس المدعوّين إلى حفل الزواج. وفي كل الاحتفالات الكبرى، لا يوجد نمط للمتعة أكثر شعبية من ذلك عند الطبقات المحترمة. وعندما يذهب القاهريون لزيارة مقابر

---

(١) لين، المجتمع العربي في العصور الوسطى، ص ٧٣.

Lane : " Arabian Society in The Middle Ages ," page 73.

أقربائهم المتوفين في الأعياد الكبرى، تُحجَز المنازل لاستخدام المعزّين (مثل تلك المرسومة في صـ ١٤٧)، والتي غالبًا ما تملؤها التلاوة الجليلة للقرآن على أرواح المتوفين.

إن المصري في احتفالاته وأفراحه - كما هي عادته في كل شأنٍ آخر - يُعتبر في المقام الأول إنسانًا متدينًا. والاختلاط مع الإفرنجيين يُضعف - بلا شك - هذه الصفة المميزة في الأفراد من الناس، وفي الطبقات الخاصة التي يتعامل معها الأوروبيون بشكل أساسي. لكن عامة الناس، وهم ليسوا واسعي الثقافة كأجدادهم، يمتعون أنفسهم بالأسلوب الإسلامي الرزين، بالاستماع إلى كلمات من كتاب المسلمين الكريم.

لا يجب أن ننسى أن القرآن ميسَّر جدًّا لكل أغراض التلاوة؛ وهو إن لم يكن شعرًا بالمعنى الدقيق، فإنه أكثر من مجرد نثر، إذ إن السجع في الآيات ذو أسلوبٍ موسيقي، وجُمَلُهُ - بصفة عامة - ذات إيقاع بلاغي متوازن ومتناغم.

ooo



مشهد الاسكندرية من قصر المكس

الفصل الرابع

العنصر الأوروبي

على امتداد السنوات الخمسين الأخيرة، كانت سياسة حكام مصر هي محاكاة التقاليع والتطورات الشكلية في أوروبا، دون محاكاة النشاط والأخلاقيات وقواعد السلوك الأوروبية. ومنذ محمد علي وحتى الخديوي الحالي، حاول الملوك من العائلة الحاكمة - مع اختلاف درجات نجاحهم - أن ينقلوا إلى شعبهم العادات والاختراعات الأوروبية. ومن قناة السويس إلى السجائر الموجودة في كل مكان، فإنك ترى أثر الماكينات الغربية والسلع المصنعة الأوروبية في كل خطوة تخطوها على أرض الفراعنة.

إن أول ما يراه المسافر من سطح سفينته البخارية بمجرد اقترابها من الإسكندرية هو الفنار القوي (انظر اللوحة أعلاه) الذي حل محل الفنار الشهير (فاروس)، الذي صنَّفه القدماء ضمن عجائب العالم. الشيء الثاني الذي يثير الانتباه هو قصر «المكس» العشوائي، الذي بدأ بناءه الخديوي سعيد باشا، حيث انتابه هوَس بناء قصور شبيهة بقصور أوروبا (انظر ص ١٦١)، لكنه وتركه غير مكتمل. وعندما أدار شخصٌ داكن البشرة - ينتمي لعائلة احتكرت، على مدى قرون، مهنة قائد الدفة (انظر الصورة التالية)- دفةَ سفينتنا بأمان، ورأينا حاجز الأمواج بالميناء الذي يُعد

هو الآخر أحد معالم الهندسة الإنجليزية، والذي نخشى أن نضيفه إلى أرباح المقاولين الإنجليز المبالغ فيها.. فإن أكثر المباني وضوحًا والمطلة على الميناء الجميل هو قصر الخديوي بالإسكندرية في رأس التين، وهو صرح أوروبي بكل ما في الكلمة من معنى. تشبه أرصفة الميناء، وأرصفة الشحن والتفريغ ومخازن البضائع، مثيلاتها الإنجليزية. والعمود الشهير الذي نصبه «بومبي الكامل»[1] وليس منافسه العظيم يوليوس قيصر[2]، على شرف الإمبراطور دقلديانوس Dioclitian[3] (انظر ص ١٦٤) يمكن دون إجحاف أن يقال عنه إنه أوروبي. وحتى «مسلة كليوباترا» (انظر ص ١٦٣) على الرغم من كونها تنتمي إلى عصر إمبراطورية طيبة الكبرى، فإنها تُحيي المزيد من الصلات مع روما وشكسبير والملكة فيكتوريا، أكثر منها مع تحوتمس أو بطليموس!



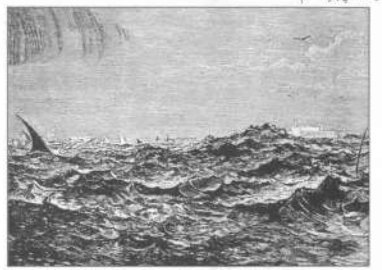
قائد دقة "بالوراثة" من الاسكندرية

وفي واقع الأمر، تعتبر الإسكندرية مدينة غير شرقية؛ فهي في الأصل ميناء إغريقي، ولا تزال تحتفظ بشخصيتها الأوروبية. وهناك أحياء يسود فيها العنصر المحلي، وبعض بازاراتها - التي يصعب المشي فيها - تعتبر شرقية تمامًا، لكن الانطباع السائد عن المدينة هو الانطباع الغربي.

---

(١) بومبي، جنايوس بومبيوس ماجنوس، (١٠٦-٤٨ قبل الميلاد)، قائد روماني وعضو الحكومة الثلاثية. (ويبستر - المراجع)
(٢) يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤ ق.م) قائد روماني، ورجل دولة، وديكتاتور للإمبراطورية الرومانية (٤٩-٤٤ ق.م) (ويبستر - المراجع).
(٣) دقلديانوس (٢٤٥-٣١٣ ميلادية)، إمبراطور روماني (٢٨٤-٣٠٥ ميلادية). (ويبستر - المراجع).

فالبيوت الجميلة لأمرائها التجار، والميدان الكبير بأطلاله المتهدمة الخربة[1] لايزال يحتفظ بشواهد على فخامته السالفة، والفيلات في ضواحيها، كلها تشبه العديد من المباني الموجودة في أي ميناء آخر بجنوب أوروبا. وسيتعرض المسافر لخطر نسيان أنه في أرض خوفو ورمسيس وصلاح الدين والمماليك، إن لم يرَ هنا منظر امرأة منقبة مغطاة الجسم بالكامل تقريبًا، أو فلاحًا يرتدي ملابس زرقاء هناك، ومشهد الطرابيش الحمراء والعمائم البيضاء وجلبة الأصوات المختلطة، لتُذكِّره بحقيقة أنه في بلدٍ مسلم.



مشهد الاسكندرية من البحر

أما على الأرض، فإن آثار الأعمال الأوروبية تُشاهَد في كل مكان. وبدلًا من الذهاب إلى القاهرة في مركب شراعي عبر ترعة المحمودية، كما فعل كل الناس على امتداد السنوات الأربعين الأخيرة، والتذمُّر بصوتٍ عالٍ من كآبة ووعثاء تلك الرحلة المملة، فإننا الآن نقوم بالرحلة في خمس ساعات بقطار سكة حديدية مجهَّز بعربات تشبه بالضبط تلك التي كانت في إنجلترا منذ عشرين عامًا. وعلى الرغم من أن عربات السكة الحديدية مُتربة، وتتحرك بقعقعة وضجيج، وقديمة الطراز، إلا إنها تقدم خدمة جيدة للمواصلات، ويديرها حراس وحمّالون وجامعو التذاكر ومديرو المحطات، الذين يشبهون نظراءهم الأوروبيين المعاصرين، فيما عدا أنهم أقل نشاطًا و- بما لا يدع مجالًا للشك - أكثر تحضرًا.

(١) حيث إن ذلك قد حدث بعد ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية مباشرةً عام ١٨٨٢. (المترجم).

تناولنا الغداء أو العشاء أثناء الرحلة في مطعم بإحدى المحطات حيث تُقدم وجبات الطعام في وقت محدد، وبسعر محدد، عملًا بنظام نمطي شديد البساطة.. ذلك النظام الذي أصبح مملًا لدرجة لا تطاق بعد تجربتنا القصيرة جدًا في السفر، وقد دفعنا مقابله ثمنًا معتدلًا بالفرنكات. وعند وصولنا إلى القاهرة، ذكّرنا تصميم محطة آخر الخط - تمامًا - بمحطة صغيرة تقع على خط برايتون وساوث كوست بإنجلترا. وقد ألفَيْنا حافلة عمومية للركاب جاهزة لتقلنا إلى فندق أوروبي بالطبع، حيث يتكلم الخدم الفرنسيون والإيطاليون والمديرون الألمان كل لغات العالم، ويؤدي العمال الهنود غير المحترفين أحطَّ الأعمال.



قصر المكس

إن حشود الأولاد سائقي الحمير، والمترجمين، تشهد على التأثير الأوروبي، فقد أخذوا

يخاطبوننا بأسلوب جليّ بلغة كلٍّ منا.. أيًّا كانت تلك اللغة.. وجعلوا يُشنّفون آذاننا بتعابيرنا المحلية. وأمام الشرفة العريضة لفندق شبرد - التي تعتبر مكان اللقاء كل القاهرة الإفرنجية بعد الظهر، وردهةً مريحة تلجأ إليها عندما ينتابنا الكسل أو نُصاب بالإرهاق من مشاهدة المعالم - تبدو هذه من الشرفة للعيان المحلات الأوروبية الشهيرة في الأزبكية ذات الواجهات الزجاجية الفضية والأبواب المألوفة، ويداخلها المحتالون من اليونانيين والإيطاليين، ومواطنو دول شرق البحر المتوسط الذين يدخنون مستعدين للاحتيال علينا، وعندئذٍ يتعين علينا أن نبتعد لمسافة قبل أن ندخل محل الملابس الجميل ونقابل صاحبه الشرقي الرزين ونتفحص بضاعته النادرة غير المألوفة. وفي المساء - إذا رغبنا - نستطيع أن نستمع لأوبرا هزلية فرنسية، أو نشاهد باليهًا فرنسيًّا - وقد أُلِّفا بحيث يلائم كلٌّ منهما الذوق التركي غير المحتشم - في مسرح يشبه بالضبط تلك المسارح التي تركناها وراءنا في لندن. وإذا ما زرنا قنصلنا، فسوف نجده في فيلا غاليكانية[1] تحيط بها المئات من الفيلات المتشابهة التي قد تنتمي لأية مدينة من مدن البحر المتوسط، ولا تختلف عنها إلا بمشهد الخدم الزنوج أو الحراس ذوي البشرة البرونزية. وأينما نذهب نرى قصور الخديوي أو أفراد عائلته. وقصر عابدين، وقصر الإسماعيلية هما القصران الرئيسيان الخاصّان بالخديوي في القاهرة نفسها، على الرغم من أن هناك قصورًا أخرى.



باب حديث للتجر في الحي الأوروبي

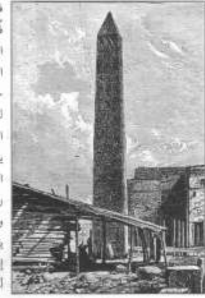
وفيما وراء حدود العاصمة، يُعَد مجرد ذكر أسماء هذه المنازل الفخمة من علامات الشرف. في قصر النيل، وعلى امتداد كل الضفاف المشرفة على نهر النيل، على جزيرتي الروضة (انظر ص ١٦٤) والجزيرة، وكذلك في الجيزة، والعباسية، وشبرا، والقبة، بل في كل مكان من القاهرة، ترتفع القصور قبيحة المنظر وضعيفة البناء، حيث وَجَدَ فيها تبذيرُ الخديوي وتفاخرُه متنفسًا. ليس هناك مبنى من تلك المباني الضخمة لا يؤذي قبحُه العين، وليس هناك واحدٌ منها مفروشًا بذوق رفيع. وتعتبر حجرة استقبال الخديو في قصر عابدين علامة على الذوق السقيم، فهي تمتلئ بالمُذَهّبات واللون القرمزي ومرايا الحائط بين الأبواب والنوافذ.

---

(١) غاليكانية: نسبة إلى بلاد الغال، أي فرنسا. (المراجع)

ولأنه لم يكن راضيًا عن بناء حي أوروبي منفصل - الذي هو عبارة عن جمع من الفيلات في الطرق المتوازية التي تعرف بحي الإسماعيلية - وتكويم الأحجار على شكل قصور تشبه ثكنات الجيش، فإن عبقرية الخديوي إسماعيل (أو «الفن الخديوي» كما أطلق عليه أحد محبي الفنون الساخط عليه) بدأت في إعادة بناء الأحياء الشعبية ذات المناظر الفنية الرائعة، فَشَقَّ الطريق الموحش من الأزبكية إلى القلعة الذي أطلق عليه اسم «بوليفار محمد علي»[1]، مدمرًا البيوت القديمة ذات الطراز الشرقي، تاركًا البنّائين المحليين يشيّدون ما يحلو لهم في أماكنها. وكانت النتيجة أن المباني المخلفة أصبحت تُعَد ضمن أسوإ نموذج لحي سكني يصنعه حرفيّون من الدرجة الخامسة؛ فليس هناك نظام في بنائها، ولا أية محاولة لإضافة لمسة جمالية أو فخمة عليها، لهذا كان «بوليفار محمد علي» عارًا على القاهرة الجميلة. ولحسن الحظ، فقد تجنب الخديوي الحالي[2] طرق والده، وقد نأمل أن لا نرى المزيد من مثل هذه المواصفات العشوائية.

ليست فقط المباني خارج الأحياء الشعبية الصميمة هي التي تمدك باللمسات الأوروبية، فنصف الناس في الشوارع يرتدون ملابس أوربية، فُصِّلت على غرار أزياء الموظفين الرسميين المحليين وغيرهم، حيث يرتدون الطربوش الأحمر، مع تغيير خفيف في فتحة معطف الفراك[3]، حيث إنها بذلك تلائم تمامًا الشكل الرسمي لملابس الموظفين. وتتجول سيدات الحريم الأغنياء في مَرْكَبات البروهام[4] Brougham التي يقودها سائقون إنجليز. ومصابيح الشوارع المألوفة في جزيرتنا البريطانية تبدو لأعيننا في كل ركن، بكل ما فيها من القبح «الذي يصعب اجتنابه». والاختلاف الوحيد هنا هو أن مشعلي المصابيح يقودهم ضابط في موكب، ويصرف كل اثنين منهم إلى دورياتهم، مع دقةٍ وانضباطٍ عسكري ذكي يعد أسلوبًا رفيع المستوى.



مسلة كليوباترا

(١) أي شارع محمد علي الفسيح الذي تحفه الأشجار. (المترجم).

(٢) يقصد الخديوي محمد توفيق. (المترجم).

(٣) سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين. (المترجم).

(٤) طراز من المركبات الإنجليزية يجرها حصانان أو أكثر. (المترجم).

وإذا ما توجهنا مع النيل جنوبًا، فمن المحتمل أن يكون ذلك على متن سفينة بخارية مريحة تابعة لشركة «ميسرز كوك Messers' Cook» – وأفضل هذه البواخر الباخرة «مصر» – حيث يستطيع راكبها زيارة كل مكان وكل أثر مهم من القاهرة حتى الجندل الأول في ثلاثة أسابيع، مع استمتاعه بكل وسائل الراحة الممكن تخيلها، ودون التعرض لمشكلات التأخير، على الرغم من أنها ليست بالرومانسية والخصوصية التي توجد في «الذّهبية»[1]. وفي طيبة (الأقصر) يمكن أن نقيم في الفنادق الأوروبية كاملة التجهيزات، أو سينقلنا خط سكة حديدية كريه ومغبر وعتيق الطراز – والذي تأمل أن يشمله الإصلاح والتجديد، وسيمدنا بمعرفة مدى نجاح تجربة مدير السكك الحديدية النشيط، مستر لوموزورير Le Mesurier، في الإصلاح والتجديد – سينقلنا إلى أعلى البلاد حتى أسيوط، حيث نصل شبه مختنقين بدخانه. وعندها، ستمكّننا إحدى المراكب التجارية المنظمة الخاصة بخدمة البريد من إكمال الرحلة عبر النيل. ومن نقطة إلى أخرى، يمكننا إرسال برقيات إلى كل أنحاء العالم. قصارى القول، إننا لو اخترنا، نستطيع السفر عبر مصر بأسلوب أوروبي يماثل السفر عبر سويسرا.



عمود بومبي

معظم هذه التطويرات ترجع لذكاء وتهور الخديوي السابق إسماعيل، فهو رجل ذو قدرة لا شك فيها، ويتوافر لديه نشاط غير اعتيادي في الإدارة، كما أنه مُتْرَعٌ إعجابًا وثناءً على الحضارة الغربية وأعميها، ومشتعل بنار الطموح اللائق به كأحد أحفاد محمد علي. إن الخديوي السابق في بادئ أمره بدا أنه حاكم لم تَرَ مصر مثله إلا نادرًا منذ الفتح العربي. وبعد أن تخلص إسماعيل من الكثير من تحكمات الباب العالي، والتكاليف المالية الباهظة لتبعيته، وبعد الحصول لنفسه ولذريته على مرتبة ملكية راسخة



قصر في جزيرة الروضة

(١) الدهبية ، سفينة خاصة يقتنيها الخديوي والأمراء والأثرياء. (المترجم)

ونظام أوروبي لوراثة الحُكم، بدأ سلسلة من الإصلاحات - أو لِنَقُل تجديدات على الأقل - بطريقة لم يقم بها حاكم قبله لمصر.

فقد أصلح وحسّن نظام الإدارة الذي ابتدعه محمد علي، وأعاد هيكلة الضرائب، واشترى مكتب البريد ووضعه تحت إدارة أحد الموظفين الرسميين من سانت مارتان لوجران St.Martin's - le - Grand، الذي سرعان ما طوّره وجعله في وضع مثير للإعجاب، وأسس مكاتب فرعية تقدم خدمات البريد منتشرة في أنحاء البلاد. وأعاد إحياء المدارس العسكرية التي أنشأها جدُّه، وحاول بأساليب عدة أن يُدْخِلَ بعض الطرق والمفاهيم لإرساء نظام تعليمي جديد في مصر. وفي عهده، تم إلغاء المزايا غير العادلة الخاصة بالأوروبيين في النظام القديم، الخاص بحق القناصل في الفصل في الدعاوى القضائية والتشريعات، وذلك حينما أوجد إسماعيل باشا المحاكمَ القضائية المختلَطة عام ١٨٧٦، حيث يجلس فيها القضاة الأوروبيون والمصريون جنبًا إلى جنب للنظر في القضايا المختلَطة دون تحيُّز لطرف دون الآخر، وحيث - بالتأكيد - يحصل المدَّعون على عدالة في الأحكام أكثر من تلك التي تصدر عن المحاكم المحلية، على الرغم من أنه لا يزال هناك مجال للتطوير والتوسع. ولا تزال العدالة واحدة من أندر المنتجات المصرية أو الواردات الأوروبية!


باتكة في حي الأزبكية

شكلت الأعمال العامة بندًا كبيرًا في ميزانية الإصلاح لدى الخديوي السابق؛ فالسكك الحديدية، والتلغرافات، والمنارات، وأعمال موانئ السويس وبورسعيد والإسكندرية، كلها تشهد على نشاطه، وإن لم تشهد على حصافته. تغطي السكك الحديدية - وهي ملكية عامة للدولة - أكثر من ألف ومائة ميل، وتصل الإسكندرية والقاهرة بكل جزء في الدلتا والسويس، وتصل حتى منتصف الطريق المؤدي إلى الجندل الأول. وتمتد خطوط التلغراف لأكثر من أربعة آلاف ميل، وبُني أربعة عشر فنارًا على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر. لكن الأعمال العامة والتطويرات والتغييرات من كل الأنواع لا يمكن أن تنفذ بلا مقابل. ولقد كان الخديوي السابق شديد الجهل في إدارته المالية المتهورة، ومبذّرًا طائشًا، حتى إنه أغرق البلاد في الديون التي وصلت لقرابة مائة مليون جنيه، وتم جدولتها بوسائل غير أمينة وظالمة

لتلبي مطالبَ دائنيه. وكانت النتيجة هي عزله وتنصيب ابنه توفيق، تحت سيطرة العديد من الهيئات المالية دائمة التغيير. وفي الحقيقة، عوملت مصر كدولة مفلسة، وتم تزويدها بأوصياء كان واجبهم في كل مصادر الأزمات أن يدبروا المال لسداد حقوق الدائنين؛ ومن ثم، اجتمعت كل المخططات والمكائد المالية، والغَيْرَة الدولية، والحرب الأخيرة[1]، والأزمة التي نجد أنفسنا فيها الآن. لكن بالنسبة للنزعات الأوروبية في فكر إسماعيل، فلا شيء من تلك الأمور يمر سدًى؛ فقد يُطرح تساؤل: هل كانت المزايا المادية التي منحها لمصر أكثر بكثير من نكبات الحرب والديون التي نتجت عن سياسته؟ بلا شك، لا يقع اللوم عليه وحده، فقد جنىٰ - شخصيًّا - أرباحًا قليلة من جرَّاء اقتراضه، وسُرق بدرجة أكثر من كونه سارقًا!

لكن بينما يمكن أن نُدين بيوت التمويل الفرنسية والإنجليزية علىٰ نهبهم الوقح لمصر، إلا أننا لا نغفر للخديوي تَسَبُّبَه في القروض التي كانت ذات آثار كارثية علىٰ بلده.

خضع الطريق البري إلىٰ الهند لتسهيلات هامة عن طريق إدخال الأفكار الأوروبية إلىٰ مصر. فمنذ فترة ليست ببعيدة، كان المسافرون إلىٰ الهند يُضطرون إلىٰ السفر عبر النيل حتىٰ قنا، ثم يشقون طريقهم في الصحراء حتىٰ القُصير علىٰ ساحل البحر الأحمر. كما أن موظفي شركة «أورينتال تلغراف» اعتادوا أن يسافروا علىٰ ظهور الجمال من القاهرة إلىٰ السويس عبر طريق القوافل القديم. وإذا ما غَضَضْنَا البصر عن ضياع الوقت، فإن مشاق السفر عبر الصحراء لم تكن قليلة ولا تافهة؛ فعملية اعتلاء الجمال صعبة المراس، والنزول من عليها - والتي يرىٰ فيها المسافرون لبعض الأسباب غير المفهومة كلَّ مزايا تلك المخلوقات الشُّكِسة - تمثل مصدرَ تعب للمسافر غير الخبير، وما لم نوَفَّق في الحصول علىٰ الجمل العربي ذي السنام الواحد أو الجمال العدَّاءة، فإن حركة سير «سفينة الصحراء» المرتجّة والمتمايلة تسبب - علىٰ الأرجح - دوار بحر حقيقي. ولكن بالنسبة لأولئك الذين يتوفر لهم الوقت والصحة، فإن ركوب الجمل عبر الصحراء له سحره الخاص، كما سيوافق علىٰ ذلك - بكل تأكيد - قارئو وصف الدكتور كلونزينجر الرائع لطريق القوافل إلىٰ القصير.[2]

ومع ذلك، فإننا الآن لا نسافر عبر مصر بقوافل الجمال، إلا إذا اخترنا ذلك، بل نسافر عبر قناة السويس، أو نعبر الدلتا من القاهرة إلىٰ السويس بالقطار؛ وهي رحلة لا يمكن وصفها بالروعة. وبمجرد مغادرة الزقازيق، لا نرىٰ شيئًا علىٰ كلا الجانبين إلا صحراء صفراء تميل للون الرمادي. نقف هنا وهناك عند سقيفة بدائية تمثل محطة توقف، والقليل من المباني البيضاء ومجموعة من

---

(1) يقصد حرب عرابي ١٨٨٢، أو مقاومة عرابي للاحتلال البريطاني. (المترجم)

(2) كتابه: صعيد مصر، الفصل الرابع. "Upper Egypt," chapter 4.

الأكواخ تدلنا على أننا نمر بقرية. ثم تظهر لأعيننا الخطوط الطويلة للتل الكبير(1)، وما إن يمرّ القطار عبرها حتى نرى قوة استحكاماتها وأسوارها، والاتساع والعمق الهائلين للخندق المواجه لها. تبدو آثار الحملة العسكرية في كل مكان ؛ آثار لخيول ورجال لم تُدفن بعناية ، وعُلب فارغة لحفظ اللحوم، ومعطف هنا، وقبعة حربية هناك، كما تُرى معالف خيول عرابي المثيرة للاهتمام في مجموعات متفرقة. ثم بعد ذلك نشاهد المزيد من مشاهد الصحراء، حتى نصل إلى الحجرات المربعة التي تم الكشف عنها في تل المسخوطة، والتي أثبت مستر نافيل - الذي أرسلته «لجنة استكشاف مصر» بلندن على نفقة سير «إراسموس ويلسون» - أنها ليست إلا مدينة «بيتوم» النفيسة الموصوفة في سِفر الخروج (الإصحاح الأول، الآية الحادية عشرة)، والتي بناها بنو إسرائيل تنفيذًا لأمر فرعون.



تطويرات أوروبية

والكشف عن أن تل المسخوطة هي بيتوم(2)، والاستكشاف الإضافي أن بيتوم كانت تسمى أيضا «سكوت succoth»(3)، إضافةً إلى الحقائق الأخرى التي قامت عليها تنقيبات مستر نافيل، قد ألقت المزيد من الضوء على مساحة المنطقة التي كان يشغلها بنو إسرائيل واتجاه طريق خروجهم، بدرجة أكبر من أي أبحاث سابقة. سكوت، المعروفة الآن بتل المسخوطة، كانت أول محطة خيّم فيها شعبُ الله المختار بعد هروبه من رمسيس، وموضعها قد أبطل تمامًا نظرية دكتور بروجش Brugsch الشهيرة عن أن طريق الخروج كان الطريق الشمالي المتجه إلى سوريا. والتنقيبات نفسها أيضًا وضعت أساسًا لمعرفة شخصية الفرعون الطاغية رمسيس الثاني، وبدّلت تمامًا وجهات نظر الأثريين عن المواضع الحقيقية لقرية القلزم Clymsa وقرية بيحاحيروث Pihahiroth وأماكن أخرى(4). وبعد مواقع التنقيب في بيتوم

فنارات افرنكية

---

(١) يشير إلى التحصينات الموجودة بالتل الكبير. (المترجم).

(٢) بيتوم: أو بيت أتوم (إله الشمس) إحدى المدن التي تقع على طريق الخروج ، وقد تم الكشف عنها عند حفر قناة السويس بالقرب من التل الكبير عند المكان الشهير المسمى «تل المسخوطة» بالشرقية. (المترجم)

(٣) سكوت: عيد ثابر ناكلز عند اليهود ، يحيي ذكرى محصول الخريف وعبور اليهود الصحراء عند الخروج ، ويستمر من يوم ١٥ حتى ٢٢ من شهر تشرين (وبستر - المراجع)

(٤) قرية القلزم : كانت تقع في الجهة الشمالية الشرقية من مصر في نهاية خليج السويس ، وكانت تعرف كمركز على طريق القوافل الرومانية بين البحر الأحمر والبحر المتوسط. بيحاحيروث : المكان الذي خيم فيه بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر قبل عبورهم البحر الأحمر، وهي كلمة تعني باللغة العربية : فم المضايق. ويرى الباحثون أنها تقع في نهاية خليج السويس. (المترجم)

بأميال قليلة، تصل إلى نفيشة، التي تقع بالقرب من الإسماعيلية، ثم تتجه جنوبًا لتصل إلى السويس. وعلى امتداد الرحلة من الزقازيق إلى السويس تجري السكة الحديدية بمحاذاة ترعة المياه العذبة.

وقناة السويس البحرية هي أعظم الأعمال الأوروبية في مصر، برغم أن فوائدها قد أفادت مصر بدرجة أقل من أوروبا - وخاصة إنجلترا - حيث إن أربعة أخماس السفن التي تعبرها بريطانية، وقد عانى المصريون منها لدرجة كبيرة في تدمير طرق تجارتهم. وازدياد عدد المسافرين عبر الطريق الجديد مذهل؛ إذ يقال إن شركةً واحدة فقط قد نقلت سبعين ألف مسافر عبر القناة في خمس سنوات!

في عام ١٨٧٠، كانت تمر سفينة أو سفينتان كل يوم، والآن يرجح أن يكون العدد عشر سفن بخارية في اليوم. وأصبح أحد المشاهد الاعتيادية رؤية ستٍّ من تلك السفن تنتظر دورها في العبور. هذه السفن البخارية معظمها إنجليزية. وقد ورد مؤخرًا أن قبطانًا بحريًا خبيرًا - عبر القناة مرارًا - قال إنه لم يَرَ قطُّ سوى سفينة بخارية فرنسية هناك، وأنها اصطدمت بسفينته. ولكن النكتة البارزة عن الرحلات الراكدة هي: أن قبطانًا فرنسيًا كان يُسأل كلما ظهرت سفينة جديدة في القناة: «قل لي بالله عليك يا مسيو، ما هي جنسية الباخرة القادمة هناك؟»، فيردُّ القبطان بالإجابة التي لا تتغير: «فرنسية بالطبع»، ولكن سرعان ما يثبت كذبه بظهور العلم البريطاني عليها.[1]


بناية أوروبية بالقاهرة

إن تاريخ القناة وحفرَها قد وُصفا كثيرًا جدًا لدرجة أن تناول تفاصيلها في هذا الكتاب سيكون بلا طائل. باختصار، يبلغ طولها مائة ميل، وعرضها في القاع ٧٢ قدمًا، وعند سطح المياه من ١٩٠ إلى ٣٢٠ قدمًا، وعمقها ٢٦ قدمًا. وقد افتتحت في العام ١٨٦٩. وإذا لم يكن هناك حادث أو إعاقة، فسيستغرق عبورها نحو ١٦ ساعة.

وهي تبدأ من السويس (انظر الصفحات ١٦٩ - ١٧١)، التي تعد مدينة شعبية ذات مظهر متواضع، وتختلط أكواخها القذرة ومساجدها غير الهامة مع مخازن ومقرات الشركات التجارية الكبرى، التي تطل على فيلا الخديوي. تخترق القناة بالعرض عشرة أميال من سهل السويس، ثم تخترق منخفض «الشلوفة» العميق، حيث ترتفع الأرض ٢٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر وتكوّن حاجزًا بين البحيرات المرة (التي كانت تعرف سابقًا باسم خليج هيروبوليت) والبحر الأحمر، اللذين كانا يشكلان ذات يوم مسطحًا مائيًا واحدًا. وربما كان يشبه (بحر القصب «البوص») -

(١) See the Saturday Review of June 2, 1883. "From Port Said To Suez.

انظر ساترداي ريفيو، عدد ٢ يونيو ١٨٨٣" من بور سعيد إلى السويس".

وليس «البحر الأحمر» - مثل ذلك المصور في ص ١٧٢ - الذي مرّ عبره بنو إسرائيل عندما فرُّوا من فرعون وجيشه، حيث إن الاكتشافات الحديثة في بيثوم (تل المسخوطة) قد أثبتت تقريبًا أن طريق الخروج لا بد أنه قد تم البحث عنه في مكانٍ ما بجوار البحيرات المرة أو بحيرة التمساح. وعلى ضفاف الأخيرة، تقع الإسماعيلية - ثاني أهم مدن القناة، ولكنها مكان موحش - كمركز للموظفين والمهندسين الفرنسيين، لا أكثر ولا أقل.



السويس

قصر نائب الخديوي غير الفريد، ومنزل مسيو ديليسبس، والعديد من المخازن والمكاتب، لا تشكّل تجمعًا يُغري بالإقامة، لكن محطات المياه القوية التي تُضخ بواسطتها مياه الترعة العذبة عبر أنابيب معدنية (انظر ص ١٧٣) على امتداد الطريق إلى بور سعيد، لمسافة خمسين ميلًا، وتُضخ مياهُها إلى صهاريج ذاتية الملء تنتشر على مسافات قدرها ميلان ونصف الميل على طول امتداد القناة، تعد خير دليل على المهارات الهندسية التي طُبقت في مصر خلال السنوات الأخيرة (انظر ص ١٧٤).



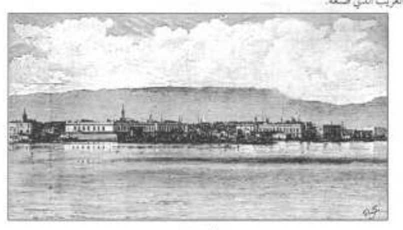
داخل حوض السفن بالسويس

بعد بحيرة التمساح، يؤدي المنخفض العميق عبر السفح Seuil المسمّى «الجسر» - الذي يرتفع ستين قدمًا فوق سطح البحر - إلى بحيرة «البلاح»[1] إحدى بحيرات «**سلسلة البحيرات الراكدة، تتخللها جزر رملية بها أجمات من شجر الطرفاء**»، وإلى التلال الرملية المنخفضة في القنطرة، التي يعني اسمها تقريبًا «الجسر»، وتشكّل حدًّا للمستنقعات الموحشة لبحيرة المنزلة. وتغطي هذه البحيرة مساحة عريضة من الماء المالح والمستنقعات. وهي موطن لقطعان لا تُعدّ ولا تحصىٰ من الطيور البرية، وبها العديد من الجزر التي يقطنها صيادو السمك المحليون. عبر هذا الفضاء الكئيب، يقودنا مجرى القناة في النهاية إلى بور سعيد ذات حواجز الأمواج الرائعة، وفنارها

(١) تقع بمركز القنطرة غرب بمحافظة الإسماعيلية، وتبعد ٧٥٠ مترًا غربي مجرى قناة السويس، وكانت تمتد قديمًا حتى شمال سيناء. وقد جفت منذ قديم الأزل. وهي الآن منطقة آثار البلاح بالإسماعيلية. (المترجم)

القوي، الذي يمكن رؤيته من مسافة ٢٤ ميلًا في البحر، وميناها ذي حاجز الأمواج الواقي، المحببَيْن إلى نفس المسافر الذي أضعفت اضطرابات البحار شهيته، التي كثيرًا ما تحدث في هذا الركن من البحر المتوسط. ومع ذلك، فإن لبورسعيد صورًا ذهنية أخرى.

سئل مسافر من نيويورك: ماذا تشبه بورسعيد؟ فأجاب: «حسَنٌ يا سيدي! لم أر سدوم وعمورة[1] في أيامهما المزدهرة، لكنني أخمن أنهما تشبهان إلى حدٌ كبير بورسعيد»! في الحقيقة، يعتبر هذا الميناء متجمعًا لأسوإ طبقات شرق البحر المتوسط وأكثرها وضاعة؛ فحانات الخمور، وبيوت القمار، وأوكارها للرذيلة، مشهورةٌ برداءة السمعة، وليس من المأمون أن تتجول بشوارعها بلا سلاح. إنها أوروبية في رذائلها ومظهرها! صحيحٌ أنك ترى أناسًا شرقيين، ولكنك ترى أيضًا العديد من الإيطاليين واليونانيين والفرنسيين، دون أن تغفل بحّارة السفن الإنجليزية.. المستخدمين الرئيسيين للقناة. تعد بورسعيد إحدى منشآت قناة السويس. وكما أن المسلمين يرتبطون في الذهن بصورة الجمل العربي، فإن مؤسس مدينة بورسعيد يجب أن يكون مندهشًا جدًّا من ذلك المسخ الغريب الذي صنعه.



السويس

وإذا كانت آثار الإفرنكيين في مصر واضحة؛ بدءًا من حاجز الأمواج الكبير الذي أقاموه على الساحل، وامتدادًا إلى خطوط السكك الحديدية والسفن البخارية، بل حتى حفر السياح لأسمائهم على جدران آثار فيلة، فإنه من غير المسلَّم به كوْن أوروبا قد أثرت تأثيرًا ذهبًا جليًّا على المصري

(١) سدوم وعمورة: مدينتان في الشام، يقول فيهما الكتاب المقدس إنهما أهلكتهما النيران بسبب خطايا أهاليهما. «سفر التكوين، الإصحاحان الثامن عشر والتاسع عشر» (ويبستر – المراجع).

أو غيَّرت أخلاقه. لقد أمددناه بتطوراتنا الحضارية، ووسائل الاتصالات، ومساعدات ميكانيكية توفر له الثراء والرخاء.. لكن المصري استخدمها قليلًا، ولم ينل مزيدًا من الرخاء، بل على العكس، انحدر مستوى معيشته لدرجة أقل مما كان عليها قبل أن «نأخذ بيده». لقد ازداد ثراء البلد بالتأكيد، لكن يجب أن نذكر أن الكثير من تلك الثروة المتزايدة يُفرَغ في جيوب الأوروبيين، وكل جنيه أنفقه الأوروبيون في مصر، استردُّوه عشرة. أفاد الفلاحون - وهم عامة شعب مصر - القليلَ من جرّاء تدخلنا، وأصبحوا أفقر من ذي قبل، وكذلك أشد جهلًا. تدرب مدارسنا - بلا شك - القليل من المصريين



سفينة في القناة

بالطرق الأوروبية، وكثيرًا ما يُبعث أبناء الأثرياء إلى باريس ليتعلموا، ولا تكون النتائج دائمًا مُرضية، لكن عامة الشعب يظلون تمامًا كما كانوا عندما سخّرهم خوفو لبناء الهرم الأكبر!

ويبدو أن جمود الفلاحين يقاوم الزمنَ والتأثيرَ الأجنبي. تتبنى الطبقات العليا كل ما في عاداتنا دون الفضائل، وتتمسك الطبقات الدنيا بالأساليب القديمة، ولا يتعلمون شيئًا منّا، عدا - ربما - الطرق المتقدمة في الغش. والمسئولون الحكوميون - على الرغم من المراقبة الأوروبية - فاسدون بدرجة أقل قليلًا من سابقيهم. وعلى الرغم من تظاهرهم بأنهم معجبون بالأساليب الغربية في الحكم والإدارة، إلا أنهم في بواطنهم يميلون لولعهم القديم في الحكم بالعصا.

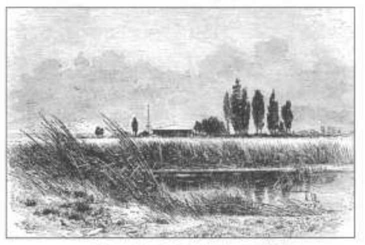


ماكينة جرف (كرّاكة)

يجب ألَّا ننسىٰ أننا لم نُعْنَ بالنموذج الذي وضعناه لهم. لقد تعامل الأوروبيون مع مصر كأرض ينبغي نهبُها، ولا يستطيع الشعب المصري أن يمتنع عن النظر إلينا على أننا ناهبون لبلادهم؛ فهناك سجل طويل من الربا الفاحش وسندات التأمين والتلاعب المالي يجب أن يُمحىٰ قبل أن نتحدث

للمصريين عن الأمانة. وعلاوة على ذلك، فإننا – وسنظل كذلك إلى الأبد – في أعينهم غرباء وكفار!

فليس من المحتمل أبدًا أن تُهدم حواجز الدين والقومية. ومع ذلك، لو تمكنّا يومًا ما من مساعدة المصريين على تحسين ظروفهم، فسيكون ذلك في ظل النظام القائم الآن. فالحكومة الضعيفة المختلطة، والثنائية السلطة، قد أصبحت طريقًا لنظام حكم غير مسموح فيه بأن تُولَى المطالبات المالية الأوروبية الاهتمام الأكبر. فنحن نعيِّر مصرَ مجموعةً من المسئولين ذوي العقول الفريدة، والقادرين على تحمل المسئولية.. وهم ليسوا مسئولين أمام حاملي السندات، بل أمام إنجلترا والخديوي، وهدفهم الأول أن يؤدوا مهمتهم بنجاح عن طريق أبناء الشعب المصري نفسه، وليس عن طريق سماسرة الأسهم المالية الأجانب. إنّ «كيف ننجح؟» هو موضوعٌ قابل للمناقشة. لكننا، للمرة الأولى، نحكم مصر كُلّيًا وبدوافع صحيحة، وسيتعلم المصريون الآن – أو في أي وقت –معنى التأثير الإنجليزي على يد حكام عادلين. ولكننا حتى اليوم، لم تُقطَف أيدينا بما فيه الكفاية لنضمن أيَّ تظاهرٍ بتفوقنا الأخلاقي.

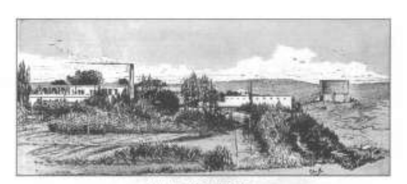


بين السويس والإسماعيلية، " يام سوف "، أو بحر القصب

والآن لدينا الفرصة لنبيّن أن أوروبا لها اهتمامات أخرى بخلاف «المصالح الذاتية» الأنانية في مصر، وأن الحُكم الإنجليزي لا يُفرِّق بين الأعراق والأشخاص، ولكنه يهدف إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع.[1]

---

(١) الغاية الأسمى للاستعمار البريطاني هي استنزاف ثروات مصر، لا تحقيق المصلحة العامة للمجتمع؛ إذ يرى المستعمر أن حكم الدولة المتخلفة الفقيرة أيسر من حكم الدولة المتقدمة الغنية (المراجع).



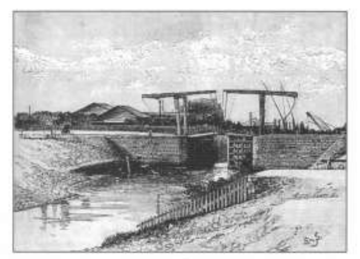
محطات المياه في الإسماعيلية

وإذا ما نُفذت الخطة الجديدة جيدًا، فسيُكتب هناك فصلٌ جديد وسعيد عن التأثير الأوروبي في مصر. وفي الوقت نفسه، نتطلع إلى أمل لا طائل منه في وجود ما يشبه الحضارة الأوروبية في مصر. يجب أن يدرك المرء الاختلافات الأساسية بين مصر وأوروبا، سواءٌ في العرق أو التاريخ. فسبعة آلاف عام من الظلم الرتيب، يمكن أن يُتوقع منها - بالكاد - أن تنتج نفس النتائج من تاريخ طويل مملوء بالمحاولات الناجحة في سبيل إقامة حكم ذاتي؛ فأولئك الذين يعرفون الشعب يمكنهم أن يكبحوا - بصعوبة - ابتسامة تصدر منهم عندما يقرءون عن «المؤسسات المحلية»، وعن نظامٍ نيابي يكون المصريون عن طريقه قادرين على حكم أنفسهم. تنتمي مثل هذه الرؤى المستقبلية إلى أرض الأحلام، وليس إلى الإدارة العملية لشؤون الدول. وإذا ما رأينا الموارد الزراعية للدولة تتطور إلى أقصى مدًى لها، وطبقة أمينة من المسئولين الحكوميين تحل محل الحكم «الباشوي» الحالي، ونظامًا قضائيًا غيرَ قابل للفساد والرشوة، ويحكم بالعدل والمساواة بين الأغنياء والفقراء، وإدخال بعض الطرق لتطبيق نظام تعليمي أوروبي، فإنا سنسعد برؤية نتائج مُرضية لتقدم مصر. وفي الحقيقة، سيكون لإنجلترا حق الافتخار بنفسها لو حققت نصف هذا البرنامج.

يُعد تراجع الفن ونقص المهارة لدى المصريين أمرًا مزعجًا يُعمل له حساب، فيجب أن نسعى جيدًا، وأن نتواضع في توقعاتنا، وأن نُحجم عن إخضاع أعمالنا التطبيقية لشروط إقامة حكومة تيوتونية في بلد شرقي.[1]

---

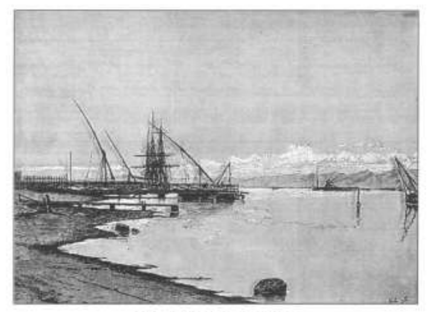
(١) حكومة تيوتونية TEUTONIC تعني حكومة قائمة على فهم متطلبات الشعوب ذات الجذور التاريخية القديمة، وكانت الكلمة تطلق على قبائل ألمانية وفرسانها في العصور الرومانية. (المترجم)



هويس على قناة مياه عذبة

ومهما تكن الإصلاحات التي قد ندخلها إلى مصر، فمن المؤكد أن آلية الحكومة النيابية لن تكون أكثر الآليات نجاحًا، وأننا – مهما فعلنا – لن نقدر أبدًا على تحويل الفلاح إلى الرجل العامل البريطاني.

ooo



على قناة السويس، محطة بالقنطرة " المعدية "

خاتمة

يَطرح هذا العرضُ الموجَز للحالة الاجتماعية لمصر – مهما يكن مختصرًا – بعضَ النتائج المهمة. إن «للمجتمع المصري» فضائله التي لا شك فيها. والأساس الأصلي للمساواة والإخاء في العالم بين المؤمنين – كما وصَّى بها النبي محمد – لا يزال يحتفظ بالكثير من قوته؛ فبساطة، الغني لا يُحترم بسبب ثروته، والفقير يشعر بأنه متساوٍ في كل الشؤون الأساسية مع جاره الغني. وتُعتبر اختلافات الطبقات أقل ظهورًا في الشرق عنها في أوروبا. وبلا شك، يستطيع المصريون كذلك تعليم نظرائهم الأوروبيين المعاصرين فيما يتعلق بأدق أمور السلوكيات. لكن فيما يختص بأساسيات الحضارة، فإن المصريين عليهم أن يتعلموا كلَّ شيء»؛ ففي التعليم، تنقصهم المبادئ الأساسية، وفي أعلى فئات الأخلاق أسسوا – بالكاد – نقطة بداية. والنقطة القاتلة في الديانة المحمدية هي وضع المرأة؛ فالنبي نفسه اعتبر المرأة ضلعًا أعوجَ من الصعب تقويمه، أو دُمية يُلعَب بها، وليست رفيقةً كزوجة تشاطر الرجل أحزانه ونضاله! ولقد فرض هذا المبدأ نفسه على

كل أنحاء العالم المحمدي[1]. فالنساء في الشرق تعتبر دُمىً للرجل الغني، ومصدر شقاء الرجل الفقير، وتعليمهن مُهمَلٌ تمامًا. وبالنسبة لأخلاقياتهن، فهن ببساطة يتعلمن كيف يغوين أزواجهن، وبالتالي يتعلمن فقط فنونًا سهلة التطبيق لدى أخريات، أكثر من أدائهن لواجبهن الشرعي. وتعليمهن ما هو إلا خطأٌ فادحٌ ذو نطاق عريض، فهن يتربّين على الهدف الوحيد: تزويجهن. والمكتسبات البغيضة للراقصات والغوازي تبقى في أذهانهن كالمؤهلات الملائمة للزوجة.[2]



المحطة بالقنطرة على قناة السويس

إنهن محجوباتٌ تمامًا عن الجنس الآخر في مخادعهن اللاتي يُجْرين فيها أمورهن الخاصة، ولا يَرَيْنَ أبدًا رجلًا غريبًا دون أن تتجه نواياهن إلى فكرة الزواج منه! والنظرة المنحطّة للنساء التي

(1) أخطأ ستانلي لين بول في هذه السطور وما بعدها. ولهذا تقتضي الأمانة العلمية أن نرد عليه مع إثبات النص كما هو، فهو لم يقرأ أن النبي ﷺ أمر المسلمين أن يستوصوا بالنساء خيرًا وقال "رفقًا بالقوارير"، وأخذ برأي زوجته السيدة أم سلمة رضي الله عنها أثناء صلح الحديبية عندما اختلف عليه الصحابة في شروط الصلح، وغير ذلك مما لا يتسع له المقام هنا. وكان الأفضل أن يقول إن المسلمين يسيئون فهم كلام النبي حسب هواهم، وأن ينظر للجانب الاجتماعي للحياة في الشرق بأكمله بخصوص معاملة النساء وفهم سيكولوجيتهن، وسيجد أن الأمر يرجع للطبيعة العقلية، وليس من الدين الإسلامي في شيء. وستجده يرد على نفسه في السطور التالية (المترجم)

(2) حقق معدل الالتحاق بالتعليم الجامعي والعالي للفئة العمرية (18-22 سنة) زيادة مضطردة، ليصل إلى 30٪ عام 2008-2009، كما انكمشت الفجوة النوعية بصفة منتظمة لتصل نسبة الطلبة للطالبات إلى (1.06 : 1) وهو مؤشر إيجابي. (الكتاب السنوي 2010، الهيئة العامة للاستعلامات ص 260) (المراجع).

تبثّها النساء أنفسهن، تنعكس على الرجال بالطبع. فهم يرغبون في المرأة فقط لممارسة الجنس معها، وأي فكرة عُليا عن الشهامة والنخوة - التي تُعدّ عنصرًا قويًّا يدل على الرجولة النبيلة - أصبحت مستحيلة في البلد الاجتماعي المسلم. إنّ الحب الحقيقي شديد الندرة في الشرق، والحب الصادق لامرأة واحدة لا يُحسب له حسابٌ ضمن قيم المسلم الاعتيادية. والنتائج الاعتيادية للفصل بين الجنسين، التي تُشكل صفة مميزة ومدمرة للحياة الاجتماعية في مصر هي الطلاق، لا تعدُّدَ الزوجات كما يُفترض. والقليل من الرجال يخاطرون بالتكلفة والعبء العائلي الناتج عن الارتباط بأكثر من زوجة، على الرغم من أنهم قد يشترون جواري، لكن معظمهم تقريبًا ينغمس في عادة التغيير المتكرر للزوجات. ونتيجةُ هذا الانحطاط هو تفسُّخ العلاقات بين الجنسين، وخسارة بعض أفضل وأرقّ العواطف المنسجمة مع الطبيعة الإنسانية. وهذه العلاقات الخاطئة بين الزوج والزوجة تظهر على السطح في تربية الأطفال؛ ففي السنوات الأولى في حياة الطفل، التي ربما تُعد أكثر فترات الإنسان أهميةً في حياته، يتربى الطفل على التأثير الفاسد من قِبل الحريم، حيث يتعلم الولد تلك النظرة الشهوانية تجاه النساء التي قد تكون لعنةً عليه في حياته فيما بعد، وتكتسب البنتُ تلك الانطباعات المتهتكة عن متطلبات الجنس الآخر، التي تجعلها تتوق توقًا شديدًا إلى أعلى وظائف المرأة الجسدية. ونادرًا ما تُطبَّق سُلطة إصلاح المرأة في الشرق. إن التأثير المستتر والمهذب للزوجة على الزوج، وللأم على طفلها، وللمضيفة على ضيوفها، لا يتواجد في دولة محمدية. خلاصةُ القول إن أفضل ينابيع المجتمع مُفتقَدة!



موظفو صيانة الخطوط من شركة " أورينتال تليجراف " في طريقهم الى السويس

إن أسوأ ما في هذا الوضع من الأمور الباعثة على الأسى، هو أنه لا يَلُوحُ هناك أي دليل على نجاح



بور سعيد

أي إمكانية للتطوير؛ فالنظام الاجتماعي المحمدي مرتبط بشكل واسع بالدين، ويبدو أن محاولة الفصل بين كليهما مهمة ميئوس منها تقريبًا. وبلا شك، فإن القرآن يحتوي[1] القليل جدًا عن النظام الاجتماعي، لكن هناك الكثير مما يقال عن نقاط عديدة في كلٍّ من العقائد والعبادات في الإسلام، وكثيرًا ما يرتبط المسلم بإخلاص وتفانٍ بهذه النقاط بالذات. ومن النادر أن تظل الطبيعة الأصلية لدينٍ ثابتة كما هي لفترة زمنية طويلة. وما كان حيويًّا وفائق الأهمية في عيون الواعظ الأول، أصبح موضوعًا ثانويًّا للجيل التالي من التابعين، في حين أن التفاصيل العَرَضية في العقيدة الأصلية قد تطورت تدريجيًا إلى «شيء واحد مطلوب» من تسل معتنقيها الحالي.

(١) بل القرآن حافل بالآيات الدالة على حسن تنظيم العلاقات في المجتمع. والأسرة هي نواة المجتمع، والأسرة في المجتمع المسلم أكثر ترابطًا من نظيرتها في المجتمع الغربي. (المراجع).

هذا هو الأمر مع الإسلام: اكتسبت الملاحظات العادية للمؤسس[1] قدسية أكبر بكثير من العقائد التي قدّمها ونشرَها بين الناس. والنظام الاجتماعي الذي سمح به أصبح - بكل معنى الكلمة - جزءًا من الدين، لدرجة أن السماح بالطلاق وتعدد الزوجات قد اعتبره المسلمون في مرتبة واحدة مع الإيمان بوحدانية الله. فما دام الدين المحمدي موجودًا، فستبقى - للأسف - الحياة الاجتماعية التي أصبحت مرتبطة به. وما دامت الأخيرة على حالها في مصر، فلن تستطيع توقع تحقيق النتائج الأعلى من مظاهر الحضارة.



بحيرة مريوط

لا شك أن النتيجة تبعث على الأسى، لكن من السفاهة أن تسمح لروعة صور الحياة في مصر، وفتنتها التي لا نظير لها، أن تحجب أعيننا عن الحالة السقيمة للمجتمع المسلم. وحتى ترتفع المرأة المصرية إلى معرفة أرقى لواجباتها وتأثيرها، وتُربَّى على ممارستها بشكل أفضل، فإن أكثر المتفائلين وذوي العزم لا يستطيع أن يتوقع رؤية «الحلاوة والنور» في مصر!

ooo

(١) أي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. (المترجم)

مصادر المترجم للترجمة والمقدمة والتعليقات

- المراجع العربية الأصيلة

١ - **حلبة الكميت** - أبو الحسن النواجي - سلسلة الذخائر (رقم ٢٧) - الهيئة العامة لقصور الثقافة - مصر - ١٩٩٨.

٢ - **ديوان أبي نواس** - حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٩٥٣.

٣ - **قاموس المصطلحات الأثرية والفنية** - تأليف حلمي عزيز والدكتور محمد الغطاس - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان - ١٩٩٣.

- مراجع مترجمة إلى العربية

١ - **حريم محمد علي** - صوفيا لين بول - ترجمة د. عزة كرارة - دار سطور للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩٩.

٢ - **سيرة القاهرة** - ستانلي لين بول - ترجمة د. حسن إبراهيم حسن - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٤.

٣ - **سيرة القاهرة** - ستانلي لين بول - ترجمة د. حسن إبراهيم حسن - تقديم د. أيمن فؤاد سيد. المركز القومي للترجمة - القاهرة - ٢٠١١.

٤ - **المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم** - إدوارد وليام لين - ترجمة عدلي طاهر نور - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة - ٢٠١٣.

- المراجع الإنجليزية

- **Arabian Society In The Middle Ages**. By: Edward William lane – published by: Chatto And Windus , London , 1883.

- **Edward William Lane, 1801–1876. The Life of the Pioneering Egyptologist and Orientalist**. By: Jason Thompson. American university in Cairo press. 2010.

مصادر المراجع

- القرآن الكريم.
- محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).
- **الكتاب المقدس**، أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، (القاهرة: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ١٩٩٣).
- د. إبراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**، الجزء الأول والجزء الثاني (إستانبول: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م).
- منير البعلبكي، **معجم المورد: إنجليزي - عربي** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣).
- **الكتاب السنوي: مصر، ٢٠١٠**، (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ٢٠١١).
- A Reader's Guide to the Holy Bible , king James Version , (Nashville: Thomas Nelson , Publishers , 1972).
- sir William Smith and sir John lock wood , Chambers Murray , Latin – English Dictionary , (Edinburgh: John Murray , 1996).
- Faye Carney , ed. , Dictionnaire Général , français – Anglais , Anglais – français. (Delhi: Larousse Bordas , 1998).
- Victoria Neufeldt , ed. , Webster's New world college Dictionary , (New York: Simon and Schuster & Macmillan Publishers , 1996).
- Robin Sawers , Harrap Giant paperback German Dictionary , English – German , German – English , (Edinburgh: chambers Harrap publishers , 1997)

المترجم في سطور

ماجد محمد فتحي أبو بكر

مواليد ٧ مارس ١٩٨٠

حاصل على بكالوريوس الاقتصاد الزراعي من المعهد العالي للتعاون الزراعي – القاهرة – ٢٠٠٤.

عضو الجمعية الجغرافية المصرية.

سابق الأعمال والترجمات:

- مترجم علمي للكتب والتقارير والنشرات الطبية البيطرية والزراعية والتجارية والإعلامية ومواقع الإنترنت لست شركات أوروبية بهولندا وبريطانيا منذ عام ٢٠٠٤ – ٢٠٠٩.
- ترجمة كتب:

1- **Letters from Egypt (1865-1869)**

Lady Lucy Duff Gordon. John Murray publishers. London ,1872

رسائل من مصر – ليدي لوسي دف جوردون (١٨٦٥–١٨٦٩)

بدار سطور الجديدة للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١٤

2- **Picturesque Palestine, Sinai , and Egypt. volume 4**. By Stanley lane poole , J.S.Virtue and Co., ltd. London ,1882.

الوصف المصوّر لسيناء ومصر. تأليف ستانلي لين بول وآخرين.

تحت الطبع بمكتبة الآداب للنشر والتوزيع بالقاهرة.

3- **Arabian Society in the Middle Ages**, By Edward William Lane ,ed. by Stanley Lane-poole ,London , 1883.

المجتمع العربي في العصور الوسطى. تأليف إدوارد ويليام لين. إعداد ستانلي لين بول.

تحت الطبع بدار سطور الجديدة للنشر والتوزيع بالقاهرة .

4- **Upper Egypt. Its people and its products**. By C.B. Klunzinger, New York, 1878.

صعيد مصر، أهله ومنتجاته، دكتور كارل كلونزينجر – نيويورك – ١٨٧٨.

تحت الطبع بمكتبة الآداب للنشر والتوزيع بالقاهرة.

المراجع في سطور

د. توفيق علي منصور

مواليد: ٩ مارس ١٩٣١ في قرية جزيرة الحجر – المنوفية

العمل: لواء ركن متقاعد – أستاذ جامعي متفرغ – مترجم – شاعر – ناقد.

المؤهل: ماجستير في الشؤون الفنية (الكلية الفنية بيرتو – ١٩٥٨).

ماجستير في العلوم العسكرية والاستراتيجية (كلية القادة والأركان – ١٩٦٥).

ماجستير في الأدب الإنجليزي (جامعة القاهرة – ١٩٨٤).

دكتوراه في الأدب الإنجليزي (جامعة القاهرة – ١٩٩٣).

التأليف والترجمة: أكثر من ٦٠ كتابا في موضوعات: الهندسة والجيولوجيا والجغرافيا والتاريخ والاستراتيجية والأمن والسياسة وعلم النفس والإدارة والأدب؛ منها خمسة كتب باللغة الإنجليزية، ومسرحيتان من الشعر الإنجليزي. وترجمة جميع قصائد وملاحم وسونيتات شيكسبير، وجميع مسرحيات كريستوفر مارلو (شعرًا بشعر)، والأعمال الكاملة لهانز كريستيان أندرسين (حكايات الجن)، ومعجم المصطلحات العامية واختصاراتها باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية

الزيارات الأجنبية: تشيكوسلوفاكيا وسويسرا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وتركيا واليمن والمملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية وقطاع غزة.

المؤتمرات الدولية: الأمن الدولي ٢١ بالرياض ١٩٨٣، والطبي الدولي الثامن بالرياض ١٩٨٥، والجنادرية الدولي ١١ بالرياض ١٩٩٦، والملتقىٰ الدولي الثالث للترجمة بالقاهرة ٢٠٠٦، والأدباء والكتاب العرب بالعريش ٢٠٠٧.

الخبرات الميدانية: المشاركة في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وصدّ حرب العدوان الثلاثي ١٩٥٦، وحرب اليمن ١٩٦٤، وحرب ٥ يونيه ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف ١٩٦٧ – ١٩٧٠، وحرب رمضان ١٣٩٣ هـ – أكتوبر ١٩٧٣. وتولىٰ القيادة وأعمال أركان الحرب، وحصل علىٰ العديد من الأنواط والأوسمة.

الجوائز: فاز بجائزة الشاعر العربي عبد الله باشراحيل (٢٠٠٩) في الترجمة التي نظمتها كلية الآداب جامعة المنيا، ولكنْ حُجبت الجائزة في ظروف غامضة!

فاز بجائزة رفاعة الطهطاوي في الترجمة من المركز القومي للترجمة (٢٠١١)

العضوية: اتحاد الكتاب المصري، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية.

الحياة الاجتماعية في مصر وصف للبلد وأهلها



هذه هي الترجمة الأولى لكتاب Social life in Egypt
"A Description of the Country and its people"
والذي صدر في عام 1883 م باللغة الإنجليزية ، كتبه المستشرق البريطاني ستانلي لين-بول Stanley Lane-Poole ، وسار فيه على خطى جده الأشهر إدوارد وليم لين صاحب كتاب "المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم" ، وإن كان قد فاقه في وصف الحياة الاجتماعية في ريف مصر ، كما يتميز هذا الكتاب بكم لوحاته الرائعة المحفورة على الخشب و الإستيل "136 لوحة" والتي تجعل منه تحفة فنية حية ينهل منها محبو الفنون ، وتضاف إلى كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ولكن بعين وقلم وريشة بريطانية.



يقسو المؤلف أحيانا في أحكامه على المصريين ، وينصفهم أحيانًا أخرى ، وأحيانًا ما يخطئ في الفهم ، أو يتحامل لغرض ما ، كذلك يقسو على قومه ويصفهم بالنهابين والمحتالين والمفسدين .



صيغ الكتاب بأسلوب أدبي عالٍ ، وجاءت الترجمة دقيقة محكمة ، وزادها جلاءً مراجعة المراجع بما له من باع طويل في الترجمة الإنجليزية العربية ، كما قام كل من المترجم والمراجع بالتعليق على بعض آراء المؤلف .

كتاب وثائقي جدير بالقراءة والتأمل ، ومُتحف فني يرحب بزوّاره.

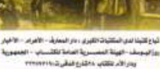








ISBN 978 977 468 610 8
9 789774 686108



تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى ، دار المعارف - الأهرام - الأخبار
روز اليوسف - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الجمهورية
ودار الأمل للكتاب ٨ شارع الفلكي ت: [illegible]